

جون كينيث جالبريث



المركز القومي للترجمة

الانهيار الكبير 1929

ترجمة

حمدي أبو كيلا

2321



يعد كتاب "الانهيار الكبير" لجون كينيث جالبريث من أهمّات الكتب في حقل التاريخ الاقتصادي في القرن العشرين. وكما يتضح من عنوان الكتاب فهو يؤرخ للانهيار الكبير الذي أصاب الاقتصاد العالمي سنة 1929 واستمر حتى سنة 1933؛ مما يكسب الكتاب أهمية خاصة في وقت لم يربأ فيه العالم بعد من عواقب الأزمة الاقتصادية والمالية التي بدأت في 2008. وقد كان الكتاب لأكثر من نصف قرن - ولا يزال - مرجعاً مهماً للباحثين والمهتمين في مجال التاريخ الاقتصادي والعلوم الاقتصادية والمالية، وهو ما يفسر استمرار إعادة طبعه تسع مرات بين سنتي 1954 و 2009.

يلقي جالبريث الضوء على مقدمات الأزمة، محللاً دور سوق المال الأمريكية في تكرار موجات الانكماش على فترات معاقبة بما لها من آثار على الاقتصاد الأمريكي والاقتصاد العالمي على حد سواء، محذراً من إمكانية تكرارها. ثم يتطرق إلى تشريح الأزمة من خلال تفاصيل تطوراتها وانعكاساتها على جوانب الحياة الأمريكية كافة، وعلى مستوى العالم. ثم ينتقل إلى تناول عواقب الانهيار الكبير وأهمها "الكساد الكبير"، الذي استمر حتى أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن العشرين.

الانهياء الكبير

١٩٢٩

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2321
- الانهيار الكبير ١٩٢٩
- جون كينيث جالبريث
- حمدي أبو كيلة
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

The Great Crash 1929.

By: John Kenneth Galbraith

With an Introduction by James K. Galbraith

Copyright © 1954, 1955, 1961, 1972, 1988, 1997 by John Kenneth Galbraith.

Introduction copyright © 2009 by James K. Galbraith

Arabic Translation © 2014, National Center for Translation

Published by special arrangement with

Houghton Mifflin Harcourt Publishing Company

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org

Tel: 27354524

Fax: 27354554

الانهيـار الكبير

١٩٢٩

تأليف: جون كينيث جالبريث

ترجمة: حمدي أبو كيلة



2014

جالبريث، جون كينيث، ١٩٠٨ - ٢٠٠٦.
الانهيار الكبير ١٩٢٩ / تأليف: جون كينيث
جالبريث: ترجمة: حمدي أبو كيلة. - القاهرة :
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.

٢١٦ص: ٢٤ سم.

تدملك ١ ٠٠٨٢ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الأزمات الاقتصادية.

٢ - الولايات المتحدة الأمريكية - الأحوال الاقتصادية.

١ - أبو كيلة، حمدي (مترجم)

ب - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٤ / ٢٥٢١٠

I. S. B. N 978 - 977- 91 - 0082 - 1

ديوى ٣٣٨.٥٤

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي، وتعريفه بها. والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

7	تصدير بقلم جيمس كي. جالبريث
15	المشهد بعين التسعينيات.....
21	ملاحظات بشأن المصادر
23	الفصل الأول: رؤية، وأمل وتفاؤل غير محدودة.....
45	الفصل الثاني: هل كان هناك ما يجب فعله.....
63	الفصل الثالث: نشق في جولدمان ساكس.....
87	الفصل الرابع: أفيول الوهم.....
109	الفصل الخامس: الانهيار.....
129	الفصل السادس: الأمور تصير أكثر خطورة.....
149	الفصل السابع: في أعقاب الانهيار (١)
165	الفصل الثامن: في أعقاب الانهيار (٢)
189	الفصل التاسع: السبب والنتيجة.....

تصدير

بقلم: جيمس كى. جالبريث

قبيل نهاية هذا الكتاب، وصل أبى - على الرغم من إبدائه لتمنع كان يعرف أنه لن يأخذه بكثير من الجدية - إلى التعليق على ما إذا كان انهيار آخر يمكن حدوثه. كان وراء ذلك كثير من الأسباب، بما فى ذلك الذاكرة والنظم الجديدة، فلم لا. وفوق ذلك "فلا احد يستطيع أن يشك فى أن الشعب الأمريكى يظل عرضة للتأثر بمزاج المضاربة، أو للاعتقاد فى أن المغامرة يمكن أن تعد بمكافآت غير محدودة هم مهتمون - على المستوى الفردى - بالمشاركة فيها. إن وجود سوق صاعدة يستطيع أن يظل شاهداً على واقعية الثراء. وهذا بدوره يمكن أن يجذب المزيد والمزيد من الناس للمشاركة. إن أساليب الوقاية والضوابط الحكومية جاهزة. وعندما تكون فى يد حكومة حازمة فلا سبيل للتشكيك فى فاعليتها، ومع ذلك توجد مئة سبب تجعل الحكومة تصر على عدم استخدامها" (٥).

إن العلاقة الأساسية بين الانهيار الكبير ١٩٢٩ والأزمة الكبرى ٢٠٠٨، بالتأكيد تكمن هنا. ففى كل من الحالتين، كانت الحكومة تعرف ما عليها فعله. وفى كل من الحالتين؛ رفضت القيام به. فى صيف ١٩٢٩؛ كانت هناك تحذيرات صارمة مقبلة من أعلى، وارتفاع سعر الخصم، والتحقيقات الصارمة حول المخططات

(٥) هذه الفترة مقتبسة بنصها من الفصل التاسع والأخير من الكتاب: (المترجم).

الاستثمارية الهائلة فى ذلك الوقت، وقصور الرمال فى وول ستريت التى كان لا بد من هدمها قبل أن يدمر سقوطها الاقتصاد فى مجمله. وفى سنة ٢٠٠٤؛ حذر مكتب التحقيقات الفيدرالى "FBI" علانية من "وباء من الاحتيال العقارى؛ ولكن الحكومة لم تفعل شيئاً، ربما أقل من اللا شئ، موفرة - على العكس - أسعار فائدة منخفضة، وتحرراً من الضوابط، وإشارات واضحة إلى أن القوانين لن تطبق، وكان هذا بمثابة إلقاء البنزين على النار. إن مبدأ جرينسبان(*) " Greenspan Doctrine" يقضى بأن الأزمات لا يمكن منعها، حيث إن وظيفة الحكومات هى إزالة آثارها بعد وقوعها.. وهكذا كانت ممارسة مبدأ جرينسبان تؤدى إلى خلق أزمة بعد أخرى، حتى أدت، فى النهاية إلى أزمة من الاتساع لدرجة أنها دمرت النظام فى سياقها.

إن أزمتهما فى أصلها أزمة إسكان، وليست واحدة من أزمات الإسكان صغيرة النطاق، بل هى أزمة كبيرة جداً. لقد نشأت من هجمة وحشية على وسائل الحماية التى حافظت، على مدى عقود، على تمويل الإسكان آمناً ومستقراً. ففى بدايات الألفية أرسلت إدارة بوش إشارات واضحة إلى أن قوانين الرهن العقارى لن تطبق، ولم تكن الإشارات هينة؛ ولكن قد أتبع كل وسائل الخداع من أجل استنزاف حسنى النية؛ "قروض الكذابين" "Liars' Loans" والقروض غير الموثقة "No-doc Loans" وقروض نيوترون "Neutron loans"؛ التى كانت كلها من المصطلحات الفنية فى مجال الأعمال، تضافرت معاً، وتم تقييمها سوقياً، وورقت، ثم انتشرت على نطاق العالم، وتركت لتتفاقم إلى أن تحطم النظام بفعل معدلات الفائدة المرتفعة والأسعار المنهارة. لقد كتب ريتشارد كوهن فى الواشنطن بوست مقالاً يصعب تجاهله عن إحدى الحالات، وهى حالة مارفين هالترمان من أفوندايل بأريزونا:

فى سن الحادية والستين، وبعد ثلاثة عشر عاماً من البطالة المتصلة، وفترة مماثلة على الأقل من الحياة على الإعانات الحكومية، حصلت على قرض

(*) نسبة إلى الاقتصادى الأمريكى آلان جرينسبان (١٩٢٩) Alan Greenspan الذى شغل منصب رئيس بنك الاحتياطى الفيدرالى بين ١٩٨٧ و ٢٠٠٦ (المترجم).

عقارى... وقد حصلت عليه على الرغم من أن المنزل كان يقيم فيه ٢٣ شخصاً فى وقت واحد (مساحة المنزل ٥٧٦ قدمًا مربعًا، وبه حمام واحد)، كما أن ملحقاته آيلة للسقوط. حصلت على قرض قيمته مئة وثلاثة آلاف دولار، وهو مبلغ يفوق كثيراً قيمة المنزل. لقد تمت مصادرة منزل هالترمان الذى لم يتمتع فى يوم من الأيام بمظهر جذاب، حتى صارت المدينة تضرب المثل بهالترمان نظراً لأنواع النفايات (ملابس، إطارات سيارات... إلخ) المتراكمة فى حديقة بيتها؛ ومع ذلك قامت إحدى مؤسسات الإقراض المحلية التى تحمل اسم إنتجريتى فندينج إل إل سى بإعطائها قرضاً عقارياً بعد أن قومت المنزل بنحو ضعفى الثمن الذى بيع به منزل مجاور، ثم قامت إنتجريتى فندينج ببيع القرض إلى مؤسسة ويل فارجو أند كومبانى التى باعته بدورها إلى إتش إس بى سى بى إل سى التى دمجته مع آلاف من القروض العقارية الخطرة الأخرى؛ ثم عرضت هذه الخلطة غير المهضومة على المستثمرين؛ حيث قام كل من مودى إنفستورز سيرفيس وستاندرد أند بورز بإلقاء نظرة عليه - كما هو مفترض فعله - ثم قاما بتقييمه باعتباره قرصناً "ممتازاً من الدرجة الأولى".

لقد كان هذا غشاً ارتكب بداية من قبل الحكومة تجاه عامة الناس، ومن قبل الأغنياء تجاه الفقراء. وقد كان المقترضون - بالطبع - متواطئين فى بعض الحالات بأن حصلوا على قروض عقارية لم يأملوا يوماً فى سدادها. وفى حالات أكثر بكثير كانوا سذجاً مغرراً بهم، وواقعين تحت ضغوط ومستعدين لتصديق كل شىء على أمل فى أن شيئاً ما قد يتغير. لقد حصلوا على تأكيدات من المقرضين بأن أسعار المنازل فى ارتفاع مستمر؛ وبأن القروض الرديئة يمكن دائماً إعادة تمويلها. لقد كان الأمر جذاباً بالنسبة إلى المقرضين لكل تلك الأسباب، ولأنه ليس لديهم ما يخسرونه، والمقترض الذى لا يملك ما يخسره سوف يوقع الأوراق التى لن يوقعها الآخرون، كما أن الحكومة التى تسمح بأن يحدث هذا تكون متواطئة فى جريمة واسعة النطاق.

وكما حدث فى ١٩٢٩؛ فإن صانعى الكارثة سوف يشكلون منصة حافلة بالمراقبين الجديرين بتوجيه سهام الإدانة إليهم؛ فالموضوعى العجوز آلان

جرينسبان "Alan Greenspan" كان مدرّكًا بشكل أو بآخر للكارثة الوشيكة، ولكنه كان عازفًا بإصرار عن وقفها. والمصرفى الليبرالى روبرت روبن حاز سمعة تتصف بالنزاهة المالية غطى عليها تقاعسه الكارثى فى سيتى جروب؛ حيث تقاضى ١١٥ مليون دولار والتزم الصمت. حتى الآن فيما نعلم. وهناك فيل جرام الذى كتبت عنه واشنطن بوست فى أبريل ٢٠٠٨؛ أنه كان "المشعوذ المبتدئ فى مجال الفوضى والكوارث المالية". (كانت الصحيفة تنقل عنى، وقد اتصل بى جرام تليفونياً مستكراً ذلك). هناك أيضاً لورنس سمرز الداعية المتحمس لإلغاء قانون جلاس ستيغال (٥٠) "Glass Steagall Act" سنة ١٩٩٩؛ الذى وثب من رئاسة جامعة هارفارد إلى طاقم أوباما - وهو الرجل الذى إما أن ينجح فى إعادة بناء سمعته، وإما أن الأحداث سوف تطمرها. وأخيراً هناك برنارد مادوف.

إن العصابة ذات السمعة السيئة هى جزء من مهزلة الانهيار، بأثر رجعى على الأقل. وفى ظل استعادة الازدهار فى خمسينيات القرن العشرين وما تلاها من سنوات، فإن أبى والتاريخ كانا - على وجه العموم - قانعين بالانسحاب من الأحداث. ومن الشخصيات الجديرة بالذكر؛ هناك تشارلز ميتشيل وصمويل إنسول اللذان برئت ساحتهما، وإيفار كروجرالذى أقدم على الانتحار، وريتشارد ويتنى فقط هو الذى دخل سجن سينج سينج "Sing Sing"؛ ولو أعطى المحلفون الفرصة فى وقتنا هذا فسوف يكونون أقل تسامحاً؛ أما إذا ما كانوا سوف يعطون الفرصة أم لا فهذا شأن آخر، وإذا لم يعطوا تلك الفرصة فلن يكون هناك أمل كبير فى التخلص من آثار الجرائم المهولة التى ارتكبت خلال العقد الماضى. وحتى الآن، لم تكشف إدارة أوباما عما إذا كانت تتبنى سياسات روزفلت التى أعطتنا قانون الطوارئ المصرفى (٥٥) "Emergency Banking Act" واللجنة

(٥) قانون صدر فى الولايات المتحدة سنة ١٩٣٣؛ وضع قيوداً على المضاربة فى الأوراق المالية، كما أدخل إصلاحات على النظام المصرفى وشركات التأمين (المترجم).

(٥٥) قانون صدر فى الولايات المتحدة سنة ١٩٣٣ (فى عهد الرئيس روزفلت)؛ يسمح فقط للبنوك المصرح لها من قبل بنك الاحتياطى الأمريكى الفيدرالى بالعمل داخل الولايات المتحدة (المترجم).

الأمريكية للأوراق المالية والبورصة^(٥) (SEC) The Securities and Exchange Commission ولكن ما زال هناك وقت، وسوف نرى.

إلى حد كبير، سوف يغيب عن أى كتاب حول أزمة ٢٠٠٨ الكبرى؛ عناصر الأمل والطيبة والبهجة والتفاؤل التى كانت هى الملامح الوحيدة المميزة لازدهار عشرينيات القرن العشرين، وقد جعلت الناس سعداء جدا فى ذلك الوقت. ونحن نقرأ فى تلك الصفحات التى كتبها فريدريك لويس آلن^(٥٥) "Frederick Lewis Allen" عن السائق الخصوصى لأحد الأغنياء وهو يتابع باهتمام تحركات أسهم شركة بيتلهم للصلب، وعن مربي الماشية من ولاية ويومينج الذى يتعامل فى ألف سهم كل يوم. فى ١٩٢٩ اعتقد الملايين أنهم يستطيعون بسهولة أن يصبحوا أثرياء، وقد استطاع بعض ذلك. وقد أتت اللحظة الموازية فى التاريخ الحديث فى أواخر تسعينيات القرن العشرين، مع ازدهار تكنولوجيا المعلومات فى عهد الرئيس كلينتون، وهو الازدهار الذى تلاشى مع نهاية ذلك العقد؛ فالسنوات التالية لقضية بوش فى مواجهة جور - Bush V. Gore؛ سنوات الحادى عشر من سبتمبر والحرب على الإرهاب وغزو العراق - لم تشهد أيًا من هذه العناصر. فالمملكة التى وضعت مدخرات عمرها بين يدي مادوف^(٥٥٥) Madoff؛ لم تكن تحاول أن تصبح ثرية، ولكنها كانت تأمل فقط فى الحصول على عائد آمن ومستقر. والملايين الآخرون الذين حصلوا على قروض عقارية كانوا يطلبون ربما أقل من ذلك، ولم يكونوا بالأساس مضاربين؛ فإن ما أرادوه - أو ما أرادهم معظمهم - كان بالضبط ما يملكه كل شخص آخر، بيت يملكونه. وقد كان مصدر متاعبهم أنه لم

(٥) وكالة أمريكية فيدرالية أنشئت سنة ١٩٣٤. تختص بمسئولية تطبيق القوانين واللوائح المتعلقة بالأوراق المالية (المترجم).

(٥٥) فريدريك لويس آلن (١٨٩٠ - ١٩٥٤): صحفى ومؤرخ أمريكى. من أهم كتبه Only Yesterday Since Yesterday اللذان أرخا للحياة الأمريكية خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين على الترتيب. واهتم فى الأخير بتغطية الكساد الكبير (المترجم).

(٥٥٥) برنارد مادوف (١٩٣٨) مستثمر أمريكى وسمسار الأوراق المالية، أدين بارتكاب جرائم مالية؛ وصدر ضده حكم بالسجن لمدة ١٥٠ عاماً فى ٢٠٠٩ (المترجم).

يكن هناك من سبيل للحصول على مثل هذا البيت من دون رهان من خلال المضاربة.

والآن، فإن الملايين منهم يفقدون بيوتهم في مأساة أمريكية؛ حيث تتشارك العائلات السكن، أو تنتقل إلى مساكن بالإيجار، أو تتزاحم في غرف الموتيلات أو في سياراتها، أو تتدفق على حداث المدن. لقد امتد ضحايا الإفلاس عبر الطبقة المتوسطة الأمريكية، إلى الملايين من أصحاب القروض الصغيرة نصف المدفوعة، والمشاركين في نظام (*) 401(K)، وأصحاب المدخرات الصغيرة الذين انهارت كل حقوق ملكية بيوتهم، وما يحملونه من سندات وما يتحصلون عليه من عوائد. إن ما أخذ في سنة ١٩٣٠ الشكل الدرامي من الإنديفاع لسحب الأموال من البنوك (تجريد الطبقة المتوسطة من مدخراتها وثروتها)؛ أخذ في ٢٠٠٨ و ٢٠٠٩ شكلاً من الانهيار المتزامن في قيم الأصول شهراً بعد شهر، متبوعاً بالإفلاس وتخفيض العمالة وتصفية مشروعات الأعمال. وعلى الرغم من أن البلاد لم تتعرض لنقص في الطعام، فقد كان في كل هذا معاناة عاجلة وإن لم تصل غالباً للنضوب الكامل في الإمكانيات بالنسبة إلى التعليم والعمل والتقاعد؛ وهذه المعاناة أيضاً تمثل غمامة سوداء على عصرنا؛ حيث إن السنوات السابقة على الأزمة الأخيرة لم تكن سارة، فإن العالم بعدها يخاطر بأن يكون أقل بأساً بكثير وأكثر كآبة فقط مما كان عليه في عهد روزفلت والعقد الجديد "The New Deal" (*).

أما ما إذا كانت الأحداث اللاحقة للأزمة سوف تتبع مسار كوارث ١٩٣٠ وما تلاها من سنوات فهو محل شك. ففي أيامنا حيث الحكومة الكبيرة - مع ما يسميه الاقتصاديون المثبتات الآلية والحوافز المالية العاجلة - تكون الأزمات

(*) نظام خاص لمعاشات التقاعد يعتمد على مدخرات الأعضاء (المترجم).

(**) العقد الجديد "The New Deal"؛ مجموعة من البرامج الاقتصادية التي أصدرها الكونجرس الأمريكي في الفترة من ١٩٣٣ - ١٩٣٦ خلال الفترة الأولى من حكم الرئيس فرانكلين روزفلت، استهدفت هذه البرامج مواجهة آثار الكساد الكبير من خلال التركيز على ثلاثة محاور هي تقديم العون للعاطلين والفقراء، واستعادة المستويات الطبيعية للاقتصاد الأمريكي، وإصلاح النظام المالي للبلاد (المترجم).

الاقتصادية أقل حدة، ويأتى التعافى أسرع مما كانت عليه الحال قبل قرن تقريباً. لقد احتاج الأمر من الولايات المتحدة أربع سنوات كي تصل إلى روزفلت، بينما كانت قادرة - بمصادفة التوقيت السياسى - على أن تنتخب وتتصب باراك أوباما خلال ما لا يزيد على بضعة أشهر. وعلى هذا، فإن الموقف الذى يواجهه البلاد اليوم أقل خطورة، والإجماع على خطوات راديكالية أكثر ضعفاً، وقدرات الإدارة أقل بطولية. وحيث تكتب هذه السطور، فإن الاقتصاد فى مجمله يبدو أكثر ثباتاً، والخبراء يتجادلون حول ما إذا كان انتعاش البورصة فى أوائل ٢٠٠٩ يمثل بداية التعافى أم إنه نوع من "سباق البلهاء". إن الإنتاج قد يستأنف، ولكن بمشاركة غير مسبوقة آتية من الواردات. يمكن أن تستمر الأمور على حالها من الخطأ الشديد، فالحكومة تبدو مصرة على سلامة واستمرار كل بنك أو شركة تأمين عليلة. لا أحد يتوقع انتعاشاً مبكراً للتوظيف، ولا خططاً قائمة على قدم وساق يمكن أن تعيد توظيف الملايين الذين يفقدون وظائفهم الآن. إن الأزمة الكبرى الحالية لم تسفر حتى الآن عن رجالها من أمثال هارى هوبكينز^(٥) Harry Hopkins وهارولد إيكس^(٥٥) Harold Ickes وفرنسيس بركينز^(٥٥٥) Frances Perkins وهنرى ولاس^(٥٥٥٥) Henry Wallace وآخرين ممن يفترض ظهور أمثالهم اليوم. لكل هذه الأسباب، يبدو أنه من غير المتوقع فى الوقت نفسه أن الكتب التى ستأتى حول أزمة ٢٠٠٨ الكبرى سوف تكون ممتعة بقدر هذا الكتاب.

بقيت كلمة أخيرة، إن قراءة كتاب "الانهيار الكبير ١٩٢٩" قد يتساءلون عن العادات الاستثمارية لمؤلفه، وعلى وجه الخصوص عما إذا كان - (مثل كينز) - لم يستجب يوماً لغواية المضاربة المالية. وأنا أستطيع أن أقر بأنه - حسب علمى

(٥) أحد أهم مستشارى الرئيس روزفلت، وأحد مهندسى سياسة العقد الجديد The Deal (المترجم).

(٥٥) وزير الداخلية فى عهد الرئيس روزفلت (المترجم).

(٥٥٥) وزيرة العمل طوال رئاسة الرئيس روزفلت (١٩٣٣ - ١٩٥٤)، أول امرأة تشغل منصب الوزير فى الولايات المتحدة (المترجم).

(٥٥٥٥) نائب رئيس الولايات المتحدة (١٩٤١ - ١٩٤٥) - (المترجم).

حتى الآن - لم يحدث له هذا. كانت محفظته المالية محفظة مستثمر في القيم، يحتفظ ببعض الأوراق المالية على المدى الطويل، ولحين تقاعده لم ينعم به في الحقيقة أبداً، حيث ظل يكتب بسعادة واستمتاع وعملية حتى يوم وفاته في السابعة والتسعين في أبريل ٢٠٠٦، وهو أيضاً لم يكن ينفر من التحوط الصارم. وأنا أذكر يوم حادثته تليفونياً مساء يوم انهيار السوق في أكتوبر ١٩٨٧، وهو الحدث الذي بعث الاهتمام بهذا الكتاب من جديد بعد توقف قصير. وقد كان من الصعب عليه لحد ما - بسبب اهتمام الصحافة الوطنية - الرد على المكالمات الهاتفية؛ ولكن عندما اتصلت أنا به سمعت صوته الأبوى المطمئن: "جيمس؟ هل هذا هو أنت؟". وبعد صمت قصير: "لا تقلق، إن معي من النقود ما يكفي لي لمدة ثلاثة أسابيع". ولكن بعد لحظات صمت أخرى تغيرت نبرة صوته: "ولكن من المؤسف أن أقول إن الأمر مختلف مع أمك، فقد وجدت من الصعب جداً أن تباع شركة جنرال إلكتريك التي اشتريتها عائلتها من شركة إديسون مقابل دولار واحد".

أوستن، تكساس

١٨ مايو ٢٠٠٩

المشهد بعين التسعينيات

تقديم

كتاب "الانهيار الكبير ١٩٢٩" نشر للمرة الأولى سنة ١٩٥٥، وظل يطبع باستمرار طوال تلك السنوات، التي تزيد اليوم على خمسة وأربعين عاماً. والمؤلفون (والناشرون) - كعادتهم - يميلون لأن يعزوا تلك الاستدامة إلى امتياز العمل. ومن الجلى أن هذا الكتاب تمتع بشيء من الجدارة، ولكن من سوء الطالع - وربما من حسن الطالع - أن هناك سبباً آخر لهذه الاستمرارية؛ فكلما كان الكتاب يوشك على التوقف عن إعادة الطبع وينفذ من منافذ البيع، كانت نوبة مضارية أخرى - فقاعة أخرى أو محنة تالية - تثير الاضطراب في أسعار الفائدة على مدى التاريخ الحديث لحالات الرواج والانهيار الكبرى، ما يؤدي إلى كساد لا يرحم. والحقيقة أن أحد توابع تلك النوبات كانت أن الكتاب يعود ليخرج من المطابع من جديد. لقد كان هناك رواج بسيط في سوق الأوراق المالية في ربيع ١٩٥٥، وقد استدعيت إلى واشنطن كي أدلى بشهادتي في جلسة استماع أمام مجلس الشيوخ حول خبرات الماضي. وفي أثناء إدلائي بشهادتي في ذلك الصباح؛ شهدت البورصة هبوطاً مفاجئاً. وقد ألقى على باللائمة في ذلك الانهيار، خاصة من قبل هؤلاء الذين مكثوا طويلاً في السوق، وقد كتب عدد لا بأس به من هؤلاء يهددونني بالإيذاء البدني، كما أخبرني عدد أكبر من المواطنين الأتقياء بأنهم

كانوا يدعون على بالمرض أو الموت العاجل. وخلال أيام قلائل بعد شهادتي؛ كسرت ساقى بينما كنت أمارس التزلج فى فيرمونت، ونشرت الصحف ذلك. وقد جاءتنى خطابات من هؤلاء الأتقياء الذين دعوا على تخبرنى بأن دعاءهم قد استجيب.. وهكذا أكون على الأقل قد قدمت شيئاً ما للدين. وفى مزاج تلك الأيام اتهمنى سيناتور إنديانا هومر إى كيبهارت بأننى شيوعى متخف.

لقد كانت هذه مجرد البداية؛ فقد أدى خبل التمويل الخارجى فى السبعينيات، والإفلاس الكبير فى ١٩٧٩^(٥) - وهى نوبات أو مخاوف أقل درامية - إلى لفت الانتباه من جديد إلى ١٩٢٩ وإلى عودة الكتاب إلى المطابع، وهذا ما يحدث الآن مرة أخرى فى ١٩٩٧.

وحيث إنه من الواضح فى تلك اللحظة لكل شخص لم يقع فى شرك التفاؤل الأبله؛ أننا نشهد حالة بالغة من الإنفاق السفیه على المضاربة؛ فإن هناك - حيث تكتب هذه السطور - أموالاً تتدفق على سوق المال أكثر بكثير مما يوجد من الذكاء المطلوب لتوجيهها. وهناك صناديق مشتركة أكثر بكثير ممن يوجد من الرجال والنساء ذوى النظرة الشاقبة والواعين تاريخياً واللازمين لإدارة تلك الصناديق. أنا لا أحبذ التنبؤ، فحكمة المرء تنسى، بينما أخطاؤه فقط تظل مذكورة، ولكننا الآن أمام عملية أساسية ومتكررة، وهى تأتى مصحوبة بالأسعار المرتفعة، سواء أسعار الأوراق المالية أو أسعار العقارات أو الأعمال الفنية أو أى شئ آخر. هذه الزيادة تجذب الانتباه والمشتريين، ما يؤدى إلى تأثير إضافى متمثل فى مزيد من ارتفاع الأسعار.. وهكذا تكون التوقعات محكومة بالذات بالتصرفات التى تدفع الأسعار إلى أعلى، وتستثمر العملية، فالتفاؤل وتأثيره فى السوق هو سمة النظام الحالى.. وهكذا ترتفع الأسعار أكثر فأكثر، ثم - ولأسباب لن يتوقف الجدل حولها - تأتى النهاية. إن الهبوط دائماً يأتى أسرع من الارتفاع، والبالون الذى يثقب لا ينكمش بطريقة منظمة.

(٥) أزمة تراجع هائلة فى البورصات المالية وعلى رأسها البورصة الأمريكية؛ وكانت الأكبر منذ الكساد العظيم الذى بدأ عام ١٩٢٩، كما أدت تداعياتها إلى اضطراب أسواق العملات بصورة جادة (المترجم).

على سبيل التكرار، أنا لا أقوم بأى تنبؤ، أنا فقط ألاحظ أن هذه الظاهرة قد أثبتت نفسها مرات عديدة منذ ١٦٣٧ عندما رأى المضاربون الهولنديون فى بصيالات التبوليب طريقهم إلى الثروة، وفى سنة ١٧٢٠ عندما جلب جون لو لباريس ثروة افتراضية؛ ثم فقراً مفاجئاً من خلال مطاردة ذهب فى لويزيانا لم يكتشف حتى اليوم. وفى تلك السنوات أيضاً نشرت فقاعة بحر الجنوب^(*) "South Sea Bubble" الكبرى خراباً مالياً فى بريطانيا. ولاحقاً كان هناك المزيد، وفى الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر كان هناك إنفاق سفيه على المضاربة كل عشرين أو ثلاثين عاماً، لقد كان هذا بالفعل تقليداً بالنسبة إلى جماعات المهاجرين، سواء فى الشمال أو الجنوب، جُربَ مقابل تكلفة نهائية غير قليلة مع إصدار عملات ليس لها أى رصيد منظور^(**). لقد كانوا يعملون جيداً إلى أن لوحظ أنه لا يوجد هناك شىء. لقد مولت الثورة بالأوراق النقدية غير المستندة إلى أى غطاء، والتي أصبحت محل سخرية واستخفاف من الجميع باعتبارها لا تساوى قيمة الورق الذى طبعت عليه. وفى السنوات التالية لحرب ١٨١٢ - ١٨١٤^(***)؛ كان هناك رواج كبير فى العقارات، وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر حلت مضاربة واسعة النطاق على الاستثمار فى قناة إيرى^(****) "Erie Canal" والطرق السريعة التى تستخدم مقابل رسوم، والتي اصطلح على تسميتها بالتحسينات الداخلية؛ إلى جانب هذا سار إصدار النقود

(*) فقاعة بحر الجنوب "South Sea Bubble" أزمة مالية واقتصادية تستمد اسمها من اسم شركة "South Sea Company" التى تسببت فى حدوثها سنة ١٧٢٠، وهى شركة بريطانية الأصل كانت تمارس نشاطها فى أمريكا الجنوبية فى القرن الثامن عشر. لجأت الشركة إلى الإفراط فى المضاربة على أسهمها ما تسبب فى كارثة مالية واقتصادية جلبت الخراب لحملة الأسهم (المترجم).

(**) المقصود بالرصيد المنظور للعملاء وهو وجود غطاء ذهبى لها ومنذ أوقفت الولايات المتحدة قاعدة تحويل الدولار إلى ذهب فى ١٥ أغسطس عام ١٩٧١؛ أصبح الإنتاج أو بالأحرى الزيادة فيه هى غطاء أى إصدار جديد للعملات.

(***) حرب نشأت بين الولايات المتحدة وبريطانيا واستمرت من ١٨١٢ إلى ١٨١٥، لأسباب تجارية فى الأساس (المترجم).

(****) قناة صناعية شقت فى أوائل القرن التاسع عشر فى ولاية نيويورك لتربط بين بحيرة إيرى ونهر هدسون. افتتحت للملاحة سنة ١٨٢٥، مثلت ممراً مائياً مهماً بين المحيط الأطلسى والبحيرات العظمى، وبين نيويورك ولايات الغرب الأوسط (المترجم).

الورقية غير المدعومة بأي شيء ذي قيمة، والتي كان يصدرها أى شخص قادر على استئجار مبنى أكبر قليلاً من دكان الحداد. وقد وصل هذا الأمر إلى نهاية حاسمة سنة ١٨٢٧، وفى خمسينيات القرن التاسع عشر حل رواج آخر ثم انهيار، وفى تلك السنوات أغلق أبوابه بنك فى نيو إنجلاند، وهى منطقة أكثر محافظة من معظم مناطق البلاد. لقد أصدر هذا البنك ٥٠٠ ألف دولار على شكل أوراق نقد، كانت قيمة الأصول التى تغطيها ٨٦٠٤٨ دولاراً.

بعد الحرب الأهلية؛ أتى رواج خطوط السكك الحديد، ثم انهيار ١٨٧٢ على وجه الخصوص؛ ثم وصل رواج آخر إلى نهاية مأساوية مماثلة سنة ١٩٠٧، ولكن بنوك نيويورك الكبرى كانت قادرة - هذه المرة - على الحد من الدمار، وقد سبق ذلك تدفق معتبر للتمويل البريطانى أشعل المضاربات الأمريكية، خاصة تلك الخاصة بخطوط السكك الحديد التى سبق ذكرها. وكان هناك أيضاً التدخل البريطانى المتجدد فى أمريكا الجنوبية، وفقاعة بحر الجنوب التى تم نسيانها الآن. أما بنك بارينج برذرز المرموق جداً؛ فقد وجد نفسه مطارداً من قبل بنك إنجلترا نتيجة لإفلاسه الناجم عن ديونه للأرجنتين. والآن يعد أمر هذا البنك مثيراً للاهتمام، حيث ضبط فى تسعينيات القرن العشرين متلبساً بعمليات لا تصدق؛ قام بها أحد أتباعه الثانويين فى سنغافورة؛ ولكن هذه المرة لم تكن هناك مطاردة، حيث إن البنك اختفى نتيجة لكل الأسباب المفهومة.

لو كنا الآن فى حالة تراجع - فيما يمكن تسميته يوم الحساب - فهناك فى الواقع أشياء يمكن التنبؤ بها. بعض التقديرات تقول إن ربع الأمريكين، بشكل مباشر أو غير مباشر، موجودون فى سوق الأوراق المالية؛ وحيث توجد حالة سيئة من الركود، فسوف تضع حدوداً على إنفاقهم، خاصة على اقتناء السلع المعمرة. وسوف تشكل ضغطاً على ديون بطاقتهم الائتمانية الكبيرة جداً. وسوف تكون النتيجة - بشكل عام - تأثيراً عكسياً على الاقتصاد، وهذه لن تكون مؤلة بقدر ما كانت الآثار التى أعقبت انهيار ١٩٢٩؛ فقد كانت البنوك - آنذاك - هشة ودون تأمين على الإيداعات، والسوق الزراعية كانت مهمة وعرضة للتأثر بشكل خاص. لم يكن هناك تأثير حامٍ لنظام تعويضات البطالة ولمدفوعات الرعاية الاجتماعية

والضمان الاجتماعي.. كل هذا أفضل الآن، ولكن يمكن أن يكون هناك ركود، وسوف يكون هذا شيئاً عادياً. وقد تكون هناك أيضاً – وربما على وجه التأكيد – كلمات التطمينات التقليدية الصادرة عن واشنطن؛ فدائماً عندما تكون الأسواق فى حالة اضطراب، تكون العبارات هى نفسها: "الوضع الاقتصادى جيد من حيث الأساس"، أو ببساطة "الأسس جيدة". على كل من يسمع تلك الكلمات أن يعرف أن هناك شيئاً خطأً.

مرة أخرى، أنا لا أقتبأ، ولكننى فقط أذكر ما ينبئنا به الماضى فى وضوح. وأود أن أقول كلمة نهائية حول هذا الكتاب. لقد صدر فى ربيع ١٩٥٥ لجمهور قدره حق قدره؛ حيث ظهرت عروض مختصرة له فى قوائم الكتب الأكثر مبيعاً. وكنت أنظر إليه بسعادة فى فاترينات المكتبات، ومع ذلك ففى زيارتى المتكررة إلى نيويورك، كنت منزعجاً لأننى لا أرى له أى أثر فى مكتبة صغيرة فى الممر المؤدى إلى مدرج الطائرات فى مطار لا جارديا القديم. وذات ليلة وقفت أفتش عنه على الأرفف، حتى لاحظتني أخيراً السيدة المسئولة عن المكتبة، وسألتني عما أبحث عنه؛ شعرت بشيء من الخجل، وعبرت فوق اسم المؤلف، وقلت: إننى أبحث عن كتاب يسمى "الانهيار الكبير"، فأجابتنى فى صرامة: "هذا ليس كتاباً تستطيع أن تبيعه فى مطار".

ملاحظات بشأن المصادر

أصبح كثير من المؤلفين والناشرين مؤخرًا؛ يفترضون أن القراء ينزعجون من الهوامش. ولكننى ليس لدى أى رغبة فى إزعاج أو إنفار أى قارئ محتمل ولو بأقل قدر. غير إننى أنظر إلى هذا الافتراض باعتباره شيئاً سخيلاً. ولا يوجد شخص مثقف يمكن أن ينزعج من أحرف قليلة مطبوعة أسفل الصفحة. كما أن كل شخص، سواء كان محترفاً أو قارئاً عادياً يحتاج لأن يعرف مدى جدارة أى فكرة. إن الهوامش تقدم أيضاً مؤشراً جيداً إلى حد كبير عن درجة العناية التى اتبعت فى بحث الموضوع.

ومع ذلك، فإن هناك أيضاً خيطاً يفصل بين الكفاءة والحدقة. وفى هذا الكتاب، وأينما اعتمدت على وثائق عامة أو كتب أو مقالات صحفية، أو مصادر خاصة من أى نوع، فقد أشرت إلى المصدر، ولكن الكثير مما جرى فى سنة ١٩٢٩ موجود فى الصحافة المالية والعامة لذلك الوقت، والاستشهاد المتكرر بتلك المصادر يمكن أن يستدعى إحالات بلا حدود للصحف نفسها؛ وهذا هو ما لم أفعله؛ وهذا يعنى - على وجه العموم - أنه فى حال عدم الإشارة إلى المصدر؛ فإن القارئ يستطيع الافتراض أنه نيويورك تايمز، وول ستريت جورنال، وغيرهما من الصحف واسعة الانتشار فى ذلك الوقت.

الفصل الأول

رؤية، وأمل وتفاؤل غير محدودة

فى الرابع من ديسمبر ١٩٢٨؛ وجه الرئيس كوليدج^(٥) رسالته الأخيرة عن حالة الاتحاد أمام الكونجرس فى دورة انعقاد جديدة. وكان لا بد أن يجد أكثر أعضاء الكونجرس تشاؤماً الطمأنينة فى كلمات الرئيس: "لم يحدث من قبل أن اجتمع الكونجرس الأمريكى لبحث حالة الاتحاد فى ظل حالة مرضية من الازدهار أكثر من تلك التى نراها فى الوقت الحالى، فعلى الساحة الداخلية هناك هدوء وطمأنينة... وسنوات من الازدهار لم تشهد من قبل، وعلى الساحة الخارجية يوجد السلام المتمثل فى التراضى الناتج عن التفاهم المشترك...". لقد أخبر الرئيس مشرعى البلاد بأنهم وبلدهم يجب أن "ينظروا إلى الحاضر برضا، وينظروا إلى المستقبل بتفاؤل". وفى خرق واضح لأقدم تقاليدنا السياسية، أغفل أن يعزى تلك الرفاهية إلى تميز الإدارة التى ترأسها: "إن المصدر الرئيسى لهذه النعم غير المسبوقة يكمن فى ترابط وشخصية الشعب الأمريكى".

إن جيلاً كاملاً من المؤرخين؛ قد انتقد كوليدج لتفاؤله السطحي الذى منعه من أن يرى أن هناك عاصفة كبرى كانت تختمر فى الداخل، وأيضاً على البعد فى

(٥) Calvin Coolidge: الرئيس الثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية (١٩٢٣ - ١٩٢٩) كان ينتمى للحزب الجمهورى (المترجم).

الخارج، ولكن هذا غير عادل بالمرّة. إن التنبؤ بالكارثة ليس هو الذى يتطلب الشجاعة ولا العلم بالغيب. إن الشجاعة تُنتظر من الرجل الذى عندما تكون الأمور جيدة يقول إنها جيدة. إن المؤرخين يستمتعون بصلب المسيح الدجال، ولكنهم أبداً لم يقفوا طويلاً عند غلطة الرجل الذى تنبأ خطأ بعودة المهدي المنتظر.

لقد كان هناك الكثير من الأشياء الجيدة فى العالم الذى تحدث عنه كوليدج. من الصحيح - كما كان يصير الانعزاليون الليبراليون - أن الأغنياء كانوا يصيرون أكثر غنى بأسرع مما كان الفقراء يصيرون أقل فقراً. والمزارعون كانوا مستائين، وكانوا على هذه الحال منذ أن أدى كساد ١٩٢٠ - ١٩٢١ إلى انخفاض حاد فى أسعار المنتجات الزراعية مع بقاء التكاليف مرتفعة. والسود فى الجنوب، والبيض فى جنوب الأبالاش ظلوا يعيشون فى فقر لا أمل فى الخروج منه. وكانت البيوت ذات الطراز الإنجليزى العتيق المكسوة بالخشب، وذات الأسقف الجمالونية والنوافذ الزجاجية المطعمة بالرصاص تقوم فى المناطق الريفية، بينما يواجه المرء فى المدينة بأكثر الأحياء الفقيرة إثارة للاشمئزاز خارج العالم الشرقى.

وعلى الرغم من كل هذا، فإن عشرينيات القرن العشرين فى أمريكا كانت زمناً جيداً جداً، فالإنتاج والتوظيف كانا مرتفعين ومتزايدين. لم تكن الأجور ترتفع بشكل كبير، ولكن الأسعار كانت مستقرة. وعلى الرغم من أن كثيراً من الناس كانوا لا يزالون فقراء جداً، فإن أناساً أكثر كانوا - دون عناء كبير - ميسورين، أو أغنياء، أو أغنى مما كانوا عليه فى أى وقت آخر. وأخيراً، فإن الرأسمالية الأمريكية كانت - بلا شك - فى مرحلة مفعمة بالحيوية. وفيما بين ١٩٢٥ و ١٩٢٩؛ ارتفع عدد المنشآت الصناعية من ١٨٣٠٩٠٠ إلى ٢٠٦٠٧٠٠، وارتفعت قيمة مخرجاتها من ٦٠٨ بلايين دولار إلى ٦٨٠٠ بليون دولار^(١). ومؤشر الاحتياطي الفيدرالى للإنتاج الصناعى الذى كان متوسطه ٦٧ فقط سنة ١٩٢١ (١٩٢٣)

U.S. Department of commerce, Bureau of the Census, Statistical Abstract of the United (١) States, 1944 - 45.

- ١٩٢٥؛ ١٠٠ ارتفع إلى ١١٠ في يوليو ١٩٢٨ ووصل إلى ١٢٦ في يونيو ١٩٢٩^(١). وفي سنة ١٩٢٦ بلغ إنتاج السيارات ٤٣٠١٠٠٠ سيارة، وبعد ثلاث سنوات، في ١٩٢٩ زاد الإنتاج بأكثر من مليون سيارة ليصل إلى ٥٣٥٨٠٠٠^(٢) سيارة، وهو رقم جيد جداً بمقارنته بإنتاج سنة ١٩٥٢ المفعمة بالثراء والبالغ ٥٧٠٠٠٠٠ سيارة. كانت أرباح قطاع الأعمال ترتفع بسرعة، وكان الوقت ملائماً للدخول إلى قطاع الأعمال. والحقيقة أنه حتى أكثر الشهادات على تلك الأوقات استهجاناً لها أقربت - ضمناً - بأنها كانت أوقاتاً جيدة، ولكنها جميعاً تقريباً اشتركت في اتهام كوليدج بالفشل في إدراك أنها كانت أجود من أن تدوم. هذا الاعتقاد في وجود قانون صارم للمقابلة - الاعتقاد بأن سنوات العشرينيات العشر الجيدة كان لا بد أن يدفع ثمنها بسنوات الثلاثينات السيئة - هو اعتقاد من الجدير بالاهتمام أن نعود إليه.

- ٢ -

هناك شيء كان يجب أن يكون مرئياً في العشرينيات حتى بالنسبة إلى كوليدج. إنه شيء يتعلق بالشعب الأمريكي الذي تحدث حديثاً طيباً عن مميزاته. فإلى جانب الصفات الممتازة التي امتدحها كوليدج، كان الأمريكيون يبدون أيضاً رغبة جامحة في تحصيل الثروة بسرعة وبأقل مجهود ممكن؛ وقد كان أول تعبير صادم عن هذه الصفة الشخصية في فلوريدا. فهناك، في أواسط العشرينيات، أصاب الرواج الكبير لسوق العقارات في فلوريدا كلاً من ميامي وميامي بيتش وكورال جابلز والساحل الشرقي إلى أقصى الشمال؛ حيث بالم بيتش والمدن الواقعة على خليج المكسيك. وقد انطوى رواج فلوريدا على كل عناصر فقاعة المضاربة الكلاسيكية. كما كان هناك عنصر الثروة الذي لا غنى عنه؛ حيث تتمتع فلوريدا بمناخ شتوي أفضل من نيويورك أو شيكاغو أو مينويوليس، والدخول

(١) Federal Resserve Bulletin, December 1929

(٢) Thomas Wilson, Fluctuation in Income and Employment. 3rd ed. (New York: Pitman) 1948, p. 141.

الأعلى ووسائل النقل الأفضل كانت تجعل الوصول إليها أسهل بشكل متزايد من قبل الشمال المتجمد. لقد كان الموسم على الأبواب بالفعل؛ حيث ستصبح رحلات الطيران السنوية إلى الجنوب منتظمة ومثيرة للإعجاب مثلها مثل هجرات الأوز الكندي.

على هذا العنصر الواقعي الذي لا يمكن الاستغناء عنه؛ شرع رجال ونساء في بناء عالم من أحلام المضاربة. إنه عالم مسكون لا بأناس مضطرين إلى الاقتناع بالتصديق، ولكن بأناس يريدون عذرا كي يصدقوا. وفي حالة فلوريدا، أرادوا تصديق أن شبه الجزيرة كلها سوف تكون مأهولة فوراً بالمستمتعين بالإجازات والمستلقين تحت أشعة الشمس في منطقة استرخاء جديدة مرموقة. وسوف يكون الافتتان بالمنطقة عظيماً جداً؛ حيث ستكون للشواطئ والبرك والبحيرات والأدغال الريفية العمومية قيمة كبيرة؛ ولكن مناخ فلوريدا بالتأكيد لم يضمن أن هذا كان سيحدث؛ ولكنه مكن الناس الذين أرادوا التصديق أنه سيحدث من أن يصدقوا أنه سيحدث.

ومع هذا، فإن المضاربة لا تعتمد بالكامل على القدرة على خداع الذات، في فلوريدا قسمت الأراضي إلى مساحات للبناء وبيعت مقابل دفعة مقدمة بلغت ١٠٪ من ثمنها. وبشكل واضح جداً، كان الكثير من قطع الأراضي القبيحة التي بيعت بهذا الأسلوب منفرة بالنسبة إلى الذين اشتروها كما كانت كذلك بالنسبة إلى من يمر بها، فالمشترون لم يتوقعوا العيش فيها. وليس من السهل افتراضنا أن أي شخص أراد هذا مطلقاً، ولكن هذه كانت اعتبارات نظرية، فالحقيقة أن هذه الأصول المشبوهة قد تم الحصول عليها بقيمتها الحقيقية وقت شرائها، وكان يمكن بيعها بريح ضخمة خلال أسبوعين. وهذا ملمح آخر لمزاج المضاربة، حيث إنه بمرور الوقت، يتناقص بشدة الاتجاه للنظر إلى ما وراء الحقائق البسيطة المتعلقة بزيادة الأسعار نحو الأسباب التي تعتمد عليها. وليس هناك سبب يجعل أي شخص يفعل ذلك ما دامت أعداد الناس الذين يشترون يتوقعون البيع مع تحقيق أرباح تستمر في التزايد بمعدل سرعة؛ يكفي لبقاء الأسعار في حالة ارتفاع مستمر.

خلال سنة ١٩٢٥؛ أدى السعى وراء الثروة دون مجهود إلى جلب الناس إلى فلوريدا بأعداد متزايدة لدرجة مرضية. وجرى تقسيم المزيد من الأراضي كل أسبوع، وأصبح ما يطلق عليه على نحو فضفاض "شاطئ البحر" يقع على بعد خمسة أو عشرة أو خمسة عشر ميلاً من أقرب مياه مالحة. وأصبحت الضواحي بعيدة بشكل مذهل عن المدينة؛ وحيث انتشرت المضاربة باتجاه الشمال، قام مغامر من بوسطن يدعى تشارلو بونزى بتقسيم الأرض إلى أجزاء أصغر وأطلق عليها "مدينة جاكسون القريبة" التي كانت تبعد خمسة وستين ميلاً تقريباً إلى الغرب من المدينة. (لاعتبارات أخرى آمن بونزى بالجيرة الحسنة المتقاربة، فباع الأكر الواحد مقسماً إلى ثلاثة وعشرين قطعة). وفى الحالات التي كانت التقسيمات فيها قريبة من المدينة، كما فى حالة تقسيمات مانهاتن التي كانت "لا تبعد أكثر من ثلاثة أرباع الميل عن مدينة نيتى " Nettie" المزدهرة المتسارعة النمو، لم يعد للمدينة نفسها وجود، فالازدحام فى سبيل الوصول إلى الولاية أصبح صعباً لدرجة أنه فى خريف ١٩٢٥ اضطرت السكك الحديدية إلى إعلان حظر على الشحنات الأقل أهمية، بما فى ذلك مواد البناء اللازمة للبناء على الأراضي المقسمة. وارتفعت الأسعار بشكل مدهش، فخلال أربعين ميلاً من ميامى، بيعت القطع "الداخلية" بما يتراوح بين ٨٠٠٠ دولار و ٢٠٠٠٠ دولار، وبيعت القطع المطلّة على الشاطئ بما يتراوح بين ١٥٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ دولار، أما المواقع الكائنة بالفعل على شاطئ البحر مباشرة فقد وصل سعرها إلى ما بين ٢٠٠٠٠ و ٧٥٠٠٠ دولار^(١).

مع ذلك، وفى ربيع ١٩٢٩ بدأت أعداد المشترين الجدد فى الانخفاض، أساساً كنتيجة لحقيقة ارتفاع الأسعار. وعندما هل عام ١٩٢٨ ثم ١٩٢٩ فإن الزخم الذى قام على أساس من الرواج الجيد لم يتبدد فى لحظة. ولفترة من الوقت فى سنة ١٩٢٦؛ عوضت الفصاحة المتزايدة للمروجين الرصيد المتناقص من التوقعات. (حتى صوّت المتدين المتمثل فى وليم جيننجز بريان الذى هدر يوماً ضد حمى الذهب جند لفترة من الزمن فى المهمة المؤسفة لبيع أراضى

These detail are principally from two articles on the Florida land boom by Homer B. Van- (١) derblue in the Journal of Land and Public Utility Economics, May and August 1927.

المستنقعات)؛ ولكن هذا الرواج لم يترك لينهار من تلقاء نفسه. ففى خريف ١٩٢٦ هب إعصاران، وبتعبير فردريك لويس ألن كم تستطيع رياح استوائية أن تفعله عندما تكون منطلقة من الكاريبي^(١). أسوأ تلك الأعاصير، فى ١٨ سبتمبر ١٩٢٦ قتل أربعمئة شخص، ومزق أسقف الآلاف من المنازل، وألقى بأطنان من المياه وعدد من اليخوت الفخمة إلى شوارع ميامى. كان هناك اتفاق على أن العاصفة تسببت فى فترة لالتقاط صحنى للأنفاس فى وسط الرواج على الرغم من أن استئناف هذا الرواج كان متوقعا كل يوم. وفى وول ستريت جورنال بتاريخ ٨ أكتوبر ١٩٢٩ اعترف مسئول فى شركة سيبورد أير لاين يدعى بيتر أو نايت معروف بإيمانه الأصيل بمستقبل فلوريدا، بأن نحو سبعة عشر أو ثمانية عشر ألف إنسان كانوا فى حاجة للمساعدة، ولكنه أضاف: "نفس فلوريدا لا تزال موجودة بمواردها الغنية، ومناخها الرائع، وموقعها الجغرافى. إنها ريفيرا أمريكا". وعبر عن قلقه من أن التماس المعونات من الصليب الأحمر لإغاثة ضحايا الإعصار قد يسبب ضرراً بالغاً لفلوريدا أكبر مما يمكن أن تعوضه المعونات المتقاة^(٢).

هذه المعارضة للاعتراف بأن النهاية قد حلت مطابقة أيضاً للنمط التقليدى. لقد حلت النهاية فى فلوريدا، ففى ١٩٢٥؛ بلغت عمليات المقاصة البنكية فى ميامى ١٠٦٦٥٢٨٠٠٠ دولار، وبحلول سنة ١٩٢٨ انخفضت إلى ١٤٣,٣٦٨,٠٠٠ دولار^(٣). المزارعون الذين باعوا أراضيهم بأسعار عالية جداً ولاموا أنفسهم؛ لأنها بيعت فيما بعد بضعفى وثلاثة أضعاف وأربعة أضعاف السعر الأسمى استعدادها الآن فى بعض الحالات من خلال سلسلة لاحقة متكاملة من حالات التوقف عن السداد. وفى بعض الأحيان؛ كانت مزودة بشوارع تحمل أسماء بليغة وبأرصفة ومصاييح ومحملة أيضاً بضرائب وتقييمات تبلغ عدة أضعاف قيمتها الحالية.

These detail are principally from two articles on the Florida land boom by Homer B. Vanderblue in the Journal of Land and Public Utility Economics, May and August 1927.

Only Yesterday (New York: Harper, 1931), p. 280. Other details of the damage resulting from the hurricane are from this still fresh and lively book.

Vanderblue, op. cit., p. 114. (٢)

Allen, op. cit., p. 282. (٣)

إن رواج فلوريدا كان المؤشر الأول على مزاج العشرينيات؛ وعلى الإيمان الراسخ بأن الله قد أراد للطبقة الوسطى الأمريكية أن تصبح ثرية، ولكن استمرار هذا المزاج بعد انهيار فلوريدا لا يزال شيئاً جديراً بالملاحظة. لقد كان مفهوماً - على نطاق واسع - أن الأمور قد تحطمت في فلوريدا، بينما كان عدد المضاربين أقل - بالتأكيد - مقارنة بالمشاركة اللاحقة في سوق الأوراق المالية، فكل مجتمع تقريباً كان فيه رجل يعرف بأنه قد نال ضربة لا بأس بها في فلوريدا.

لمدة قرن كامل بعد انهيار فقاعة بحر الجنوب؛ كان الإنجليز يشيرون إلى أكثر شركات المساهمة تمتعاً بالسمة الطيبة بشيء من الارتياب، ولكن حتى بعد انهيار رواج فلوريدا، فإن إيمان الأمريكيين بالإثراء السريع دون مجهود في سوق الأوراق المالية كان يزداد وضوحاً كل يوم.

- ٣ -

من الصعب أن نقول متى بدأ رواج سوق الأوراق المالية في عشرينيات القرن العشرين. لقد كانت هناك أسباب معقولة في تلك السنوات لارتفاع أسعار الأسهم العادية، فأرباح الشركات كانت جيدة ومتزايدة.. وبدأت الآمال في بدايتها. وفي أوائل العشرينيات كانت أسعار الأوراق المالية منخفضة، وكانت تدر عائداً مناسباً. في الأشهر الستة الأخيرة من سنة ١٩٢٤؛ بدأت أسعار الأوراق المالية في الارتفاع. وكانت الزيادة مستمرة وممتدة خلال سنة ١٩٢٥.. وهكذا، في نهاية مايو ١٩٢٤ كان متوسط نيويورك تايمز لأسعار أسهم ٢٥ شركة صناعية ١٠٦، وفي نهاية العام أصبح ١٢٤^(١)، وفي ٢١ ديسمبر ١٩٢٥ اكتسب نحو ٥٠ نقطة

(١) في هذا الكتاب استخدمت مؤشر نيويورك تايمز للشركات الصناعية كدلالة على مستوى أسعار الأوراق المالية. وهذا المؤشر متوسط حصص غير مرجح لأسعار خمسة وعشرين سهماً وصفتها التايمز بأنها "جيدة ومحل ثقة وذات تغييرات منتظمة في أسعارها ونشطة سوقياً على وجه العموم". واختيار مؤشر التايمز وتفضيله عن داو جونز أو غيره من المؤشرات، كان تحكيمياً لحد كبير. فمؤشرات التايمز هي المؤشرات التي راقبتها على مر السنين. وهي إلى حد ما أسهل مثلاً من مؤشرات داو جونز بالنسبة إلى المراقب غير المحترف. وأيضاً، بينما الأخيرة معروفة أكثر، فإنها تحمل في سياقها مفهوماً محدداً لنظرية السوق لا يتصل بالأغراض الحالية. فالمؤشر الصناعي - وليس مؤشر السكك الحديدية أو المؤشر المركب - أكثر تمثيلاً لأن الأسهم الصناعية كانت محل التركيز الأكبر للمضاربة، وقدمت أوسع نطاقاً للحركة. وعلى الرغم من وجود دلائل على العكس، فإن القيم المعطاة هي تلك الأقرب للسوق في التاريخ المشار إليه.

أخرى ليصبح ١٨١، وكان التقدم خلال سنة ١٩٢٥ مطرداً بشكل لافت للنظر، حيث كان هناك شهران فقط لم تحقق فيهما أسعار الأسهم زيادة صافية.

خلال سنة ١٩٢٦؛ كان هناك شيء من الانتكاسة، حيث كانت الأعمال متعثرة قليلاً في أوائل تلك السنة. حتى اعتقد الكثيرون أن أسعار السنة السابقة ارتفعت ارتفاعاً غير معقول. وقد جاء فبراير بهبوط حاد في السوق، كما جاء مارس بانهيار مفاجئ. وانخفض متوسط التاييم للشركات الصناعية من ١٨١ في بداية العام إلى ١٧٢ في نهاية فبراير، ثم انخفض بمقدار ٣٠ نقطة تقريباً ليصل إلى ١٤٣ بنهاية مارس، ومع ذلك انتظمت السوق في أبريل واستعادت تقدمها؛ ثم حدثت نكسة خفيفة أخرى في أكتوبر، بعد الإعصار الذي أطاح ببقايا رواج فلوريدا مباشرة؛ ولكن استعادة التقدم كانت سريعة مرة ثانية، ففي نهاية العام كانت القيم تقريباً كما كانت في بدايته.

في ١٩٢٧ بدأت الزيادة تبدو جديدة؛ حيث ارتفعت أسعار الأسهم يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر. لم تكن المكاسب كبيرة بالمقاييس اللاحقة، ولكنها اتسمت بمصادقية كبيرة. ومرة ثانية في الشهرين الأولين من ١٩٢٧؛ فشلت متوسطات الأسعار في أن تظهر زيادة. وفي ٢٠ مايو، عندما انطلق ليندبرغ^(٥) "Lindbergh" من مطار روزفلت متجهاً إلى باريس، كان عدد كبير من الناس غير مدركين لما يحدث، فالسوق - التي كانت يومها تسجل درجة أخرى من الارتفاع القليل لكن الصلب - اكتسبت في تلك اللحظة مجموعة من المؤمنين المتعصبين الذين لم يقصروا في الاهتمام بالمزيد من الشئون السماوية.

في صيف ١٩٢٧؛ أسدل هنري فورد الستار على سيارته المعمرة من طراز T وأغلق مصنعه كي يعد للطراز A، وتراجع مؤشر الاحتياطي الفيدرالي للإنتاج الصناعي، ربما كنتيجة إغلاق مصنع فورد؛ ثم كان هناك حديث عام عن كساد. كان التأثير في السوق غير محسوس. وفي نهاية العام، حيث عاد الإنتاج ليرتفع من جديد، وصل متوسط تاييم الصناعي إلى ٢٤٥ بزيادة صافية قدرها ٦٩ نقطة لتلك السنة.

(٥) طيار أمريكي كان أول من عبر المحيط الأطلسي منفرداً منطلقاً بطائرته من نيويورك إلى باريس سنة ١٩٢٧ (المترجم).

إن سنة ١٩٢٧ سنة تاريخية من وجهة نظر أخرى فى تقاليد سوق الأوراق المالية؛ فطبقاً للمعتقد الذى طال قبوله، كانت تلك هى السنة التى بذرت فيها بذور الكارثة النهائية، وقد ألقى بالمسئولية على عاتق نزعة عالمية قوية وإن كانت غير حكيمة. وقد نظر إليها بعض - بمن فيهم الرئيس هوفر - على أنها نوع من عدم الولاء، على الرغم من أن الاتهام بالخيانة فى تلك الأيام كان لا يزال يطلق بشئ من الحذر.

فى سنة ١٩٢٥ وتحت رعاية مستشار وزارة المالية البريطانية السيد ونستون تشرشل، عادت بريطانيا إلى قاعدة الذهب التى تعود إلى علاقات ما قبل الحرب العالمية الأولى بين الذهب والدولار والجنيه الإسترلينى. وما من شك فى أن تشرشل كان واقعاً تحت تأثير عظمة الجنيه الإسترلينى التقليدى - الذى يعادل ٤,٨٦ دولار - أكثر من تأثير العواقب الخفية للمغالاة فى التقويم، والتى يفترض - إلى حد كبير - أنه لم يكن يتفهمها، على الرغم من ذلك فإن العواقب كانت حقيقية وقاسية. فعملاء بريطانيا أصبحوا مضطرين إلى أن يستعملوا هذه الجنيهات المكلفة كى يشتروا البضائع بأسعار لا تزال تعكس تضخم زمن الحرب. وتبعاً لهذا، كانت بريطانيا مكاناً غير جذاب بالنسبة إلى الأجانب الراغبين فى الشراء، وللسبب نفسه كانت مكاناً مريحاً للبيع فيه. وفى سنة ١٩٢٥؛ بدأت السلسلة الطويلة من أزمات التبادل النقدى، والتى أصبحت معلماً بريطانياً أساسياً مثلها مثل أسود ميدان الطرف الأغر والمتسكعين فى شارع بيكاديللى. كانت هناك أيضاً عواقب داخلية سيئة، فسوق الفحم غير المواتية، وجهود تقليل التكلفة والأسعار من أجل مواجهة المنافسة العالمية أدت إلى الإضراب العام سنة ١٩٢٦.

وهكذا كان الذهب الذى يهرب من بريطانيا أو أوروبا يذهب إلى الولايات المتحدة، وكان يمكن عدم تشجيع هذا الاتجاه لو أن أسعار السلع كانت مرتفعة ومعدلات الفائدة منخفضة (كانت الولايات المتحدة ستصبح مكاناً سيئاً بالنسبة للشراء والاستثمار).

فى ربيع ١٩٢٧؛ حضر إلى الولايات المتحدة ثلاثة رسل أجلاء - مونتاجو نورمان، محافظ البنك المركزى البريطانى "Bank of England" والمعمّر هجلمار شاخت محافظ البنك المركزى الألمانى "Reichsbank" وتشارلز ريست نائب

محافظ البنك المركزي الفرنسي " Bank of France " لكى يتباحثوا بشأن سياسة نقدية سلسة (وكانوا قد التمسوا من قبل سياسة نقدية مماثلة تقريباً سنة ١٩٢٥) واستجاب بنك الاحتياطي الفيدرالى؛ حيث تم تخفيض سعر إعادة الخصم لدى بنك الاحتياطي الفيدرالى لنيويورك من ٤٪ إلى ٣,٥٪.. وهكذا استردت الحكومة كميات معقولة من الأوراق المالية الحكومية من حيث عدد البنوك والأفراد الذين باعوا هذه السندات مقابل نقود حصلوا عليها كى ينفقوها. وقد وصف أدولف سى مولر، العضو المنشق عن مجلس الاحتياطي الفيدرالى، هذه الخطوة لاحقاً بأنها "أجراً وأكبر عملية يقوم بها جهاز الاحتياطي الفيدرالى على الإطلاق... وقد أسفرت عن أكثر الأخطاء تكلفة التى ارتكبها هو أو أى جهاز مصرفى آخر على مدى السنوات الخمس والسبعين الماضية"^(١)، إن الموارد المالية التى أتاحتها الاحتياطي الفيدرالى إما استثمرت فى أسهم عادية وإما أنها (وهذا هو الأهم) أصبحت متاحة لتمويل شراء أسهم عادية بواسطة آخرين.. وهكذا، عندما زود الناس بموارد مالية اندفعوا إلى السوق، وربما كان أكثر ما حظى بالقراءة على نطاق واسع من بين كل الشروحات التى تناولت تلك الفترة هو ما كتبه البروفيسور ليونيل روبينز من مدرسة لندن للاقتصاد، حيث يخلص إلى أنه: "منذ ذلك التاريخ، وطبقاً لكل الأدلة، فإن الموقف أصبح خارج السيطرة تماماً"^(٢).

إن الرأى القائل بأن تصرف سلطات الاحتياطي الفيدرالى فى سنة ١٩٢٧ كان مسئولاً عن المضاربة وما اتبعها من انهيار، لم يتزعزع قط بشكل جدى. وهناك أسباب لكون هذا الرأى جذاباً.. فهو بسيط، كما أنه يعفى كلاً من الشعب الأمريكى والنظام الاقتصادى من أى ملامة رئيسية. إن خطر الانقياد وراء الأجانب معروف جيداً، كما أن نورمان وشاخت يتمتعان بسمعة خاصة من حيث كونهما ذوى دوافع شريرة.

ولكن هذا التفسير يفترض بوضوح أن الناس سوف يضاربون دائماً لو أنهم فقط حصلوا على الأموال اللازمة لتمويل المضاربة، لا أكثر ولا أقل. ولكن هناك كان الائتمان فيها وفيراً ورخيصاً - أرخص كثيراً مما كان فى سنوات ١٩٢٧ -

Testimony before Senate Committee, quoted by Lionel Robbins, *The Great Depression* (1) (New York: Macmillan, 1934), p. 53.

Ibid., p. 53. (٢)

١٩٢٩ ولم يكن للمضاربة وجود ذو أهمية. كما أن المضاربة - كما سنرى لاحقاً - لم تكن خارج نطاق السيطرة بعد سنة ١٩٢٧؛ سوى أنها كانت بعيدة عن متناول الرجال الذين لم يشاءوا - على الأقل - السيطرة عليها. إن هذا التفسير لا يعدو أن يكون ثناء على تفضيل متكرر - في الشؤون الاقتصادية - لكلام فارغ لا تحده حدود.

- ٤ -

حتى بداية ١٩٢٨؛ كان يمكن حتى للشخص ذى العقلية المحافظة الاعتقاد أن أسعار الأسهم العادية كانت تلاحق الزيادة في مكاسب الشركات، واحتمالات المزيد من الزيادات، والسلام والهدوء في ذلك الوقت، والتأكد من أن الإدارة التى كانت آنذاك قوية صارمة في واشنطن؛ لن تفرض على الأرباح مزيداً من الضرائب أكثر من الضروري. ولكن في بدايات ١٩٢٨ تغيرت طبيعة الرواج، والهروب الجماعى إلى الأوهام -الذى كان إلى حد كبير جداً انغماساً حقيقياً في المضاربة - بدأ يأخذ شكلاً جدياً. وكان لا يزال من الضروري طمأنة هؤلاء الذين ما زالوا يتمسكون برابطة ما - وإن كانت واهية - مع الواقع. وكما سوف نرى في الوقت الحاضر، فإن تلك العملية من الطمأنة - أو من استثمار المعادل الصناعى لمناخ فلوريدا - قد حققت مكانة لتلك الحرفة.. ومع ذلك، فقد جاء الوقت - كما في كل فترات المضاربة - الذى سعى الناس فيه لا للاقتناع بواقع الأشياء، ولكن لأن يجدوا عذراً للهروب إلى عالم جديد من الوهم.

لقد كانت هناك مؤشرات كثيرة مع حلول سنة ١٩٢٨؛ على أن تلك المرحلة قد جاءت. وكان أوضحها هو سلوك السوق؛ فقد كان أشهر شتاء ١٩٢٨ هدوءاً، ومن ثم فقد بدأت السوق في الارتفاع، ليس بخطوات بطيئة مطردة، ولكن بقفزات واسعة. وبالمناسبة، فقد أخذت في الهبوط بالطريقة نفسها، ولكن كى تلتقط أنفاسها ثم ترتفع من جديد. في مارس ١٩٢٨ ارتفع متوسط الشركات الصناعية بنحو ٢٥ نقطة. وكانت أخبار غليان السوق تحتل الصفحات الأولى بشكل متكرر، وكانت بعض الإصدارات تحقق منفردة عشر وخمس عشرة وعشرين نقطة في معاملات اليوم الواحد. وفي ١٢ مارس، جنت شركة راديو - رمز المضاربة في ذلك الوقت بكثير من المقاييس - ١٨ نقطة. وفي اليوم التالى حقق سعر الافتتاح

لأسهمها ٢٢ نقطة أعلى من سعر الإقبال لليوم السابق، ثم فقدت ٢٠ نقطة على أثر الإعلان عن أن سلوك المعاملات في السوق يخضع لتحقيق من قبل البورصة؛ ثم ارتفعت بخمس عشرة نقطة، ثم انخفضت بتسبع نقاط^(١). وبعد أيام قليلة - في سوق قوية - ارتفعت بمقدار ١٨ نقطة أخرى.

رواج شهر مارس حفل أيضاً - أكثر من أى شيء آخر حتى ذلك الوقت - بمعاملات كبار التجار المحترفين. إن عقائد الأسواق التنافسية تصور سوق الأوراق المالية كأبعد الأسواق عن الطبيعة الشخصية. ولا توجد عقيدة يتوافر لها من الأنبياء والمدافعين الفيوريين أكثر من عقيدة البورصة. "إن البورصة هي مكان تعكس فيه الأسعار القانون الأساسي للعرض والطلب"، هكذا تقول بورصة نيويورك بحزم عن نفسها^(٢)، ولكن حتى أكثر رجال وول ستريت ورعا يسمح لنفسه - أحياناً - بأن يعتقد بأن المزيد من التدخل الشخصي له دور في تحديد مصيره؛ فهناك في مكان ما كان رجال كبار يرفعون الأوراق المالية ويخفضونها.

وحيث كان الرواج يتطور، فإن الرجال الكبار كانوا يصيرون أكثر وأقوى سلطة ونفوذاً في نظر العامة، أو على الأقل من منظور المضاربين. ووفقاً لهذا الرأي، قرر الرجال الكبار في شهر مارس رفع السوق لأعلى. وحتى بعض الدارسين الجادين انحدروا إلى الاعتقاد بأن حركة مدبرة متعددة الأطراف ساعدت في هذا الارتفاع.. ولو كان الأمر هكذا، فإن الشخصية المهمة في هذا الشأن كان جون جى راسكوب، وقد كان لدى راسكوب صلات مثيرة للإعجاب، حيث كان مديراً في جنرال موتورز، وحليفاً لـ "دو بونتس"، ومعينا مؤخراً من قبل آل سميث لرئاسة اللجنة الوطنية الديمقراطية^(٣) "Democratic national Committee"، وقد اعتبر تلميذ جديد في السوق، هو البروفيسور تشارلز آموس دايس من جامعة ولاية أوهايو، اعتبر هذا التعيين الأخير مؤشراً خاصاً على الهيئة الجديدة لوول

(١) Allen, op. cit., p. 297

Understanding the New York stock Exchange, 3rd ed. (New York: stock Exchange, April (٢) 1954), p. 2.

(٣) اللجنة المسئولة عن كتابة البرنامج الانتخابي لمرشحي الحزب الديمقراطي الأمريكي ودعم الحملات الانتخابية لمرشحيه. تأسست سنة ١٨٤٨ (المترجم).

ستريت والاحترام الذى يكره له الشعب الأمريكى؛ حيث يقول: "اليوم، يختار الحكيم الحصيف على المستوى العالمى، المرشح من قبل أحد الأحزاب السياسية الكبرى، يختار واحداً من المديرين المتميزين فى سوق الأوراق المالية... كمبدع خلاق يتمتع بإعجاب الجماهير"^(١).

فى ٢٢ مارس ١٩٢٨؛ فى طريقه بالبحر إلى أوروبا، تكلم راسكوب متفائلاً عن توقعاته لمبيعات السيارات خلال بقية العام والحصصة التى يمكن أن تحصل عليها جنرال موتورز من السوق، وقد توقع أيضاً - دون وجود دليل واضح - أن أسهم جنرال موتورز سوف يتابع بأرباح لا تقل عن اثنى عشر ضعفاً. وقد كان هذا يعنى وصول السعر إلى ٢٢٥ مقارنة بالسعر الحالى البالغ ١٨٧.. وهكذا - كما عبرت التاييمز - "كان هذا التأثير السحري لتواضع تفاؤل مستر راسكوب" هو الذى أوصل السوق إلى حالة من الحمى المستعرة؛ وفى يوم السبت ٢٤ مارس قفزت أسهم جنرال موتورز بخمس نقاط تقريباً، وفى يوم الاثنين التالى وصلت إلى ١٩٩ نقطة.. وفى الوقت نفسه، أشعلت قفزة جنرال موتورز انفجاراً كبيراً فى التعاملات فى مكان آخر من القائمة.

من بين هؤلاء الذين كان يفترض أن يلقوا بكل قوتهم خلف السوق فى هذا الربيع؛ كان وليم كرابو ديورانت. لقد كان ديورانت هو منظم شركة جنرال موتورز الذى أطاح براسكوب ودو بونت خارج الشركة فى ١٩٢٠.. وبعد مغامرة أخرى فى مجال صناعة السيارات، تحول ديورانت إلى مضارب متفرغ فى البورصة. كما يعتقد أيضاً أن الإخوة فيشر السبعة كانت لهم نفوذهم، وقد كانوا متخرجين فى جنرال موتورز، وأتوا إلى وول ستريت بالثروة الكبيرة التى حققوها من بيع مصانع فيشر بوى "Fisher Body"، كان هناك أيضاً آرثر دبليو كوتن، كندى المولد المضارب فى سوق الحبوب، والذى حول معاملاته السوقية مؤخراً من مجلس شيكاغو للتجارة إلى وول ستريت. وكأحد المشتغلين بالسوق، تغلب كوتن على إعاقة شخصية مهمة، حيث كان يسمع بصعوبة شديدة، وبعد عدة سنوات أخرى، أقر مستشاره القانونى أمام لجنة من الكونجرس بأن ذاكرته كانت مختلفة جداً.

(١) New Levels in the Stock Market (New York: McGraw-Hill, 1929), p. 9.

بملاحظة هذه المجموعة فى مجملها، انبهر البروفيسور دايس بصفة خاصة بـ "رؤيتها للمستقبل، وأملها وتفاؤلها غير المحدودين". وقد لاحظ أنهم "لم يأتوا إلى السوق مثقلين بدروع ثقيلة من التقاليد". ومن الواضح أن البروفيسور دايس، فى مجال سرده لتأثيرهم فى السوق، وجد اللغة الإنجليزية تكاد تعجز عن التعبير، حيث يقول: "تحت قيادة هؤلاء الفرسان القديرين فى صناعة السيارات وصناعة الصلب وصناعة الراديو... التحق أخيراً - فى حالة من اليأس - كثير من التجار المحترفين، الذين - بعد سنوات من اليأس والفشل - لحقوا برؤية التقدم. وانطلقت إلى الأمام - مثل كتائب النصر الأسطورية - سوق كوليدج، فى وثبات بعد وثبات، ثم وثبات بعد وثبات..." (١).

- ٥ -

فى يونيو ١٩٢٨ تراجعت السوق وثبة أو وثبتين. والحقيقة أن خسائر الأسابيع الثلاثة الأولى من الشهر كانت مساوية تقريباً لمكاسب شهر مارس. وقد كان الثانى عشر من يونيو بصفة خاصة يوماً اتسم بخسائر ثقيلة جعلت منه علامة مميزة. على مدى عام أو أكثر، ظل الرجال أصحاب الرؤية يقولون إنه سوف يأتى اليوم الذى سوف يتم فيه التعامل على خمسة ملايين سهم فى بورصة نيويورك للأوراق المالية، فى وقت ما كانت هذه مجرد حاجة لفظية، ولكنها فى وقت آخر أسفرت عن علامات تقول إن الواقع تجاوزها. وفى ١٢ مارس، وصل حجم التعامل إلى ٢٨٧٥٩١٠ أسهم، وهو أكبر رقم حتى هذا التاريخ. لكن بنهاية الشهر كان هذا الحجم من التعامل شيئاً مألوفاً. وفى ٢٧ مارس تم التعامل على ٤٧٩٠٢٧٠ سهماً، ثم فى ١٢ يونيو جرى تداول ٥٠٥٢٧٩٠ سهماً، حتى إن ميارق التلغراف كانت متأخرة ساعتين فى محاولتها لمتابعة التطورات، حيث هبطت أسهم شركة راديو بمقدار ٢٢ نقطة. وبدأت إحدى صحف نيويورك رصد أحداث ذلك اليوم قائلة: "أنهار سوق المضاربة التصاعدية أمس فى وول ستريت محدثاً انفجاراً سمع دويه فى أنحاء العالم".

(١) Ibid., pp. 6-7.

لقد كان الإعلان عن موت سوق المضاربة السعودية سابقاً لأوانه مثله مثل موت مارك توين^(*) Mark Twain " فى يوليو. كانت هناك مكاسب قليلة، فى أغسطس حدث ارتفاع قوى. فيما تلى ذلك، لم يصب الناس تردد جدى ولو حتى بسبب اقتراب الانتخابات، فقد ظلوا رابطين الجأش عندما قام روجر دابليو بابسون^(**) فى السابع عشر من سبتمبر بإخبار تجمع من الجمهور فى ويلسلى بماساشوسيتس بأن "لو انتخب سميث^(***) مع كونجرس ديمقراطى، فمن المؤكد تقريباً أنه سينتج عن ذلك كساد فى الأعمال فى ١٩٢٩ كما قال أيضاً إن "انتخاب هوفر وكونجرس جمهورى سوف يؤدى إلى ازدهار مستمر فى ١٩٢٩". ربما كان هذا ما جعل الناس يعرفون أن هوفر يجب أن يأتى. على أى حال، ففى الشهر نفسه جاء التطمين من سلطة أعلى، حيث قال أندرو دابليو ميلون^(****): إنه "ليس هناك أى سبب للقلق، فالمد العالى من الازدهار سوف يستمر".

إن مستر ميلون لم يكن يدري، ولا أى من الشخصيات العامة الأخرى التى أطلقت فى ذلك الوقت عبارات مشابهة. إن هذه ليست تنبؤات، وليس من المفترض أن الرجال الذين أطلقوها هم أكثر تميزاً حيث يستطيعون رؤية المستقبل أكثر من الآخرين. مستر ميلون كان يشارك فى شعيرة يُعتقد فى مجتمعنا أنها ذات قيمة كبيرة فى التأثير فى مسار دورة الأعمال، حيث يعتقد أنه بالتأكيد رسمياً على أن الازدهار سوف يستمر، يستطيع المرء ضمان أن الازدهار - حقيقة - سوف يستمر. إن الاعتقاد فى كفاءة هذه الشعيرة قوى جداً، خاصة بين رجال الأعمال.

(*) كاتب وروائى أمريكى ساخر. ولد مارك توين سنة ١٨٣٥ عند اقتراب مذنب هالى من الأرض، وتوقع فى سنة ١٩٠٧ أنه سيموت عند أول اقتراب قادم للمذنب من الأرض. وقد صدق توقعه حيث مات سنة ١٩١٠ فى اليوم التالى لاقتراب مذنب هالى لأقرب مسافة من الأرض (المترجم).

(**) رجل أعمال ومنظر اقتصادى اشتهر فى النصف الأول من القرن العشرين. سيتكرر اسمه فى الفصول التالية (المترجم).

(***) المرشح الديمقراطى فى الانتخابات الرئاسية الأمريكية ١٩٢٨ (المترجم).

(****) مصرفى ورجل صناعة أمريكى. تولى منصب وزير الخزانة منذ ١٩٢١ - ١٩٢٢ (المترجم).

تم انتخاب هوفر بأغلبية ساحقة، وهذا - مع أخذ اشتراك المضاربين ومستتر هوفر فى عقلية واحدة فى الاعتبار - كان من شأنه أن يسبب هبوطاً ثقيلاً فى السوق. لقد قرر السيد هوفر فى مذكراته بأنه شعر بالقلق مبكراً، منذ سنة ١٩٢٥ بشأن "المد المتصاعد للمضاربة"^(١). وخلال الأشهر والسنوات التالية تحول هذا القلق تدريجياً إلى نذير، ثم إلى شيء أقل قليلاً من هاجس بكارثة شاملة. ويقول السيد هوفر عن المضاربة: "إن هناك جرائم أسوأ كثيراً من جريمة القتل التى يجب بسببها أن يلعن مرتكبوها ويعاقبوا"^(٢)، ولكنه باعتباره وزيراً للتجارة لم يسع إلى فعل الكثير من أجل جعل السوق تحت السيطرة.

ومع ذلك، فإن هذا الموقف من مستر هوفر تجاه السوق كان محتفظاً به باعتباره سرّاً بشكل استثنائى. ولم يعرف الناس شيئاً عن جهوده من أجل ترجمة أفكاره إلى أفعال، وهى الجهود التى اشترك فى إحباطها كل من كوليدج ومجلس إدارة الاحتياطى الفيدرالى!! إن أخبار انتخاب السيد هوفر - بدلاً من أن تسبب هلعاً - فجرت أكبر زيادة فى الشراء حتى يومنا هذا. وفى السابع من نوفمبر، اليوم التالى لانتخابه، كان هناك "زواج الانتصار". وارتفع قادة السوق بما يتراوح بين ٥ نقاط و ١٥ نقطة. ووصل حجم التعامل إلى ٤٨٩٤٦٧٠ سهماً، أى أقل قليلاً من الرقم القياسى المسجل فى ١٢ يونيو. وجاء الوصول إلى هذا المستوى الجديد فى سوق متصاعدة لا هابطة. وفى ١٦ نوفمبر، ضربت السوق موجة أخرى من الشراء، حيث جرى تداول رقم مذهل وصل إلى ٦٦٤١٢٥٠ سهماً، وهذا أعلى كثيراً من الرقم القياسى السابق. وقد سجل متوسط تايمز الصناعى زيادة صافية قدرها ٤,٥ نقطة فى معاملات اليوم، وهو ما اعتبر فى ذلك الوقت تقدماً مذهلاً، وفيما عدا نشوة الانتخابات، فلم يكن هناك شيء خاص يمكن أن يحث على هذا الحماس. وقد حملت العناوين الرئيسية فقط أنباء غرق السفينة

The Memoirs of Herbert Hoover: The Great Depression, 1929-1941 (New York: Macmillan, 1952), p. 5.

Ibid., p. 14. (٢)

البخارية فيستريس "Vestris" والإنجازات الملحمية للمسؤولين وأفراد الطاقم في إجلاء السيدات والأطفال وإنقاذ حياتهم. أما ٢٠ نوفمبر فكان يوماً ضخماً آخر، فحجم التعامل (٢٣٠, ٥٠٢, ٦) كان أقل بقليل من معاملات السادس عشر، ولكنه، وفقاً للاتفاق العام، كان أكثر سعاراً. وفي صباح اليوم التالي لاحظت التايمز أن "العنف الأهوج الذي شهدته سوق الأوراق المالية أمس لم يعرف له مثيل في تاريخ وول ستريت".

ديسمبر لم يكن جيداً كثيراً. ففي بدايات الشهر كانت هناك فجوة سيئة. وفي ٨ ديسمبر، انخفضت أسهم شركة راديو انخفاضاً مروعاً بمقدار ٧٢ درجة في يوم واحد. ومع ذلك فقد سارت السوق باطراد ثم استقرت. وعلى مدى سنة ١٩٢٨ بكاملها، ارتفع متوسط التايمز للشركات الصناعية بمقدار ٨٦ نقطة، أو من ٢٤٥ إلى ٣٣١. وخلال العام ارتفعت شركة راديو من ٨٥ إلى ٤٢٠ نقطة (ولم تقم بأى توزيعات). وارتفعت شركة دو بونت من ٢١٠ إلى ٥٢٥ نقطة، ومونتجومري وارد من ١١٧ إلى ٤٤٠ نقطة، ورايت أيرونوتيك من ٦٩ إلى ٢٨٩ نقطة (١). وخلال العام تم التعامل في ٩٢٠٥٥٠٠٣٢ سهماً في بورصة نيويورك مقارنة برقم ٥٧٦٩٩٠٨٧٥ سهماً في ١٩٢٧ (٢)، ولكن كان لا يزال هناك مؤشر آخر أكثر أهمية بين ما كان يحدث في السوق، وهو الزيادة غير الطبيعية في التعامل في الأوراق المالية على الهامش (٥) "On Margin".

—٧—

كما لوحظ، فإنه عند نقطة ما من نمو الرواج، تصبح كل عناصر الملكية العقارية غير متصلة بالموضوع، فيما عدا احتمالات الزيادة المبكرة في السعر. فالدخل المستمد من العقار، أو الاستمتاع باستخدامه، أو حتى قيمته على المدى الطويل كلها الآن أشياء نظرية. وكما في حالة تقسيمات فلوريدا الأكثر إثارة

(١) Dice, op. cit., p. 11.

(٢) Year Book, 1929-1930 (New York: stock Exchange).

(٥) شراء الأوراق المالية على الهامش يتم عن طريق تمويل جزء من قيمة الورقة عن طريق السمسار والباقي يدفعه المشتري. الأوراق المالية المشتراة تظل في حوزة السمسار باعتبارها ضماناً (المترجم).

للاشمئزاز، فإن حقوق الانتفاع هذه يمكن أن تكون غير موجودة، أو حتى سلبية، المهم هو أن القيمة السوقية لها سوف ترتفع غداً أو بعد أسبوع - كما فعلت أمس أو فى الأسبوع الماضى - وسيصبح من الممكن تحقيق أرباح.

ويترتب على ذلك أن المكافأة الوحيدة للملكية التى تمثل مصلحة يحصل عليها المالك جراء ملكيته فى وقت الزواج هى زيادة قيمة العقار. فهل يمكن الفصل بشكل أو بآخر بين الزيادة فى القيمة وبين الثمار الأخرى غير المهمة الآن للحياة، وكذلك الفصل بينها وبين الأعباء الكثيرة المحتملة الأخرى للملكية؟ إن هذا سوف يلقي ترحيباً كبيراً من قبل المضارب. إن مثل هذا الترتيب سوف يمكنه من التركيز على المضاربة التى هى - فوق كل شىء - وظيفة المضارب.

هكذا هى عبقرية الرأسمالية حيث أينما وجد طلب حقيقى لا يمكن أن يبقى طويلاً غير مشبع. وفى كل نويات حمى المضاربة الكبيرة ظهرت أدوات تمكن المضارب من التركيز أكثر فى عمله. ففي رواج فلوريدا، كان التعامل يتم من خلال "عقود مؤقتة"، حيث لم يكن يتم الإتجار فى الأرض نفسها ولكن فى الحق فى شراء الأرض بسعر محدد. هذا الحق فى الشراء - الذى كان يمكن الحصول عليه بسداد مقدم يبلغ ١٠٪ من ثمن الشراء - يمكن بيعه، وهو هكذا يمنح المضاربين كامل الفائدة المتحققة من ارتفاع قيمة الأراضى، فبعد أن ترتفع قيمة قطعة الأرض يستطيع المضارب إعادة بيع العقد المؤقت مقابل ما دفعه بالإضافة إلى كامل الزيادة فى السعر.

أسوأ عيب من أعباء الملكية - سواء ملكية الأرض أو أى أصل آخر - هو الحاجة إلى سداد الثمن النقدى المتمثل فى سعر الشراء. واستخدام العقد المؤقت يخفف هذا العيب بنسبة ٩٠٪؛ أو أنه يضاعف عشر مرات المساحة التى يستطيع المضارب حصد منها الزيادة فى القيمة، والمشتري يتنازل بسهولة عن مميزات الملكية الأخرى، بما فى ذلك الدخل الحالى الذى لم يتحقق على الإطلاق، واحتمالات الاستخدام الدائم التى لم يحصل على أى شىء منها.

إن سوق الأوراق المالية لها أيضاً أسلوبها فى تركيز طاقات المضاربة لدى المضارب.. وكما يمكن أن نتوقع، فهى تحسن بدرجة كبيرة من خواص سوق

العقارات.. فى سوق الأوراق المالية، يحصل مشتري الأوراق المالية بالهامش على كامل حقوق الملكية على مشترياته من خلال بيع غير مشروط، ولكنه يتحرر من معظم الأعباء الثقيلة للملكية - المتمثلة فى سداد ثمن الشراء - بترك الأوراق المالية لدى السمسار الذى يتعامل معه كرهن للقرض الذى اشتراها به.. وهكذا يحصل المشتري على كامل المزايا المتحققة من أى زيادة فى القيمة، حيث يرتفع سعر الأوراق المالية، ولكن القرض الذى اشترت به لا تزيد قيمته. وفى سوق الأوراق المالية، يحصل المشتري المضارب - أيضاً - على أرباح الأوراق المالية التى اشتراها. ومع ذلك ففى تلك الأيام التى تؤرخ لها، كانت الأرباح دائماً تقريباً أقل من الفوائد التى تسدد على القرض، وغالباً أقل كثيراً؛ فقد كانت الأوراق المالية تغل عائداً يتراوح بين ٨٪ أو أكثر. إن المضارب كان على استعداد لأن يحرم نفسه من تتراوح غالباً بين ٨٪ أو أكثر. إن المضارب كان على استعداد لأن يحرم نفسه من كل حقوق الانتفاع من امتلاك الأوراق المالية فيما عدا فرصة تحقيق ربح رأسمالى.

إن الآلية التى يفصل بها وول ستريت فرصة المضاربة عن النتائج والأعباء غير المرغوب فيها للملكية آلية مبتكرة ومحكمة، وتقريباً جميلة؛ فالبنوك تزود السماسرة بالتمويل، والسماسرة يزودون به المضاربين، والرهونات تعود ثانية إلى البنوك فى تدفق ناعم وتلقائى بالكامل تقريباً. إن قيمة الهامش - المدفوعات النقدية التى يجب أن يقدمها المضارب بالإضافة إلى الأوراق المالية التى تضمن القرض، والتى يجب أن يزيد منها فى حالة انخفاض قيمة الأوراق المالية المرهونة بما يودى إلى انخفاض درجة الحماية التى توفرها - تحسب وتراقب بدون مجهود. فسعر الفائدة يتحرك بسرعة وسهولة كى يحافظ على عرض التمويل متوافقاً مع الطلب. ومع ذلك، فإن وول ستريت لم يكن قادراً فى يوم من الأيام على أن يعبر عن افتخاره بهذه الترتيبات. إنها جديرة بالإعجاب، وربما مدهشة، فقط فيما يتعلق بالغرض الذى تخدمه، وهذا الغرض هو أن تستوعب المضارب وتسهل المضاربة؛ ولكن هذه الأغراض لا يمكن أن تلقى القبول، فلو أن وول ستريت اعترف بهذه الأغراض، فإن الآلاف من الرجال والنساء المتحلين بالأخلاق

لن يجدوا أمامهم خياراً سوى إدانته لرعايته لهذه الأمور الشريرة ويطالبونه بالإصلاح. إن الإتجار بالهامش سوف يتم الدفاع عنه ليس على أرضية أنه يساعد المضارب بكفاءة ومهارة، ولكن على أساس أنه يشجع إيجاباً يحول سوقاً هزيلة مصابة بالأنيميا إلى سوق سميئة موفورة الصحة. ولكن هذا - فى أفضل الأحوال - منتج ثانوى عقيم ومشبوه. إن وول ستريت - فى هذه الشئون - يشبه امرأة جميلة بارعة ترتدى جوارب قطنية سوداء وملابس داخلية صوفية سميكة، وتستعرض معارفها كطاهية ممتازة، بينما أسمى مهاراتها - للأسف الشديد - هى مهاراتها كعاهرة.

ومع ذلك، فإن أكثر أصدقاء السوق حذراً سوف يعترف بأن حجم قروض السماسرة - القروض المضمونة بالأوراق المالية المشتراة بالهامش - مؤشر جيد على حجم المضاربة، وعند قياسها بهذا المؤشر، فإن كمية المضاربة كانت ترتفع بسرعة شديدة فى ١٩٢٨.

فى أوائل العشرينيات، تراوح حجم قروض السماسرة - التى بسبب سيولتها يشار إليها باسم القروض تحت الطلب "Call Loans" أو قروض السوق تحت الطلب - بين بليون وبلليون ونصف البليون دولار. وبحلول ١٩٢٦ زادت إلى بليونين ونصف البليون، وظلت عند هذا المستوى تقريباً معظم العام. وفى أثناء ١٩٢٧ حدثت زيادة أخرى بنحو بليون دولار، وبنهاية العام وصلت إلى ٣٤٨٠٧٨٠٠٠٠ دولار، وكان هذا مبلغاً لا يصدق، لكنه كان مجرد البداية. فى شهرى الشتاء الغائمين من سنة ١٩٢٨ كان هناك انخفاض بسيط. ثم بدأ التمدد الجدى؛ حيث وصلت قروض السماسرة إلى أربعة بلايين فى أول يونيو ١٩٢٨ وإلى خمسة بلايين فى أول نوفمبر، وبنهاية العام وصلت إلى نحو ستة بلايين دولار^(١). وهذا شئ لم يحدث له مثيل من قبل.

لقد كان الناس يتكالبون من أجل شراء الأوراق المالية بالهامش، أو بتعبير آخر، ليحصلوا على الزيادة فى السعر دون تحمل تكاليف الملكية. لقد كانت التكلفة

(١) الرقم فى نهاية السنة كان ٥٧٢٢٢٥٨٧٢٤ دولاراً. والأرقام مأخوذة من الكتاب السنوى لبورصة نيويورك، ولا تتضمن قروض السماسرة. فى ذلك الوقت.

تقدر - بداية - بواسطة بنوك نيويورك، ولكنها كانت تعود بسرعة لتصبح أدوات في أيدي المقرضين، على مستوى البلاد، وحتى على مستوى العالم. وليس هناك غموض حول السبب في وجود الكثير من الراغبين في إقراض كل هذا المال في نيويورك فأحدى مفارقات المضاربة في الأوراق المالية هي أن القروض التي تغطيها تعتبر من بين أكثر الاستثمارات أماناً، فهي محمية بأوراق مالية قابلة للبيع الفوري تحت كل الظروف، وبهامش ربح نقدي في الوقت نفسه، والمال - كما ذكرنا - يمكن استعادته عند الطلب. في بداية ١٩٢٨ كان هذا المنفذ - السائل لدرجة مثيرة للإعجاب والأمين بدرجة استثنائية - لرأس المال غير المخاطر يغل نحو ٥٪ وبينما كان ٥٪ ممتازاً كمائد مضمون، فإن المعدل ارتفع باطراد خلال ١٩٢٨ وخلال الأسبوع الأخير من العام، وصل إلى ١٢٪ وكان هذا لا يزال بأمان كامل.

في مونتريال ولندن وشنغهاي وهونغ كونج، كان يجري الحديث عن هذه المعدلات. وفي كل مكان قال أصحاب الأموال لأنفسهم: إن ١٢٪ تعنى ١٢٪ وبدأ نهر كبير من الذهب يتجمع في وول ستريت، جاء كله لتساعد الأمريكيين في حياة أسهم عادية بالهامش. وقد وجدت الشركات أيضاً أن هذه المعدلات جذابة، فعند ١٢٪ كان وول ستريت يستطيع أن يقدم استخداماً أكثر ربحية - لرأس المال العامل لشركة - حتى من الإنتاج الإضافي. واتخذ عدد محدود من الشركات هذا القرار: بدلاً من محاولة إنتاج السلع بمنقصاتها وإزعاجاتها المتعددة، اقتصروا على تمويل المضارب؛ ثم أخذ المزيد من الشركات يقرض فائض أمواله في وول ستريت.

كانت لا تزال هناك طرق أفضل لتكوين الأموال. بداية، استطاعت بنوك نيويورك اقتراض الأموال من بنك الاحتياطي الفيدرالي مقابل ٥٪ وتعيد إقراضها في سوق الأوراق المالية تحت الطلب مقابل ١٢٪؛ وقد فعلوا ذلك بالفعل. وربما كانت تلك أكبر عمليات البيع والشراء الآتية ربحية في أي وقت من الأوقات.

— ٨ —

ومع ذلك، كانت هناك طرق كثيرة لجمع المال في ١٩٢٨؛ لم يوجد على الإطلاق وقت أفضل من هذا لتحصيل الثروة، وقد عرف الناس ذلك. والواقع أن

١٩٢٨ كانت آخر سنة كان فيها الأمريكيون مزدهرين ومستهترين وبالفى السعادة. لم تكن المسألة أن سنة ١٩٢٨ كانت أحسن مما يمكن أن تدوم، ولكن المسألة كانت فقط أنها لم تدم.

في عدد يناير من مجلة وورلدز وورك، وبعد أن تأمل ويل باين فى مدهشات السنة المنصرمة، استطرد شارحاً الفرق بين المقامر والمستثمر. المقامر - كما قال - يكسب فقط لأن شخصاً آخر يخسر. بينما فى الاستثمار يربح الجميع، فأحد المستثمرين - كما أوضح - يشتري جنرال موتورز مقابل ١٠٠ دولار، ويبيعها لآخر مقابل ١٥٠؛ وهو بدوره يبيعها لثالث مقابل ٢٠٠ دولار. كل واحد يكسب أموالاً. ذات مرة، لاحظ والتر بيجهوت أن كل الناس يكونون أكثر سذاجة عندما يكونون أكثر سعادة" (١).

(١). Lombard street, 1922 ed. (London: John Murray, 1922), p. 151.

الفصل الثانى

هل كان هناك ما يجب فعله؟

من السهل أن نرى - بأثر رجعى تماماً - كم كان مقدراً لسنة ١٩٢٩؛ أن تكون سنة لا تنسى. وليس هذا بسبب أن السيد هوفر كان على وشك تولى الرئاسة فوراً، وأنه كانت لديه نوايا عدوانية تجاه السوق، وأن هذه النوايا قد تغيرت (على الأقل عندما ننظر إليها لاحقاً). كما أن هذا ليس بسبب أن رجالاً حكماً كانوا يستطيعون اعلان أن هناك كساداً كان قد حان أوانه.. فلا أحد، حكيماً أو غير حكيم عرف - أو يعرف الآن - متى يكون كساد قد حان أوانه أو أوشك.

ولكن الأمر كان ببساطة أن رواجاً هادراً كان فى حالة متقدمة فى سوق الأوراق المالية، وأنه مثل كل رواج لا بد أن يصل إلى نهاية. وفى الأول من يناير سنة ١٩٢٩، وعلى سبيل الاحتمال، كان من الأرجح أن ينتهى هذا الرواج قبل نهاية العام، مع فرصة متضائلة لأن يمتد لينتهى فى أى سنة لاحقة، فعندما تتوقف الأسعار عن الارتفاع - عندما يستنفد الناس الذين كانوا يشترون عندما ترتفع الأسعار - فإن الملكية بالهامش تصبح لا معنى لها، ويرغب كل شخص فى البيع؛ فتصبح السوق غير مستقرة، وتهبط بسرعة غير متوقعة.

وعندما تكون الأمور هكذا، فإن موقف الناس الذين كانوا يتولون مسئولية اسمية - على الأقل - عما كان يحدث يكون موقفاً معقداً. إن أحد أقدم الألغاز

فى السىاسة هو من ينظم عمل المنظمين، ولكن هناك مشكلة محيرة بالقدر نفسه، وإن كانت لم تلق أبداً ما تستحقه من اهتمام، وهى من يجعل هؤلاء المطلوب منهم أن يكونوا حكماء بالفعل حكماء.

إن بعضاً من هؤلاء الذين كانوا فى مواقع السلطة كانوا يريدون للرواج الاستمرار. فقد كانوا يجنون منه المال؛ وربما كانوا على علم بالكارثة الشخصية التى تنتظرهم عندما يصل الرواج إلى نهايته. ولكن هناك أيضاً بعض من قالوا - وإن بغير وضوح كاف - إن مضاربة شرسة كانت فى تزايد - وأنه يجب فعل شىء ما. ولكن بالنسبة إلى هؤلاء الناس، فإن كل اقتراح تقدموا به كان يزيد من صعوبة نفس المشكلة المستعصية. لقد كانت عواقب التصرف الناجح تبدو تقريباً مثيرة للمتاعب مثلها مثل عواقب عدم التصرف، وربما كانت تلك العواقب أكثر سوءاً بالنسبة إلى هؤلاء الذين قاموا بالتصرف.

إن أى فقاعة يمكن أن تخرق بسهولة، ولكن كى تخرقها بإبرة من أجل أن تتلاشى تدريجياً هى مهمة تحتاج لغير قليل من الحذق. لدى هؤلاء الذين أحسوا بما كان يحدث فى أوائل سنة ١٩٢٩ كان هناك بعض الأمل؛ لكن ليس الثقة فى أن الرواج يمكن أن يخمد. لقد كان الاختيار الحقيقى هو بين انهيار عاجل ومحكوم تدريجياً، وبين كارثة أكثر خطورة تقع فيما بعد. هناك بالتأكيد من يمكن لومه على الانهيار النهائى عندما وقع؛ ولكن لم يكن هناك تساؤل عما كان يجب أن يلام عن أن الرواج كان يجب أن يتقلص تدريجياً. (على مدى نحو عشر سنوات نفت سلطات الاحتياطى الفيدرالى مسئوليتها عن كساد (١٩٢٠ - ١٩٢١)، لقد أعطت الكارثة النهائية أيضاً ميزة لا تقدر بثمن فى إتاحة أيام أو أسابيع أو شهور للتصرف، ولكن المرء قد يشك فىم إذا كانت المشكلة قد وضعت فى إطارها فى أى وقت من أوائل سنة ١٩٢٩ بمعايير مثل هذه البدائل شديدة القسوة، ولكن صراحة أو ضمناً، كانت هذه البدائل هى الخيارات التى فرضت نفسها على كل اجتماع جاد حول ما يجب فعله تجاه السوق.

الأشخاص الذين كانوا يتحملون مسئولية هذه الخيارات الحتمية؛ كانوا هم رئيس الولايات المتحدة، وزير الخزانة، مجلس إدارة بنك الاحتياطي الفيدرالى فى واشنطن، محافظ ومديرو بنك الاحتياطي الفيدرالى لنيويورك. وباعتباره أقوى بنوك الاحتياطي الفيدرالى، والبنك الذى تقع السوق على عتبات أبوابه، فإن بنك الاحتياطي الفيدرالى لنيويورك يتحمل ويتولى المسئوليات التى لم تقبلها البنوك الأحد عشر الأخرى فى نظام الاحتياطي الفيدرالى. أما الرئيس كوليدج فلا علم ولا اهتم بما كان يجرى، فقبل أيام قلائل من مغادرته لمنصبه سنة ١٩٢٩ لاحظ بسعادة أن الأمور كانت "سليمة تماماً" وأن الأوراق المالية كانت "رخيصة بأسعارها الحالية"^(١). وكلما جرى تحذيره فى السنوات السابقة من أن المضاربة كانت تخرج عن السيطرة، كان يريح نفسه بالاعتقاد فى أن تلك هى المسئولية الرئيسية لمجلس الاحتياطي الفيدرالى^(٢). لقد كان هذا المجلس كياناً شبه مستقل، أساساً لأن الكونجرس أراد حمايته من التدخل السياسى المفرط من قبل السلطة التنفيذية. وأيا كانت درجة تردد الرئيس كوليدج فقد كان يستطيع التصرف من خلال وزير خزانته الذى كان - بحكم منصبه - عضواً فى مجلس الاحتياطي الفيدرالى. وقد كان وزير الخزانة يتحمل أيضاً المسئولية الرئيسية عن السياسة الاقتصادية، خاصة السياسة المالية. ولكن فى هذا الشأن، كما فى شئون السياسة الاقتصادية الأخرى، كان أندرو دبليو ميلون - وزير الخزانة فى ذلك الوقت - متقاعساً.. وهكذا؛ ذهبت المسئولية لمجلس الاحتياطي الفيدرالى وبنوك الاحتياطي الفيدرالى.

إن إدارة النشاط الاقتصادى هى - بلا شك - من أقل الجهود العامة جاذبية وجدوى، فكل شخص تقريباً يعارضها من حيث المبدأ، ودائماً ما يعتمد ضبطها

The Memoirs of Herbert Hoover, p. 16. (١)

Ibid., p. 11. (٢)

على تحقيق حالة غير مستحبة من الاختيار بين أهون الشرين. إن القوانين التى تنشأ عن مناقشات حامية فى الكونجرس، يمكن على أساسها فى بعض الأحيان أن تتعرض جماعات الضغط السافرة لوضع حدود على فجورها، كما إن إصدار وتطبيق القوانين والقواعد يتم بواسطة البيروقراطية الجامدة التى تواجه بانتقادات لا تتوقف. وفى السنوات الأخيرة أصبح إلزامياً على المنظمين أن يعترفوا فى كل فرصة بتقصيرهم الذى هو واضح جداً فى كل الأحوال.

الاستثناء الواضح من هذه القواعد الملزمة هو البنك المركزى (جهاز الاحتياطى الفيدرالى فى حالتنا). هنا توجد قاعدة من نوع أنيق محتشم، لا أحد يعتذر عنها، يتسم رجالها بمحافضة مبراة من العيوب، وسوف ينبرون للدفاع عن تلك القاعدة كلما استدعى الأمر ذلك، وهو ما لا يحدث غالباً. إن هذه القاعدة ليست من عمل آلاف الموظفين والإحصائيين ومسئولى الاستماع والمحامين ومن دونهم فى مبنى البنك المزدحم؛ ولكنها تنشأ عن مناقشات رزينة منمقة بين رجال ذوى مظهر محترم، كل منهم يجلس فى مكانه المألوف حول مائدة ضخمة من الخشب الثمين فى غرفة محاطة بالاستائر المصنوعة من الجوخ الفاخر. هؤلاء الرجال لا يصدرن قرارات، ولكنهم فى الغالب يقترحون، وهم أساساً يحركون أسعار الفائدة، ويبيعون أو يشترون الأوراق المالية، وبينما يفعلون ذلك، يدفعون الاقتصاد برفق هنا، أو يكبحونه هناك.. ولأن معانى أفعالهم تكون غير مفهومة للأغلبية العظمى من الناس، فيمكن أن يكون الافتراض المعقول هو أنهم يتميزون بحكمة فائقة.. سوف تنتقد أعمالهم فى المناسبات. والأغلب أن هذه الأعمال سوف يتم تفحصها بحثاً عن معنى خفى.

هذه هى السمة المميزة لعمل البنوك المركزية، وكذا كان الدور المثير للإعجاب فى ١٩٢٩ لبنك الاحتياطى الفيدرالى فى واشنطن، الكيان الصانع للسياسات الذى أرشد ووجه بنوك الاحتياطى الفيدرالى الاثنى عشر.. ومع ذلك، فقد كانت هناك مشكلة مزعجة، وهى أن مجلس الاحتياطى الفيدرالى فى تلك الأيام كان كياناً من العجز المذهل.

على مدى عدة سنوات، وحتى أواخر ١٩٢٧ كان الرئيس والعقل الموجه العبقري للبنك هو دانييل آر كريسينجر، وقد تدرب على هذه المهمة بالعمل مستشاراً قانونياً لشركة ماريون ستيم شوفيل في ماريون، أوهايو. وليس هناك أى مؤشر على أنه كان تلميذاً نابهاً، ومع ذلك فإن خلفيته بدت مرضية لشخص آخر من ماريون، هو وارين جى هاردينج الذى أحضره إلى واشنطن، حيث كان يشار إليه باعتباره سياسياً رديئاً من أوهايو. وفى سنة ١٩٢٧ حل محله روى آى يانج الذى كان لمدة ثمانى سنوات محافظاً لبنك الاحتياطى الفيدرالى فى مينيابوليس. وقد كان يانج - ذو الشخصية الأكبر والأهم - مدرّكاً دون شك لما كان يحدث. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان رجلاً حذراً، لم يسع لأى شهرة كشهيد للرواج الذى تصدع. لقد كان زملاؤه منتشرين فى كل مكان ضمن الذين عينهم هاردينج وكوليدج. وباستثناء واحد هو الأستاذ الجامعى السابق أدولف سى ميلر، فقد وصفهم هربرت هوفر جميعاً بأنهم "محدودو القدرات"^(١).

بنك الاحتياطى الفيدرالى لنيويورك كان تحت قيادة أكثر صلابة. ولسنوات عديدة، حتى ١٩٢٨ كان المحافظ هو بنيامين سترونج، أول أمريكى منذ نيكولاس بيدل يحقق سمعة ذات أهمية باعتباره مصرفى بنك مركزى. لقد كان يشار إلى آراء سترونج داخل النظام المصرفى بهلع أقل قليلاً من قاعدة الذهب؛ ومع ذلك، فمن وجهة نظر هربرت هوفر (وآراء هوفر فى هذه اللحظة تجد من يشاركه فيها على نطاق كبير) فإن سترونج، الذى كان بعيداً جداً عن القلق بشأن التضخم، كان أكثر الناس مسئولية عنه. فقد كان هو من أخذ زمام القيادة فى ١٩٢٧ فى خفض معدل الفائدة لمساعدة الأوروبيين الواقعين تحت ضغط شديد، ولهذا سماه مستر هوفر فيما بعد "الملحق الذهنى لأوروبا"^(٢).

ولكن هذا غير عادل، فتصرف المحافظ استرونج كان معقولاً تماماً وفقاً للظروف، وكما لاحظنا فى الفصل السابق، فإن بداية مضاربة تحتاج لأكثر من

Ibid., p. 9. (١)

Ibid., p. 9.10. (٢)

القدرة العامة على اقتراض المال، ومع ذلك؛ فإن بنك الاحتياطي الفيدرالى لنيويورك تحت قيادة المحافظ استرونج ربما لم ينزعج بما يكفى بسبب المضاربة التى تجرى على مرمى حجر؛ ولا هى انزعجت بعد وفاة سترونج فى أكتوبر ١٩٢٨ وحلول جورج إل هاريسون محله. ولا شك فى أن أحد الأسباب فى ذلك هو التطمينات التى كانت تصدر عن أناس فى مواقع عليا وكانوا هم أنفسهم مضاربين بكثافة، فواحد مثل تشارلز إى ميتشيل، رئيس مجلس إدارة بنك نيويورك سيتى، أصبح فى الأول من يناير ١٩٢٩ مديراً من الدرجة الأولى فى بنك الاحتياطي الفيدرالى لنيويورك. ونهاية الرواج كان معناها نهاية ميتشيل؛ وهو لم يكن بالرجل الذى يعجل بنهاية نفسه.

- ٣ -

فى التاريخ المعتمد لذلك العهد، كان المنتظر من سلطات الاحتياطي الفيدرالى ألا تكون على هذه الدرجة الكبيرة من عدم الوعى أو عدم الرغبة بسبب العجز. ربما كانوا يريدون وضع حد لحالة الرواج، ولكنهم افتقدوا للأدوات. إن هذا يبعدنا عن رؤية الأمور على وجه أكثر تفصيلاً، كما يخفى الطبيعة الحقيقية للورطة التى واجهتها السلطات.

إن الأدوات الكلاسيكية للسيطرة كانت - فى الواقع - غير صالحة إلى حد كبير. وهذه الأدوات - كما يعرف أى طالب فى السنة الثانية - هى اثنان: عمليات سوق مفتوحة، والمناورة بسعر إعادة الخصم. إن مبيعات السوق المفتوحة للأوراق المالية الحكومية بواسطة الاحتياطي الفيدرالى^(١) تجلب إلى أقبية بنوك الاحتياطي النقود التى تدفع فى شراء الأوراق المالية، وهناك تظل عديمة النفع أو الضرر. أما لو ذهبت للبنوك التجارية، فكان يمكن أن تقرض للجمهور أضعافاً مضاعفة - خاصة فى تلك الأيام - للناس الذين كانوا يقبلون على شراء الأسهم العادية.

كى تنجح مثل تلك السياسة كان يجب بالضرورة أن تكون لدى جهاز الاحتياطي الفيدرالى أوراق مالية معروضة للبيع. ولعل إحدى النعم التى لا تقدر

(١) أو بيع أو الحد من رصيد الأوراق التجارية.

بثمان في سنوات الكساد والحروب والتمويل بالعجز منذ ١٩٣٠؛ هي الجرد المتوسع للدين الحكومي لدى بنوك الاحتياطي. في سنة ١٩٢٩ لم تكن البنوك في حالة جيدة، ففي بداية سنة ١٩٢٨ بلغت أرصدها ٦١٧ مليون دولار. وخلال النصف الأول من العام كانت هناك مبيعات كثيفة باعتبارها جزءاً من الجهود الرامية إلى امتصاص التمويل المعروض الذي كان يتدفق على السوق. وعلى الرغم من أن المبيعات لم تستمر بقية العام نتيجة للاعتقاد المغلوط في أن السياسة قد نجحت وأن الرواج كان تحت السيطرة، فإنها لم تكن لتستطيع أن تستمر أكثر من هذا بأي حال من الأحوال. وفي نهاية ١٩٢٨، وصل رصيد الأوراق المالية الحكومية لدى جهاز الاحتياطي الفيدرالي إلى ٢٢٨ مليون دولار فقط؛ ولو أن هذا المبلغ قد ألقى به في السوق، لكان من الممكن أن يكون له بعض التأثير، ولكن مجلس الاحتياطي الفيدرالي لم يكن من المفترض أن يتخذ مثل هذا المسلك العنيف الذي كان يمكن أيضاً - كنتائج عرضي - أن يجرد بنوك الاحتياطي الفيدرالي بدرجة كبيرة من أصول مغللة للربح. لقد حققت المبيعات ملايين قليلة في الأشهر الأولى من ١٩٢٩ ولكن التأثير كان غير ذي أهمية؛ وفوق هذا، وحتى مع هذه السياسة الواهية، فإن مجلس الإدارة كان قلقاً خشية أن يؤدي حرمان البورصة من التمويل إلى وضع شيء من العبء على الأعمال "المشروعة". واستمرت بنوك الاحتياطي في شراء الأوراق المالية التي تصدر في نطاق تمويل التجارة العادية غير المضاربة؛ وحيث تخلصت البنوك التجارية من الحاجة لحمل تلك الأوراق، فقد راحت في سعادة تقرض مزيداً من المال في سوق الأوراق المالية.

الأداة الثانية في سياسة الاحتياطي الفيدرالي كانت سعر إعادة الخصم، وهو سعر الفائدة الذي تقترض به البنوك التجارية من بنوك الاحتياطي في منطقتها كي تستوعب مزيداً من المقرضين أكثر مما تسمح به مواردها الذاتية. وفي يناير ١٩٢٩ كان سعر إعادة الخصم لدى بنك الاحتياطي الفيدرالي لنيويورك يبلغ ٥٪، بينما كان سعر الفائدة على قروض السماسرة يتراوح بين ٦٪ و ١٢٪ فقط زيادة جذرية (في سعر إعادة الخصم - المترجم)؛ يمكن أن تجعل من غير المريح لأي بنك أن يقترض من الاحتياطي الفيدرالي من أجل أن يعيد إقراض ما يحصل

عليه - بشكل مباشر أو غير مباشر - في سوق الأوراق المالية. وبغض النظر عن النفور العام من الأفعال الجذرية، فإن مثل هذه الزيادة يمكن أيضاً أن تؤدي إلى رفع سعر الفائدة بالنسبة إلى رجال الأعمال العاديين، والمستهلكين، والمزارعين. وواقع الحال أن أسعار فائدة أعلى كان شيئاً مزعجاً لكل شخص فيما عدا المضارب؛ فالشخص الذي دفع فائدة متوسطها ١٠٪ كى يقتنى أسهمه فى شركة راديو خلال سنة ١٩٢٨؛ لن ينفر أو ينزعج لو وصل سعر الفائدة إلى ما يساوى ضعفى هذه النسبة، لأنه - فى العام نفسه - سيكون قد حقق ٥٠٠٪ من القيمة المقدرة لاستثماره.

فى ١٤ فبراير ١٩٢٩؛ اقترح بنك الاحتياطي الفيدرالى لنيويورك رفع سعر إعادة الخصم من ٥٪ إلى ٦٪ لكبح جماح المضاربة، ولكن مجلس إدارة البنك فى واشنطن رأى أن تلك بادرة لا معنى لها، وأنها سوف تؤدي فقط إلى زيادة سعر الفائدة بالنسبة إلى المقترضين فى مجال الأعمال. وقد نشب جدال طويل أخذ فيه الرئيس هوفر جانب مجلس إدارة البنك ضد بنك نيويورك؛ ولم تتم زيادة سعر الفائدة حتى نهاية الصيف.

كان هناك ظرف آخر أعطى لسلطات الاحتياطي الفيدرالى عذرا جديرا بالإعجاب لعدم القيام بأى فعل؛ وهو ما لوحظ سابقاً من تدفق الأموال من قبل الشركات والأفراد إلى السوق. فخلال عام ١٩٢٩ شاركت شركة ستاندرد أويل أوف نيو جيرسى فى سوق الأوراق المالية تحت الطلب بما يعادل ٦٩ مليون دولار يومياً فى المتوسط، كما بلغت مشاركة شركة إلكتريك بوند آند شير ١٠٠ مليون دولار يومياً فى المتوسط ^(١). وهناك عدد قليل من الشركات (من بينها سيتيز سيرفيس) لجأت حتى إلى بيع أوراق مالية وإقراض حصيلة البيع فى سوق الأوراق المالية ^(٢). وفى أوائل ١٩٢٩ كانت القروض الممولة من مصادر غير مصرفية مساوية تقريباً للقروض الممولة من البنوك؛ ولكنها - فيما بعد - أصبحت

(١) Stock Exchange Practices, Report of the Committee on Banking and Currency Pursuant (١) to Senate Resolution 84 9 (Washington, 1934), p. 16.

(٢) Ibid., pp. 13-14.

أكبر بكثير. وقد اعتبرت سلطات الاحتياطي الفيدرالى أنه من المسلم به أن ليست لها سلطة على هذا التمويل أيا ما بلغ حجمه.

- ٤ -

الواقع أن الاحتياطي الفيدرالى كان عاجزاً لأنه فقط أراد أن يكون كذلك، فلو أنه عقد العزم على أن يفعل شيئاً، فقد كان يستطيع، على سبيل المثال، أن يطلب من الكونجرس إعطاءه سلطة وقف المتاجرة فى الأوراق المالية بالهامش، وذلك بإعطاء مجلس الإدارة السلطة اللازمة لوضع شروط للهامش، فالهامش لم يكن منخفضاً فى سنة ١٩٢٩؛ حيث أدت بقية من حذر لأن يطالب معظم السماسرة عملاءهم بأن يسددوا نقدا ما بين ٤٥٪ و ٥٠٪ من قيمة الأسهم التى كانوا يشترونها، ومع ذلك؛ فقد كان هذا هو كل ما يتوافر من سيولة لدى العملاء. ولو زادت نسبة الهامش فى يناير ١٩٢٩ لنقل إلى ٧٥٪ أو حتى لو كان هناك اقتراح جدى بمثل هذه الخطوة؛ لأدى هذا إلى قيام الكثير من صفار المضاربين، وعدد قليل من كبارهم بالبيع. وكان الرواج سيأتى إلى نهاية مفاجئة وربما درامية. (سلطة وضعت شروطاً للشراء بالهامش أعطيت لمجلس الاحتياطي الفيدرالى بموجب قانون الاحتياطي الفيدرالى الصادر سنة ١٩٣٤؛ السنة التى تساوى فيها تقريباً خطر بقاء المضاربة مع خطر حظرها).

والواقع أن قانوناً جديداً، أو حتى التهديد بمثل هذا القانون، لم يكن مطلوباً. وفى ١٩٢٩؛ كان الاستهجان القوى للمضاربين ولقيام شخص ذى سلطة عليا بالمضاربة، وكذلك التحذير من أن السوق نشطة جداً كفيلاً بالتأكيد تقريباً لإيقاظ بعض الناس من غفوتهم. كانا كفيلاً باستعادة بعض الناس من عالم الأوهام؛ هؤلاء الذين كانوا يخططون للبقاء فى السوق أطول مدة ممكنة، ولكنهم خرجوا منها أو قاصوا من وجودهم فيها؛ فى الوقت الذى كان يجب أن يفعلوا فيه ذلك. وقد استطاع هذا الهلع أن يترجم إلى رغبة جارفة فى البيع، وبمجرد أن بدأ البيع، بدأ بعض يعبرون بقوة عن تشاؤمهم، ما أدى بسهولة إلى استمرار البيع.

الفعالية الشديدة لمثل هذه الوسيلة كانت هى المشكلة، فمن بين كل ترسانة الأسلحة التى يملكها الاحتياطي الفيدرالى، كانت الكلمات هى أكثر شئ لا يمكن

التنبؤ بنتائجه، فتأثير الكلمات كان يمكن أن يكون مفاجئاً وشديداً.. وفوق كل هذا، فإن هذه النتائج يمكن أن تعزى فى معظمها إلى مكانة الشخص - أو الأشخاص - الذى تفضوه بتلك الكلمات.. وهكذا، بدا للمسئولين الأكثر حذراً فى الاحتياطى الفيدرالى فى الجزء الأول من ١٩٢٩؛ أن الصمت - حرفياً - من ذهب.

وهكذا استمر الرواج. وفى يناير ارتفع مؤشر التاييمز للشركات الصناعية بمقدار ٣٠ نقطة، أى أكثر من الارتفاع الذى صاحب نشوة ما قبل الانتخابات فى نوفمبر. وقد ارتفعت قروض السماسرة إلى رقم مهول، ٢٦٠ مليون دولار فى خمسة أيام مختلفة. وكان من شأن أى تصرف مؤثر أن يكون كارثياً، ومع ذلك لم يكن من الممكن تجنب القيام بشئ ما. وأخيراً قرر مجلس الاحتياطى الفيدرالى أن يكتب خطاباً، وأن يصدر بياناً صحفياً، وكان هذا أقل ما يمكن فعله. وفى الثانى من فبراير وجه رسالة لبنوك الاحتياطى الفيدرالى جاء فيها:

"ليس من حق أى عضو (بنك تجارى)، أن يطالب بتسهيلات فى سعر إعادة الخصم لدى بنك الاحتياطى الفيدرالى الذى يتعامل معه عند الاقتراض منه، سواء لغرض إبرام قروض مضاربة أو لغرض الإبقاء على قروض مضاربة. إن مجلس الإدارة ليست لديه أى نية فى التدخل فى ممارسات الإقراض التى تقوم بها البنوك التجارية طالما كانت غير مرتبطة ببنوك الاحتياطى الفيدرالى، ومع ذلك فإن بنوك الاحتياطى الفيدرالى سوف تتحمل مسئولية خطيرة فى حالة توفر دليل على احتفاظ أى من البنوك التجارية بقروض بغرض المضاربة فى الأوراق المالية عن طريق حصولها على مساعدة فى صورة ائتمان من بنوك الاحتياطى الفيدرالى". (١)

فى ٧ فبراير، وفيما يمكن اعتباره مثلاً أكثر دقة على الابتذال - الذى سوف يجد القارئ الواعى رغبة لديه فى قراءته من أوله إلى آخره - يحذر مجلس الإدارة الجمهور فيما يلى:

"وعندما يجد (مجلس الإدارة) أن ظروفًا طارئة تعوق بنوك الاحتياطى الفيدرالى عن أداء وظائفها فى إدارة التسهيلات الائتمانية الخاصة بجهاز

Thomas Wilson, Fluctuations in Income and Employment, p. 147. (١)

الاحتياطي الفيدرالى بغرض استيعاب التجارة والأعمال، فإنه من واجبه أن يتخذ وأن يطلب من تلك البنوك أن تتخذ مثل هذه التدابير التى يمكن اعتبارها مناسبة ومؤثرة لمواجهة تلك الظروف، وهى التدابير التى تعنى - فى الموقف الحالى - تقييد استخدام تسهيلات الاحتياطي الفيدرالى - بشكل مباشر أو غير مباشر - فى المساعدة على نمو الائتمان الموجه للمضاربة^(١).

وفى وقت متزامن تقريباً مع هذا التحذير، أتت أخبار تفيد بأن بنك إنجلترا قام برفع سعر الفائدة من ٤,٥ ٪ إلى ٥,٥ ٪؛ فى مسعى لتخفيض تدفق الأموال إلى نيويورك. وكانت النتيجة هبوطاً حاداً فى السوق. وفى ٧ فبراير - أحد الأيام التى تجاوزت التعاملات فيها خمسة ملايين سهماً - انخفض مؤشر التايمز للشركات الصناعية بمقدار ١١ نقطة، مع انخفاض آخر فى اليوم التالى. وبعد ذلك تحسنت السوق، ولكن فى فبراير فى مجمله لم تكن هناك مكاسب ذات قيمة. وقد ردد الاقتصاديون طويلاً عبارة تصف تصرف بنك الاحتياطي الفيدرالى بأنه نوع من "الضغط المعنوى"؛ وحيث إن إنخفاض السوق كان مؤقتاً فقط، فقد كان هناك - عملياً - اتفاق تام على أن الضغط المعنوى كان فاشلاً.

تحديداً، كان هناك استنتاج عكسى يمكن استخلاصه، فمن المستحيل أن نتصور بياناً رسمياً أضعف وأكثر تردداً وأوضح هلعاً من ذلك الذى أصدره مجلس الاحتياطي الفيدرالى؛ فالإقرار بأن المجلس لن يهتم بالتدخل فى شأن القروض التى تدعم المضاربة ما دام الائتمان المقدم من الاحتياطي الفيدرالى ليس مشاركاً فيه جدير بالملاحظة. حيث من الواضح أن الاحتياطي الفيدرالى كان أقل اهتماماً بضبط المضاربة من اهتمامه بتبرئة نفسه من المسؤولية عن المضاربة التى كانت جارية؛ كما أنه من الملاحظ أن الشخص المجهول الذى صاغ البيان؛ قد وضع صياغة تشير إلى أن التنبه ليس موجهاً إلى المستوى الحالى من المضاربة، ولكن فقط إلى الزيادة المحتملة فيها.. ومع ذلك، فإنه مع حالة العصبية التى كانت سائدة آنذاك، تسببت حتى مثل تلك الكلمات الواهية إلى درجة لا تصدق فى حدوث تراجع.

(١) Ibid., pp. 147-48.

إن عصبية السوق، والسلطة المعنوية غير المشكوك فيها للرجال العصبيين بالدرجة نفسها في الاحتياطي الفيدرالى صارتا أكثر اتضاحاً في شهر مارس. فمع اقتراب الشهر الجديد أطلق السيد كولدج ملاحظته المبتهجة حول رخص الأوراق المالية وسلامة أحوال البلاد، وحقق السوق ارتفاعاً فيما تسميه الصحف "السوق الافتتاحي"؛ ثم في ٤ مارس تسلم الرئيس هوفر مقعد الرئاسة؛ حيث كان موقفه من المضاربين لا يزال غير معروف. وظلت السوق قوية على مدى الأسبوعين التاليين.

قرب نهاية الشهر، وصلت الأنباء المزعجة إلى وول ستريت. كان مجلس الاحتياطي الفيدرالى يجتمع يومياً في واشنطن، لكنه لم يصدر أى بيانات، وقد حاصر رجال الصحافة أعضاء المجلس عقب الجلسات، ولكنهم ووجهوا بما كان يعرف وقتها - كما هو معروف اليوم - بصمت الشفاه المطبقة. لم يكن هناك أى إشارة إلى ما انعقدت الجلسات بشأنه، على الرغم من أن كل شخص كان يعرف أنها كانت معنية بالسوق، واستمرت الجلسات يوماً بعد يوم، كما كانت هناك أيضاً جلسة يوم السبت غير المسبوقة.

وبسرعة؛ فاق الأمر كل الحدود. ففي يوم الاثنين ٢٥ مارس، أول يوم عمل بعد اجتماع السبت غير المألوف، كان التوتر قد وصل لدرجة غير محتملة. وعلى الرغم من - وربما بسبب - أن واشنطن كانت لا تزال صامتة، بدأ الناس يبيعون، وانخفضت أسهم الشركات المفضلة لدى المضاربين - كوميرشال سولفنت، ووايت أير، وأميريكان ريلواي إكسپريس - بعشرة أو اثنتى عشرة نقطة أو أكثر. وفقد مؤشر التاييمز للشركات الصناعية ٩,٥ نقطة في ذلك اليوم، والأهم من ذلك، أن بعض البنوك قررت - في ظل حملة الاحتياطي الفيدرالى - أن الاستقامة قد تكون أجلب للنفع من الأرباح. وبدأت هذه البنوك في تقليص حجم قروضها في سوق الأوراق المالية تحت الطلب، ووصل سعر الفائدة على قروض السماسرة إلى ١٤٪.

في اليوم التالي، الثلاثاء ٢٦ مارس، كان كل شيء أسوأ بكثير.. كان مجلس الاحتياطي الفيدرالى لا يزال محتفظاً بما أصبح الآن صمتاً مدمراً. وسرت في

السوق موجة من الخوف، وقرر مزيد من الناس البيع، وباعوا بحجم مذهل. وجرى تداول عدد مدهش من الأسهم وصل إلى ٨٢٤٦٧٤٠ سهمًا في بورصة نيويورك، وهو أعلى بكثير من أى رقم سبق تسجيله حتى تلك اللحظة. وبدأت الأسعار تنخفض في انحدار كبير؛ وفي بعض الحالات كانت خسارة عشرين وثلاثين نقطة شيئاً عادياً. وفقد مؤشر التايمز للشركات الصناعية ١٥ نقطة مرة واحدة قياساً برقم إقفال اليوم السابق. والآن رأى آلاف المضاربين - الذين كانت خبرتهم السابقة بالسوق أنها في ارتفاع دائم - الجانب المظلم من حياتهم للمرة الأولى. فقد كانت كل قائمة أسعار جديدة أقل بكثير من التي قبلها، وفوق كل هذا، كان مؤشر الأسعار غير قادر على ملاحقة كمية التعاملات غير المسبوقة، فجاء متأخراً جداً عن تغيرات السوق. ولم تكن الأحوال سيئة فقط، ولكن كان هناك شبه تأكيد من أنها تسير صوب الأسوأ، ولكن لا أحد كان يستطيع أن يستدل من المؤشر إلى أى حد أصبحت أسوأ. وقبل أن ينتهى اليوم كان الكثير من الآلاف قد تلقوا برقية حاسمة من سماسرتهم، برقية متناقضة تناقضاً صارخاً مع نعمة التشجيع الودودة الحميمة التي كانت تميز كل الاتصالات السابقة، حيث جاءت تطالبهم بزيادة نسبة الهامش فوراً.

فى الوقت نفسه استمرت البنوك فى محاولة توفير أوضاعها مع العاصفة. ويحتمل أن بعض التجار المحترفين كانوا يبيعون لأنهم توقعوا اللحظة التى لن تتوفر فيها الأموال اللازمة للاحتفاظ بالأوراق المالية على الهامش. وقد كانت تلك اللحظة قريبة - ففى صباح ٢٦ مارس؛ وصل سعر الفائدة فى سوق الأوراق المالية تحت الطلب إلى ٢٠٪ وهو أعلى سعر تصل إليه أثناء رواج ١٩٢٩.

٢٦ مارس ١٩٢٩؛ كان يمكن أن يكون النهاية، حيث كان يمكن أن تظل الأموال شحيحة، وكان يمكن أن تستمر السلطات حازمة فى نيتها فى الإبقاء عليها شحيحة. وهكذا كان يمكن أن يستمر الهلع، وكان يمكن لكل انخفاض فى السعر أن يدفع مجموعة جديدة من المضاربين للبيع، وهكذا يدفع بالأسعار للمزيد من الانخفاض، ولكن هذا لم يحدث. وإذا كان هناك من يمكن أن ينسب له الفضل فى هذا، فالفضل ينسب إلى تشارلز إى ميتشيل، فقد كانت سلطات الاحتياطى

الفيدرالى مترددة، ولكن ميتشيل لم يكن كذلك؛ لقد كان فارس الرواج. وفوق ذلك، فإن هيئته باعتباره رئيساً لواحد من البنوك التجارية الأكبر والأكثر نفوذاً، وسمعته باعتباره مستثمراً مصرفياً مبادراً وبالغ النجاح، وموقعه باعتباره مديراً لبنك الاحتياطى الفيدرالى لنيويورك، كل هذا كان يعنى أنه كان يتحدث عن سلطة تساوى - على الأقل - سلطة أى مسئول فى واشنطن. فخلال اليوم، حيث كانت النقود تزداد شحاً، وسعر الفائدة يتصاعد، والسوق تسقط، قرر ميتشيل أخذ زمام المبادرة، حيث صرح لوسائل الإعلام قائلاً: "نحن نشعر بأن علينا التزاماً يعتبر أساسياً - بالنسبة إلى أى تحذير أو أى شىء آخر يصدر عن بنك احتياطى فيدرالى - لتفادى أى أزمة خطيرة فى سوق المال". كما قال إن بنك ناشيونال سيتى سوف يقرض المال عند الضرورة كي يمنع عمليات التسيل، كما سيقوم أيضاً - وقد قام بالفعل - بالاقتراض من بنك الاحتياطى الفيدرالى لنيويورك مقدماً على ما حذر - مجلس الاحتياطى الفيدرالى من الإقدام عليه، ومتخفياً خلف قليل من التعبيرات المالية المبتذلة، أصدر ميتشيل بياناً رسمياً مناظراً لبيان الحاكم هاجو الشهير: "أنا القانون فى جيرسى سيتى".

كان لكلمات ميتشيل وقع السحر. وفى نهاية تعاملات يوم ٢٦ مارس؛ انخفض سعر الفائدة، وانتعشت السوق. احتفظ بنك الاحتياطى الفيدرالى بصمته، ولكن صمته الآن أصبح مطمئناً، فقد كان يعنى أنه أقر بسيطرة ميتشيل. وفى اليوم التالى أضفى بنك ناشيونال سيتى على التزامه صفة المشروعية، حيث أعلن أنه سوف يضمن سعر فائدة معقولاً بضخ ٢٥ مليون دولار فى سوق الأوراق المالية تحت الطلب؛ خمسة ملايين عندما يصل سعر الفائدة إلى ١٦٪؛ وخمسة ملايين إضافية كلما انخفض السعر بنسبة ١٪، فى رسالته الشهرية التى جاءت بعد عدة أيام، عزز البنك من موقفه، وقدم - عَرَضاً - تقريراً جديراً بالإعجاب عن الورطة التى كان يواجهها بنك الاحتياطى الفيدرالى (كان ناشيونال سيتى بنكاً مدرجاً لما وقع عليه اختياره من أحد الشرين اللذين فرضتهما الورطة)، وكانت الرسالة تقول: "إن بنك ناشيونال سيتى يدرك تماماً أخطار المضاربة المفرطة (هكذا بالنص)، ويتفهم رغبة سلطات الاحتياطى الفيدرالى فى الحد من التوسع

المفرط فى الائتمان لهذا الغرض. وفى الوقت نفسه، فإن البنك، وقطاع الأعمال عامة، ويفترض أن بنوك الاحتياطى الفيدرالى كذلك... ترغب فى تجنب انهيار عام فى أسواق الأوراق المالية، حيث إن مثل هذا الانهيار يمكن أن تكون له آثار كارثية على قطاع الأعمال^(١).

- ٦ -

لم ينج ميتشيل من الانتقاد، وتردد حديث عن تحقيقات لمجلس الشيوخ. السيناتور كارتر جلاس - الذى بصفته راعى قانون الاحتياطى الفيدرالى كان له حق أكيد فى الرقابة على عملياته - قال: "إنه يعترف بالتزامه تجاه سوق الأوراق المالية المسعورة بما يفوق التزامه تجاه قسمه باعتباره مديراً لبنك الاحتياطى الفيدرالى لنيويورك... إن البنك يجب أن يطالبه بالاستقالة فوراً"، ولكن مجلس الاحتياطى الفيدرالى لم يحلم يوماً باتخاذ مثل هذا الإجراء، مما يمكن أن يؤخذ كمؤشر آخر على أنه كان يمارس ضغطه المعنوى بلمسات حانية جداً.

لقد تعرض بنك الاحتياطى الفيدرالى للانتقاد ربما أكثر من ميتشيل - على الرغم من أنه لم يكن يستطيع - بالكاد - أن يفعل أكثر مما فعل. وقد قال آرثر بريسبين^(٥) Arthur Brisbane بحكمة: "لو كان شراء وبيع الأوراق المالية خطأ، فعلى الحكومة أن تغلق البورصة، ولو لم يكن خطأ، فيجب على بنك الاحتياطى الفيدرالى أن يتولى مسؤولياته". وفى المقال الرئيسى لجريدة بارونز "Barron's" كان السيد سيث أكسلى "Seth Axley" أقل عدالة: "بالنسبة إلى مطالبة مجلس الاحتياطى الفيدرالى بأن ينكر على المستثمرين استخدام وسائل التعامل الواعى مع الاقتصادات التى أثبتت الآن وجودها، ومع المهارات التى الآن اكتسبت، ومع الابتكارات التى لا تصدق، يبدو أن هذه المطالبة تسوغ الشك فيما إذا كانت تعبر عن العصر تعبيراً صحيحاً"^(٢). وحيث إن التصرف الرئيسى الذى اتخذه

Quoted by Mitchell In Stock Exchange Practices, Hearings, Subcommittee, Senate Committee on Banking and Currency - The Pecora Committee, February-March 1933, pt. 6, p. 1817.

(٥) واحد من أشهر الصحفيين الأمريكيين فى عهده (١٨٦٤ - ١٩٣٦) المترجم.

(٢) Baron's, May 6, 1929.

الاحتياطي الفيدرالى حيال المستثمرين كان عقد الاجتماعات والاحتفاظ بالصمت، فقد كان هذا - دون شك - شيئاً هيناً جداً؛ فإنه - على الرغم من ذلك - كان شيئاً طيباً وإيجابياً بالمقارنة مع كلمات باحث شاب من جامعة برينستون برز فى ذلك الوقت باعتباره مدافعاً رئيسياً عن وول ستريت.

فى وقت لاحق من العام، عندما ظهر كتاب "وول ستريت وواشنطن" لجوزيف ستاج لورنس حاملاً إجازة منشورات جامعة برينستون المميزة، وصفته صحيفة مالية رئيسية؛ بأنه كان "نسمة من الهواء المنعش". ويقول السيد لورنس فى كتابه المرموق عن القلق الرسمى للاحتياطي الفيدرالى بشأن وول ستريت إنه كان مدفوعاً بانحياز متشدد... "انحياز قائم على تضارب فى المصالح وتنافر أخلاقى وثقافى بين المجتمعات الغنية المثقفة المحافظة الواقعة على ساحل البحر (بما فيها وول ستريت) وبين المجتمعات المبتلاة بالفقر، الجاهلة، الراديكالية الداخلية"^(١). كما كانت لدى السيد لورنس المثقف المحافظ كلمات قاسية أيضاً ضد المدافعين عن الاحتياطي الفيدرالى فى مجلس الشيوخ، بمن فى ذلك - وبألغرابة - السيناتور كارتر جلاس من فيرجينيا الواقعة على الشاطئ؛ "يبدو من غير المصدق فى سنة النعمة ١٩٢٩؛ أن يكون هناك تجمع من الشخصيات العامة التى يفترض أنها مثقفة يسمح للأهواء المتعصبة والجهل الريفى بأن تجد تعبيراً عن نفسها فى الكراهية غير المحدودة. ولكن هذا هو ما حدث بالتحديد... عندما وقف سيناتور من فرجينيا فى قاعة السخافات التى يشار إليها أحياناً بأنها مجلس للمداوولات، جاءت ملاحظاته غير منطقية وغير متروية. تعصب أعمى صارخ، وإقليمية متمردة تكاثفا معاً ليوجها الإدانة لمجتمع برى"^(٢)، وربما اندهش بعض رجال وول ستريت المتمرسين عندما أدركوا أن تعبير "المجتمع البرى" يشير إليهم.

- ٧ -

بعد هزيمته أمام ميتشيل فى مارس، تنحى الاحتياطي الفيدرالى عن الساحة؛

(١) Wall Street and Washington, (Princeton; Princeton University Press, 1929), p. 3.

(٢) Ibid., p. v.

حيث استمر يراوده قلق خفيف بشأن ما يجب عليه فعله. وفى أبريل قام وليم كرابو ديورانت^(٥) William Crapo Durant بزيارة ليلية سرية للبيت الأبيض؛ لكى يحذر الرئيس هوفر من أنه إن لم يتم إقصاء مجلس الاحتياطي الفيدرالى، فإن هذا يمكن أن يعجل بانهيار رهيب. كان الرئيس متحفظاً، وطلب من ديورانت أن يتخلص من بعض أوراقه المالية قبل مغادرته البلاد فى رحلة إلى أوروبا^(١). وفى يونيو قال السيد لورنس - من برينستون - إن المجلس كان "لا يزال يبذل أقصى جهده كى يسبب أضراراً مؤذية لا مثيل لها لماكينه الازدهار". وقد حذر المجلس من أنه قد "أثار العداوة ضد مجتمع أمين وذكى يعمل فى خدمة الجمهور"^(٢) (كان هذا أيضاً هو وول ستريت)، ولكن المجلس - فى الواقع - كان قد قرر بإصرار مغادرة هذا المجتمع الأمين الذكى الخادم للجمهور لاجئاً إلى وسائله الخاصة؛ فقد أدرك - كما قال جفرنر يانج فيما بعد - أنه "بينما قد تخف حدة الهستيريا بين وقت وآخر"، فعلى المجلس أن يظل فى مساره، ولا تستطيع بنوك الاحتياطي الفيدرالى إلا أن تقوى نفسها فى مواجهة "الانهيار المحتوم"،^(٣) وبمزيد من الدقة، فإن سلطات الاحتياطي الفيدرالى قررت ألا تكون مسئولة عن الانهيار.

فى أغسطس، وافق مجلس الإدارة - أخيراً - على رفع سعر إعادة الخصم إلى ٦٪، وقد هبط السوق لمدة يوم واحد، حيث إن أى نتائج كان يمكن تصورها لهذا الإجراء كان يبطل مفعولها بواسطة تيسير متزامن فى إجراءات وشروط الشراء.

(٥) وليم كرابو ديورانت (١٨٦١ - ١٩٤٧) واحد من رواد صناعة السيارات فى امريكا. مؤسس شركة جنرال موتورز. (المترجم) .

(١) وصف Earl Sparling تفاصيل الزيارة فى: Mystery Men of Wall Street (New York: Greenberg 1930 3-8.

والتفاصيل محل شك على الرغم من أن الحقائق التى أوردها المؤلف بمعزل عن تاويله لها صحيحة فى حالات كثيرة.

(٢) Barons' June 10, 1929.

(٣) Seymour E Harris, Twenty Years of Federal Reserve Policy (Cambridge: Harvard University Press, 1933), p.547.

أكثر من الرجوع إلى هذا المصدر البالغ المحافظة، ولكن شديد العناية حول سياسية الاحتياطي الفيدرالى.

والواقع أنه اعتباراً من نهاية مارس، لم يكن لدى السوق ما تخشاه من السلطات. وقد سأل الرئيس هوفر هنرى إم روبنسون - وهو مصرفى من لوس أنجلوس - أن يتوجه باعتباره مبعوثاً منه إلى نيويورك، ويتحدث مع المصرفيين هناك حول الرواج. ووفقاً لما قاله الرئيس هوفر فإنهم طمأنوا روبنسون إلى أن كل شيء على ما يرام ^(١). وقد استدعى أيضاً إلى البيت الأبيض ريتشارد ويتى نائب رئيس البورصة، وأخبر بأنه يجب فعل شيء ما بشأن المضاربة، ولكن لم يتم عمل شيء. وكان الرئيس هوفر قادراً على أن يجد بعض العزاء فى التفكير بأن المسؤولية الأولى فى تنظيم شئون البورصة تقع على عاتق حاكم نيويورك فرانكلين دى روزفلت ^(٢)، وكان روزفلت أيضاً يتبع سياسة عدم التدخل فى شئون الاقتصاد، على الأقل فى شئون البورصة.

شركة استشارات استثمارية فى بوسطن تسمى مكنيل فايننشال سيرفيس، تصف نفسها بأنها أرستقراطية المستثمرين الناجحين أصدرت دليلاً للاستثمار تصدره عنوان يقول: "لقد كسب ٧٠,٠٠٠ دولار بعد قراءة إرشادات شركتنا". وعلى الرغم من أنه - بلا شك - فعل هذا، فريما فعله من دون قراءة الدليل، أو من دون أن يكون يعرف القراءة. والآن بعد أن أصبحت السوق بمنجاة من كل تهديد برد فعل أو عقاب حكومى، أبحرت بعيداً إلى المياه العميقة. وبعد الأول من يونيو، بوجه خاص، اختفى كل تردد. ولم يحدث قبل الآن أبداً، أن أصبح ناس أثرياء بهذه الكثرة، وبهذا الشكل المدهش، وبدون مجهود لهذا الحد، وبمثل هذه السرعة. وربما كان السادة، هوفر وميلون وبنك الاحتياطى الفيدرالى على حق فى عدم فعل أى شيء. وربما كان الأمر يستأهل أن تكون فقيراً لزمناً طويلاً من أجل أن تكون غنياً لوقت قصير جداً.

Hoover, memoirs, p. 17(١)

(٢) المرجع نفسه. السيد هوفر - الذى لم يكن يعنى بمثل هذه التفاصيل بما فى ذلك التواريخ - وصف ويتى باعتباره رئيساً للبورصة؛ بينما هو أصبح رئيساً لها فى تاريخ لاحق.

الفصل الثالث

نثق فى جولدمان ساكس

المشكلات العويصة فى سياسة الاحتياطى الفيدرالى؛ لم تكن هى الأسئلة الوحيدة التى تقض مضاجع مفكرى وول ستريت فى الأشهر الستة الأولى من ١٩٢٩؛ فقد هناك أيضاً القلق من نفاذ الأسهم العادية من البلاد، حيث كان أحد أسباب الارتفاع الشديد فى أسعار هذه الأسهم - هكذا قالوا - إنه لم يكن هناك ما يكفى منها، وتبعاً لذلك فقد اكتسبت قيمة الشيء النادر. كما قيل إن بعض إصدارات هذه الأسهم أصبحت مرغوباً فيها؛ لدرجة أنها يمكن أن تلتقط من السوق ولا تظهر مرة أخرى بأى سعر.

فى الواقع، لو كانت الأسهم العادية قد أصبحت نادرة لدرجة استثنائية لاستجاب العرض للطلب وفقاً للعلاقة القديمة جداً بين الاثنين على مدى التاريخ. ومن غير شك، فإن أكثر الملامح لفتاً للنظر فى ذلك العصر المالى الذى انتهى فى خريف ١٩٢٩؛ كان رغبة الناس فى شراء الأوراق المالية وتأثير ذلك فى قيمها، ولكن الزيادة فى عدد الأوراق المالية التى كانت متاحة للشراء؛ كان تقريباً لا يقل لفتاً للنظر، ولكن البراعة والحمية اللتين وهبتا للشركات فى اختيار أى من الأوراق المالية يجب أن يباع كانتا شيئاً ملحوظاً مثل أى شيء آخر.

لم تكن كل الزيادة فى حجم الأوراق المالية فى ١٩٢٨ و ١٩٢٩؛ من أجل الغرض الوحيد المتمثل فى استيعاب المضاربين، فقد كان هذا وقتاً طيباً لزيادة الأموال كغرض عام لأى شركة. وقد كان المستثمرون يقدمون رأس المال بحماسة وبعيداً عن الأسئلة المضجرة، شركة سى بورى لاين كانت مفضلة لدى المضاربين فى تلك الفترة. وكان أحد أسباب ذلك أن الكثيرين رءوا فى سهمها إمكانات للنمو نظراً لكونها شركة طيران. وفى تلك السنوات من الازدهار كان من الطبيعى بالنسبة إلى رجال يتوقعون مزيداً من الازدهار يمتد ويمتد وإلى الأبد أن يروا أهمية أن يكون لدى المرء رأسمال عامل. فلم يكن هذا وقتاً مناسباً؛ لأن تكون ضئيلاً بالمال. كما كان ذلك أيضاً زمناً للاندماجات. وكل اندماج جديد يطلب حتماً رأس مالا جديداً وإصداراً جديداً لأوراق مالية يدفع لها مقابل، ولا بد هنا من كلمة حول حركة الاندماجات فى عشرينيات القرن العشرين.

لم تكن هذه أول حركة اندماجات، ولكنها كانت - من نواح عدة - الأولى من نوعها. فقبل بداية القرن مباشرة وبعدها مباشرة، وفى صناعة إثر صناعة، كانت شركات صغيرة تندمج مكونة شركات كبيرة، فشركة ذى يونيتى ستيتس ستيل كوربوريشن، وشركة إنترناشونال هارفستر، وإنترناشونال نيكل، وأميريكان توباكو، وعدد كبير آخر من الشركات الكبرى يعود تاريخه لتلك الفترة. فى تلك الحالات كانت الشركات التى تندمج تنتج المنتجات نفسها أو منتجات متعلقة بها للسوق الوطنية نفسها. وكان الدافع الأول فى هذه الحالات - فيما عدا قلة نادرة - هو تقليل أو الحد من أو تنظيم المنافسة؛ وكل من العمالقة الجدد هيمن على صناعة معينة، ومن تلك اللحظة فصاعداً مارس سيطرة محسوبة على الأسعار والإنتاج، وربما على الاستثمار ومعدل الابتكار التكنولوجى.

قليل من مثل هذه الاندماجات حدث فى العشرينيات، ولكن غالبية الاندماجات فى تلك الفترة لم تجمع بين مشروعات متنافسة فيما بينها، ولكن بين مشروعات تقوم بالعمل نفسه فى مجتمعات مختلفة، فشركات الكهرباء والغاز والأوتوبيسات والمياه والألبان المحلية كانت تتحد مع مثيلاتها فى أنظمة إقليمية أو وطنية كبرى، ولم يكن الهدف هو الحد من المنافسة، ولكن الحد من عدم الكفاءة،

ومن التخطيط والسذاجة، وحتى من عدم ضمان نزاهة الإدارات المحلية. ففي العشرينيات كان يستطيع رجل من مدينة نيويورك أو شيكاغو التباهى - فى فجاجة - بحقيقة أنه عبقرى مالى؛ بينما الملاك والمديرون المحليون ليسوا كذلك. ولم يكن هناك حتى تواضع زائف يمنع من الاستشهاد بمزايا إزاحة القرويين الأجلاف بواسطة إدارة مركزية ذات ثقافة رفيعة راقية.

فى حالة المرافق كانت أداة إنجاز تلك المركزية فى الإدارة والسيطرة هى الشركة القابضة؛ حيث كانت هذه الشركات القابضة تشتري حق السيطرة على الشركات التابعة التى كانت أحياناً تشتري حق السيطرة على شركات قابضة أخرى، كانت بدورها - بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال شركات قابض أخرى - تسيطر على الشركات التابعة، وفى كل مكان اتجهت شركات الكهرباء والغاز والمياه إلى حيازة نظام للشركات التابعة.

شركات بيع الأطعمة بالتجزئة، ومحلات الخردوات، والمحلات متعددة الأقسام، ودور العرض السينمائى، شهدت تطورات مشابهة، وإن كانت غير متطابقة. هنا أيضاً انسحبت الملكية المحلية أمام الإدارة والسيطرة المركزيتين؛ ومع ذلك فإن أداة التحول إلى المركزية هنا لم تكن الشركة القابضة، ولكن شركات السلاسل، وهذه الشركات فى العادة، بدلاً من أن تستخدم المشروعات القائمة، أسست منافذ جديدة.

الشركات القابضة أصدرت أوراقاً مالية من أجل شراء ممتلكات تابعة. وشركات السلاسل أصدرت أوراقاً مالية كى تبني محلات ودور عرض جديدة؛ وبينما كانت شركات المرافق المزدهرة فى السنوات السابقة على ١٩٢٩ (شركات أسوسياند جاز أند إليكتريك، وكومونويلث أند ساوترن، وإنسول) تستلقت انتباهاً كبيراً، فإن شركات السلاسل كانت على الأقل رمزاً على العصر. شركة مونتجمرى وارد كانت من أكثر الشركات المفضلة للمضاربة فى تلك الفترة، وقد اكتسبت علو مكانتها من حقيقة كونها سلسلة، وهكذا كان لها مستقبل مشرق بصفة خاصة. الشيء نفسه بالنسبة إلى شركة وولورث، وأميريكان ستورز، وغيرهما. وقد كان الاهتمام بنظام السلاسل والفروع عظيماً فى مجال البنوك

أيضاً. وكان هناك شعور عام بأن قوانين الولايات والقوانين الفيدرالية قد أصبحت عوائق عفا عليها الزمن بالنسبة إلى الترابط الذى يجب أن يوحد بنوك الأحياء الصغيرة والمدن الصغيرة فى أنظمة مصرفية إقليمية ووطنية محدودة. وكان للعديد من الأنظمة التى تستهدف التغلب على الغاية من القوانين (ولا سيما الشركات القابضة المصرفية) اعتبارها الكبير.

وحتماً قام أنصار هذا الاتجاه بتكوين بعض الشركات الجديدة لمجرد استثمار اهتمام الجمهور بالصناعات ذات الأفاق الجديدة العريضة وطرح أوراق مالية للبيع. وكان من المعتقد أن شركات الراديو والطيران - بصفة خاصة - تحمل توقعات مرضية، وتم تكوين شركات لم يكن لديها أى شىء سوى التوقعات. وفى سبتمبر ١٩٢٩ لفت إعلان فى التايمز الانتباه إلى وشوك وصول التليفزيون، وقال فى علم ملحوظ بالغيب إن "الإمكانات التجارية لهذا الفن الجديد تتحدى الخيال". وقد توقع الإعلان - على نحو أقل تأكيداً - أن الأجهزة سوف تكون قيد الاستعمال فى البيوت فى ذاك الخريف. ومع ذلك، فى الغالب الأعم، كان رواج السوق فى ١٩٢٩؛ مبنياً - بشكل مباشر أو غير مباشر - على صناعات ومشروعات قائمة بالفعل. وقد لعبت قضايا جديدة ووهمية متعلقة بأغراض جديدة ووهمية (من المعتقد أن تكون ذات أهمية كبيرة فى أوقات المضاربة) دوراً صغيراً نسبياً؛ حيث بيعت كميات قليلة من الأسهم تخص شركات قامت "من أجل تحلية مياه البحر، أو من أجل بناء مستشفيات للأطفال اللقطاء، أو من أجل بناء سفن مضادة للقرصنة، أو استيراد عدد من البغال الإسبانية الكبيرة"، أو حتى "من أجل اختراع عجلة تعمل دون وقود"، وهذه مجرد نماذج من قائمة تمثل حوافز ذلك الوقت المعاصر لفقاعة بحر الجنوب (١).

- ٢ -

أكثر ما يمكن ملاحظته فى معمار المضاربة فى أواخر العشرينيات؛ هى أن تكتلات أو شركات الاستثمار كانت - أكثر من غيرها - هى الأداة التى تشبع طلب

(١). Walter Bagehot, Lombard Street, pp. 130, 131.

الجمهور على الأسهم العادية. والتكتلات الاستثمارية "Trust" لم تساعد في قيام مشروعات جديدة أو على توسع المشروعات القديمة؛ إنها فقط رتبت مساعدة الناس على تملك أسهم في شركات قديمة من خلال وساطة شركات جديدة. فحتى في الولايات المتحدة، في العشرينيات، كانت هناك حدود على كمية رأس المال الحقيقي الذي تستطيع الشركات القائمة استخدامه، أو على الشركات التي يمكن أن تستحدث لتوظيفه. لقد كانت ميزة التكتلات الاستثمارية هي أنها أحدثت انفصلاً كاملاً تقريباً بين الأوراق المالية المتداولة للشركة وبين حجم أصول الشركة الفعلية. حيث يمكن أن يبلغ حجم الأولى ضعف أو ثلاثة أضعاف، أو أى أضعاف حجم الثانية.. وهكذا فإن حجم الاكتتاب في الأعمال وكمية الأوراق المالية المتاحة للتعامل في البورصة توسعت جميعها بشكل كبير، وكذلك زاد حجم الأوراق المالية المتاحة للتملك، حيث باعت تكتلات الاستثمار من الأوراق المالية أكثر مما اشترت، وذهب الفرق إلى سوق الأوراق المالية تحت الطلب، أو إلى سوق العقارات، أو إلى جيوب المروجين. ومن الصعب تصور اختراع أكثر ملاءمة للعصر أو أفضل تصميمًا للحد من القلق بشأن النقص الممكن في الأسهم العادية.

فكرة تكتلات الاستثمار فكرة قديمة، على الرغم من أنها - ويا للغرابة - أتت للولايات المتحدة متأخرة. فمنذ ثمانينيات القرن التاسع عشر في إنجلترا واسكتلندا قام المستثمرون - الأصغر حجماً في الغالب - بتجميع مواردهم عن طريق شراء أسهم في شركة استثمار؛ حيث قامت الأخيرة - بدورها - باستثمار أموالها بشكل آمن جداً، فمثل هذا التكتل الاستثماري احتفظ بأسهم فيما يتراوح بين خمسمئة وألف شركة تابعة. وكنتيجة لهذا، كان الشخص الذي يمتلك جنيهاً قليلة - أو حتى مئات قليلة - قادراً على توزيع مخاطره على نطاق أوسع كثيراً مما لو كان قد استثمرها بنفسه. كما كان من المتوقع أن تكون لدى التكتلات معرفة أفضل بكثير من أرملة في بريستول أو طبيب في جلاسجو عن الشركات والاحتمالات في أماكن مثل سنغافورة ومدراس وكيب تاون والأرجنتين، التي تجد رؤوس الأموال البريطانية طريقها إليها بانتظام. والمخاطرة الأقل والمعلومات

الأفضل وازنت جيداً المكافآت المعتدلة التي كان يحصل عليها هؤلاء الذين يديرون المشروع. وعلى الرغم من بعض سوء الحظ المبكر، فإن التكتلات الاستثمارية سرعان ما أصبحت جزءاً أساسياً من المشهد البريطاني.

قبل ١٩٢١ في الولايات المتحدة؛ وجد عدد قليل فقط من الشركات التي قامت من أجل الاستثمار في الأوراق المالية لشركات أخرى باعتبارها غرضاً أساسياً^(١). وفي تلك السنة، بدأ الاستثمار في التكتلات الاستثمارية يتطور، جزئياً كنتيجة لعدد من المقالات في الصحف والمجلات تصف التكتلات الإنجليزية والاسكتلندية. ولم تكن الولايات المتحدة - كما أشرنا من قبل - مطلعة على مستجدات العصر، حيث تفوقت علينا دول أخرى في ابتكار صيغة الوكالة، وعلى الرغم من ذلك سرعان ما بدأنا في اللحاق بهم، وتم تأسيس المزيد من التكتلات. وفي بداية ١٩٢٩ كان يوجد ما يقدر بـ ١٦٠ تكتلاً، وتم تكوين ١٤٠ أخرى أثناء ذلك العام^(٢).

كان مديرو التكتلات البريطانية يتمتعون عادة بأكبر قدر من حرية التصرف في استثمار رعوس الأموال الموضوعة تحت تصرفهم، ولكن في بداية الأمر كان المنظمون الأمريكيون قلقين من المطالبة بمنحهم مثل هذه الثقة. والقليل من التكتلات المبكرة كانت تكتلات، حيث كان المستثمر يشتري سهماً في تشكيلة من الأوراق المالية التي كانت قد أودعت لدى أحد التكتلات. وفي أقل القليل من الحالات كان المنظمون يلزمون أنفسهم بمجموعة صارمة من القواعد بشأن أنواع الأوراق المالية التي يشترونها وطريقة الاحتفاظ بها وإدارتها؛ ولكن مع تقدم العشرينيات اختفت تلك الفروق الدقيقة، وأصبح التكتل الاستثماري في الواقع شركة استثمار مساهمة^(٣) تباع أسهمها للجمهور. وقد كانت في بعض الأحيان

(١) أحد التقديرات يقدر العدد بنحو أربعين. Cf. Investment Trusts and Investment Companies, pt. I, Report of the Securities and Exchange Commission Washington, 1939, p. 36.

(٢) Ibid., p. 36.

(٣) سوف يكون من الأكثر دقة أن نصفها بأنها شركة استثمار أو شركة استثمار مساهمة، ومع ذلك فقد حافظت هنا على التسمية الأكثر تحديداً، والأكثر استخداماً عادة.

أسهما عادية. وفى معظم الأحيان أسهما عادية وممتازة وسندات مالية وعقارية. وكانت الحصيلة تستثمر على النحو الذى تراه الإدارة مناسباً. وأى اتجاه محتمل لدى حامل الأسهم العادية للتدخل فى الإدارة؛ كان يمنع بأن تباع له أسهم غير متمتعة بحق التصويت، أو الحصول منه على توكيل للإدارة بحقوقه فى التصويت.

لزمّن طويل؛ نظرت بورصة نيويورك بشك إلى تكتلات الاستثمار. وفى ١٩٢٩ فقط، سمح بإدراجها فى البورصة؛ وحتى فى ذلك الوقت طلبت لجنة إدراج الأسهم من تكتلات الاستثمار تسجيل لدى البورصة القيمة الدفترية والسوقية للأسهم التى تحملها فى وقت الإدراج؛ ثم تقدم بعد ذلك قائمة سنوية بملكاتها من الأوراق المالية. هذا الشرط أدى إلى قصر إدراج تكتلات الاستثمار فى البورصة على كارب أو بوسطن أو شيكاغو أو غيرها من بورصات شركات الطرق. وبغض النظر عن ملاءمته، فإن هذا الرفض للكشف عن الممتلكات نظر إليه باعتباره إجراءً وقائياً معقولاً؛ فقد كانت الثقة فى تقييم مديري التكتلات للاستثمارات عالية جداً، وكما قيل فإن الكشف عن الأسهم التى كانوا يختارونها كان يمكن أن يفجر رواجاً خطيراً فى تلك الأسهم. وقد ذكر المؤرخون - بشىء من العجب - واحدة من عمليات التأسيس فى ذلك الوقت المتزامن مع فقاعة بحر الجنوب، لقد قامت على الترويج لسهم مع التعهد بالكشف عن الأوراق المالية المملوكة للشركة التى طرحته فى الوقت المناسب. وقد قيل إن السهم محل هذا التعهد بيع على نطاق واسع جداً. إن عمليات تأسيس تكتلات الاستثمار كانت أكثر إثارة للدهشة لدرجة غير مسبوقة، فقد كانت تقوم على تعهدات لم يكشف عن طبيعتها نهائياً، وبيعت أسهما على نطاق واسع أيضاً.

- ٣ -

خلال سنة ١٩٢٨، تم تأسيس ما يقدر بـ ١٨٦ تكتلاً استثمارياً، ومع الأشهر الأولى من ١٩٢٩؛ كان يتم تأسيس تكتل جديد بمعدل كل يوم عمل تقريباً، فقد ظهر للوجود ما مجموعه ٢٦٥ تكتلاً جديداً على مدى العام. فى سنة ١٩٢٧، باعت التكتلات للجُمهور ما قيمته ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار تقريباً من الأسهم. وفى

سنة ١٩٢٩ سوقت ما قيمته نحو ثلاثة مليارات دولار؛ وقد كان هذا يمثل - على الأقل - ثلث رأس المال الجديد المصدر خلال تلك السنة. ومع خريف ١٩٢٩؛ بلغ إجمالي أصول تكتلات الاستثمار ما يقدر بأكثر من ثمانية مليارات دولار؛ ومعنى هذا أنها تضاعفت إحدى عشرة مرة منذ بداية ١٩٢٧^(١)

إن التوالد الذاتي للتكتل الاستثماري يختلف عن مقابله في الشركات العادية. فهو في كل الحالات، تقريباً، كان يتم تحت رعاية شركة أخرى. وبحلول سنة ١٩٢٩ كان عدد مدهش من أنواع مختلفة من الشركات يشكل تكتلات جديدة: بيوت استثمار مصرفي، بنوك تجارية، شركات سمسرة، تجار أوراق مالية. والأهم من كل هذا، أن تكتلات استثمار أخرى كانت مشغولة بإنشاء تكتلات جديدة. وقد تراوح رعاة التكتلات الجديدة في المنزلة من بيت مورجان، راعي يونيتيد آند أليغاري كوربوريشنز نزولاً إلى من يسمى تشونسي دي باركر، رئيس شركة استثمار مصرفي محفوفة بالمخاطر المالية في بوسطن، الذي أسس ثلاثة تكتلات استثمارية خلال سنة ١٩٢٩؛ باعت ما قيمته ٢٥٠٠٠٠٠٠ دولار من الأسهم إلى جمهور متعطش؛ ثم بعد ذلك فقد تشونسي معظم حصيلة البيع وانحدر إلى الإفلاس^(٢).

لم تكن رعاية التكتلات الاستثمارية تمر من دون مكافأة؛ فالشركة الراعية كانت - في المعتاد - تنفذ عقد إدارة مع الشركات التي ترعاها. وفي الظروف العادية، كانت الشركة الراعية تشغل التكتل الاستثماري، وتستثمر أمواله، وتلقى أجراً في شكل نسبة مئوية من رأس المال أو من الأرباح. وفي حالة كون الراعي شركة من شركات سوق الأوراق المالية كانت - أيضاً - تتلقى عمولات على مشتريات ومبيعات التكتل الذي ترعاه من الأوراق المالية. وقد كان الكثير من الرعاية متخذاً شكل شركات استثمار مصرفي، مما عني - عملياً - أن الشركة كانت "تنتج" الأوراق المالية التي تتولى طرحها في السوق، وقد كان هذا أسلوباً ممتازاً لتأمين مدد كافية من الأعمال.

(١) كل التقديرات في هذه الفقرة مأخوذة من Investment Trust and Investment Companies, Pt. III, Chap. 2 p. 37 ff.

(٢) Ibid., Pt. III, Chap. 2, p. 37 ff.

الحماس الذى كان يسعى به الجمهور للحصول على أسهم التكتلات الاستثمارية؛ جلب أكبر المزايا للجميع. ففى كل الأحوال - تقريباً - كان الناس مستعدين لدفع علاوة إصدار كبيرة فوق السعر الأساسى. فالشركة الراعية (أو الذين يروجون لها) كانت تتسلم حصة من الأسهم أو من الضمانات التى تخول لها الحصول على أسهم بالسعر الأساسى. وكان الرعاة قادرين على بيع هذه الحصة من الأسهم فى الحال مع تحقيق أرباح.. وهكذا قامت إحدى شركات السيد تشونسى دى باركر، الذى سبق ذكره للتو، وهى الشركة التى كانت تحمل الاسم المجلجلى سى بورد يوتيليتيز أند شيرز كوربوريشن، قامت بإصدار ١٦٠٠٠٠٠ سهم من الأسهم العادية بسعر ٢٢، ١٠ دولار للسهم، ولكن هذا لم يكن السعر الذى بيع به السهم للجمهور؛ ولكنه كان السعر الذى صدر به السهم لصالح السيد باركر وزملائه، والذين قاموا بإعادة بيعه للجمهور بسعر يتراوح بين ١١ و ١٨، ٢٥ دولار للسهم، وتقاسموا الأرباح مع التجار الذين سوقوا الأسهم^(١).

مثل هذه العمليات لم تكن مقتصرة على سيئى السمعة من الصغار والمغمورين. حتى إن جى بى مورجان وشركاه الذين قاموا (مع بونبرايت وشركاه) برعاية يونيتد كوربوريشن فى يناير ١٩٢٩، عرضوا باقية مكونة من سهم عادى وسهم ممتاز على قائمة من الأصدقاء (بمن فيهم شركاء مورجان) مقابل ٧٥ دولاراً للسهم. وكانت هذه صفقة رابحة، فعندما بدأ التعامل على الباقية بعد أسبوع كان السعر الافتتاحى لها ٩٢ دولاراً. ووصل إلى ٩٤ دولاراً فى التعامل المباشر خارج البورصة.. وبعد أربعة أيام وصل إلى ٩٩ دولاراً.. وهكذا بيعت بسرعة ومقابل هذه الأسعار الأسهم التى سبق شراؤها مقابل ٧٥ دولاراً^(٢)، مثل هذه الحوافز المجزية شجعت على قيام تكتلات استثمارية جديدة على نحو لم يعد مدهشاً.

- ٤ -

فى الواقع، كان هناك بعض ممن أسفوا - فقط - لعدم استطاعة كل الناس المشاركة فى الاستفادة من مكاسب هذه الآليات الجديدة للازدهار المالى. واحد

Ibid., p. 39. (١)

Stock Exchange Practices, Report (Washington, 1934), pp. 103-4. (٢)

من هؤلاء الذين استفادوا من الترويج ليونيتد كوربوريشن - المذكورة آنفاً هو جون جى راسكوب، رئيس اللجنة الوطنية الديمقراطية، الذى كان أيضاً من الناحية السياسية متمتعاً بجماهيرية كبيرة. وقد رأى أن كل شخص يجب أن يستفيد من الفرص التى تمتع بها هو. وكان إحدى ثمار دوافعه الكريمة خلال العام مقال نشرت فى جريدة ليديز هوم جورنال يحمل العنوان الجذاب: "كل شخص يجب أن يكون غنياً". فى هذا المقال، أشار السيد راسكوب إلى أن أى شخص استطاع ادخار خمسين دولاراً فى الشهر، واشترى بها أسهماً عادية جيدة، ولم ينفق شيئاً من الأرباح الموزعة عليها، يمكن أن يصير لديه نحو ثمانين ألف دولار بعد عشرين عاماً. ومن الواضح - وفقاً لهذه المعدلات - أن أناساً كثيرين جداً كانوا يستطيعون أن يصبحوا أثرياء، ولكن كانت هناك مدة العشرين عاماً، فعشرون عاماً بدت وقتاً طويلاً قبل أن يصبح المرء ثرياً، خاصة سنة ١٩٢٩ وبالنسبة إلى رجل ديمقراطى وصديق للشعب؛ كانت هذه المدة الطويلة تنطوى على مخاطرة أن ينظر الناس إليه باعتباره رجلاً رجعيّاً. ولهذا قدم السيد راسكوب اقتراحاً جديداً، حيث اقترح تكوين تكتل استثمارى يصمم خصيصاً حيث يسمح للشخص الفقير بأن يزيد رأسماله أسوة بالغنى.

كانت الخطة التى كشف عنها السيد راسكوب للجمهور فى صيف ١٩٢٩؛ قد تطورت فى بعض تفاصيلها، (وقد أقر بأنه ناقشها مع "رجال مال، واقتصاديين، ومنظرين، وأساتذة جامعيين، ومصرفيين، وقادة عماليين، وقادة صناعيين، وكثير من الناس غير المشهورين الذين لديهم أفكار مفيدة")، وخلاصتها أنه سيتم تكوين شركة تشتري الأوراق المالية. والعامل البروليتارى الذى يمتلك - فلنقل - مئتي دولاراً سوف يعهد بهذا المبلغ الزهيد إلى الشركة التى ستقوم بشراء أسهم بمبلغ ضئيل لا يتجاوز ٥٠٠ دولار، والثلاثمئة دولار الإضافية سوف يتم الحصول عليها من شركة مالية تابعة تؤسس لهذا الغرض، وسوف تودع الأسهم كلها باعتبارها ضمانات. وسوف يقوم الرأسمالى المبتدئ بسداد الدين ربما بمعدل ٢٥ دولاراً شهريّاً، وسوف يكون فى استطاعته - بالطبع - الحصول على كامل الربح

المتحقق من زيادة قيمة السهم، وهذا هو ما أشار إليه السيد راسكوب كشيء حتمى. وعلى سبيل الإطاحة بالأنظمة القائمة التى لم تعد صالحة قال السيد راسكوب: "والآن أصبح فى مقدور كل شخص يملك ٢٠٠ إلى ٥٠٠ دولار من أجل الاستثمار أن يشتري سندات الحرية" (١) "Liberty Bonds".

كان رد الفعل على خطة السيد راسكوب، يقارن برد الفعل على معادلة جديدة جريئة للعلاقة بين الكتلة والطاقة. "يوتوبيا عملية"، هكذا أطلقت عليها إحدى الصحف؛ ووصفتها صحيفة أخرى بأنها "أعظم رؤية لأعظم عقل فى وول ستريت". معلق مبتذل قليل الحياء تقدم خطوة أخرى قائلاً: إن الخطة تتسم بـ "حنكة مالية أكثر من أى شيء صدر عن وول ستريت عبر سنوات طويلة من التبلد" (٢).

بعد مرور وقت آخر قصير، بدا أنه لا بد من القيام بشيء من مشروع السيد راسكوب؛ فالناس كانوا فى منتهى الحماس لحكمة وفطنة مثل هؤلاء الرجال. وقد جرى التعبير عن هذا بشكل مثير للإعجاب؛ من خلال رغبة فى دفع أموالهم لقاء عبقرية رجل المال المحترف.

— ٥ —

مقياس هذا الاحترام للعبقرية المالية؛ كان هو العلاقة بين القيمة السوقية للأوراق المالية التى فى حوزة التكتل الاستثمارى وبين قيم الأوراق المالية التى تملكها. كان من العادى أن تكون قيمة الأوراق المالية التى بيد التكتل؛ أكبر بدرجة كبيرة من قيمة أملاكها، وفى بعض الأحيان كانت تبلغ ضعفى تلك القيمة. ويجب ألا يكون هناك غموض بصدد هذه النقطة؛ فكل ما كان يملكه التكتل الاحتكارى هو الأسهم العادية والأسهم الممتازة والسندات والرهون العقارية والسندات المالية والنقدية التى يملكها (وغالباً لم تكن لديه مكاتب أو أثاث مكتبى، حيث كانت

(١) The Literary Digest, June 1, 1929.

(٢) Ibid.

الشركة الراعية تدير التكتل الاستثمارى من مقارها الخاصة). والآن، فى حالة بيع كل الأوراق المالية المملوكة فى السوق، فإن الحصيلة سوف تكون - حتماً - أقل، وغالباً أقل بكثير، من القيمة الحالية للأوراق المالية التى فى حوزة شركة الاستثمار؛ حيث من الواضح أن الأخيرة قومت بما يزيد بكثير عن قيمة الأصول التى تغطيها.

لقد كانت المكافأة - فى الحقيقة - هى القيمة التى أضفها مجتمع معجب على القدرة على المعالجة البارة والمعارف والمهارات المالية المحترفة؛ فلكى تقيم محفظة أوراق مالية فى السوق كان المفترض أن تشير إليها فقط باعتبارها قيمة مجردة. ولكن باعتبارها ممتلكات لتكتل استثمارى، كانت أكثر من هذا بكثير، لأن محفظة الأوراق المالية ستكون فى هذه الحالة مرتبطة بالعامل الثمين للعبقريّة المالية. ومثل هذه القدرة الخاصة تستطيع أن تستدعى استراتيجيّة كاملة لزيادة قيمة الأوراق المالية. حيث يمكن تجميعها فى صناديق مشتركة واتحادات لرفع قيمتها. لقد كانت تلك العبقريّة تعرف متى يفعل الآخرون الشيء نفسه لتشاركهم فيه، وفوق كل شيء، كانت العبقريات المالية على علم بكل الأمور. لقد كانت تستطيع الوصول إلى ما وصفه السيد لورنس من برينستون بأنه "المستوى الذى تركّز عنده أذكى وأقدر التقييمات لقيم المشروعات التى تخدم احتياجات الناس"^(١). يستطيع المرء أن يكسب مالاً من الاستثمار مباشرة فى شركة راديو أو شركة جى آى كيس، أو مونتيجمرى وارد، ولكن كم يكون من الأكثر أماناً وحكمة أن يعهد بها إلى الرجال ذوى المعرفة المتميزة والحكمة.

بحلول ١٩٢٩؛ كانت التكتلات الاستثمارية قد أصبحت واعية بسمعتها باعتبارها كيانات تتمتع بمعرفة غير محدودة، بالإضافة إلى أهميتها. وهى لم تضيع فرصة من أجل تعظيم هذه السمعة. وكان أحد الإمكانيات أن يكون لديك خبير اقتصادى خاص. ويمرور الأشهر، تنامت منافسة كبيرة على هؤلاء الرجال ذوى السمعة الجيدة والقدرة على التأثير. لقد كان عصرًا ذهبيًا لأساتذة

Wall Street and Washington, p. 163. (١)

الجامعات؛ فشركة أميركان فاوندز جروب، وهى أسرة من التكتلات الاستثمارية تتمتع بالاحترام والإعجاب، كان أحد مديريها البروفيسور إدوين دبليو كيمير، خبير المال الشهير من برينستون، كما كان دكتور روفوس توكر، الشخصية الاقتصادية الشهيرة منضماً لإدارة الشركة (ربما كان التاريخ اللاحق للشركة يبين أن هؤلاء الاقتصاديين لم يكونوا يؤدون أدوارهم ببصيرة سليمة، فشركة يونيتد فاوندز، أكبر شركات المجموعة، شهدت انكماشاً صافياً فى أصولها قدره ٢٠١٢٨٥٥٠٤ دولارات مع انتهاء سنة ١٩٣٥ وهبط سعر سهمها من أكثر من ٧٥ دولاراً للسهم فى ١٩٢٩ إلى أقل قليلاً من ٧٥ سنتاً (١).

اتحاد كبير آخر استفاد بمشورة دكتور دافيد فرايداي الذى أتى إلى وول ستريت من جامعة ميتشيجان. وكانت سمعة فرايداي من حيث البصيرة والفتنة مذهلة. وكذلك استعان تكتل استثمارى فى ميتشيجان بثلاثة من الأساتذة الجامعيين - إرفينج فيشر من جامعة يال، وجوزيف إس دافيد من جامعة ستانفورد، وإدموند إى داي من جامعة ميتشيجان - باعتبارهم مستشارين لسياساته (٢). وهكذا لم تركز الشركة فقط على تنوع محفظتها المالية، ولكن أيضاً على تنوع مجلس مستشاريها. وبذلك كانت محمية تماماً من أى نظرة محدودة لأى من يال أو ستانفورد أو ميتشيجان إلى السوق.

تكتلات أخرى عبرت عن تميز عبقرياتها بمصطلحات أخرى، حيث لاحظ أحدها أنه حيث يمتلك أسهماً فى ١٢٠ شركة، فهو يستفيد من "تضافر كفاءة رؤسائها وموظفيها ومجالس إداراتها". ولاحظ فوق ذلك أن "المتحالفين بقوة مع تلك الشركات هم المؤسسات المصرفية الكبرى"؛ ثم فى قفزة منطقية كبيرة استنتج أن "التكتل - لهذا السبب - يحشد، إلى مدى كبير، فكر الأعمال الناجح فى الأمة". شركة أخرى - أقل مهارة فى الأساليب

(١) Bernard J. Reis, False Security (New York: Equinox, 1937), pp 117 ff. and 296.

(٢) Investment Trusts and Investment Companies, Pt. I, p. 111.

المنطقية - أرضت نفسها بالإشارة إلى أن "الاستثمار علم بديل لـ" (العمل الفردي)"^(١).

مع تقدم سنة ١٩٢٩؛ كان من الواضح أن الكثير والكثير من المستثمرين في السوق كانوا يعتمدون على ذكاء وعلم التكتلات الاستثمارية. وقد كان معنى هذا - بالطبع - أنه ما زالت لديهم مشكلة كبيرة في التمييز بين التكتلات الجيدة والرديئة؛ حيث إنه كان هناك بعض التكتلات الرديئة الذي كان (وإن بالكاد) معروفاً. وقد أقر بول سى كابوت في مقال منشور في عدد مارس ١٩٢٩ من مجلة أتلانتيك ماثلي؛ بأن التضليل والغفلة وعدم المقدرة والجشع كانت من بين النقائص الشائعة في الصناعة الجديدة. كانت هذه مسائل مذهلة. وباعتباره كمديراً ومسئولاً في تكتل استثماري واعد، هو ستيت ستريت انفسستمنت كوربوريشن، فإن السيد كابوت - على ما يبدو - كان يتكلم من موقع سلطة^(٢). وعلى الرغم من ذلك، فإن استجابة الجمهور في ١٩٢٩ لمثل تلك التحذيرات كانت بائسة جداً. كما أنها كانت نادرة.

- ٦ -

المعرفة أو براعة التصرف أو العبقورية المالية؛ لم تكن وحدها القدرات السحرية للتكتلات الاستثمارية، كانت هناك أيضاً السيطرة. فمع صيف ١٩٢٩، لم يعد المرء يستطيع التحدث عن التكتلات الاستثمارية هكذا وحسب، فالمرء كان يشير إلى تكتلات ذات سيطرة كبيرة، وأخرى ذات سيطرة قليلة، أو تكتلات دون سيطرة على الإطلاق. إن مبدأ السيطرة في تكتل استثماري يعمل على نحو شبيه بالطرد المركزي، فبتطبيق القوانين الفيزيائية المعروفة، الحركة البسيطة عند المركز تترجم إلى حركة قوية عنيفة ومفاجئة عند الأطراف. وفي التكتل الاستثماري كانت السيطرة تمارس من خلال إصدار السندات والأسهم العادية والأسهم الممتازة من أجل شراء حافظة من الأسهم العادية، على سبيل الحصر تقريباً. وعندما ترتفع قيمة الأسهم العادية المشتراة بهذه الطريقة - وهو الاتجاه

Ibid., Pt. I, pp. 61-62. (١)

Ibid., Pt. I, Ch. I, p. 53. (٢)

الذى كان مفترضاً دائماً - فإن قيمة السندات والأسهم الممتازة الخاصة بالتكتل تظل بدرجة كبيرة بعيدة عن التأثير^(١). وهذه الأوراق المالية تكون لها قيمة ثابتة مستمدة من عائد محدد، أما معظم أو كل المكاسب من ارتفاع قيمة محفظة الأوراق المالية؛ فتكون مركزة في الأسهم العادية للتكتل التى - نتيجة لذلك - ترتفع ارتفاعاً مدهشاً.

وعلى سبيل التوضيح، سنضرب مثلاً بحالة تكتل أسس فى أوائل ١٩٢٩ برأسمال قدره ١٥٠ مليون دولار، وهو حجم مناسب فى ذلك الوقت. ولنفترض أيضاً أن ثلث رأس المال توافر عن طريق بيع سندات، والثلث الثانى عن طريق بيع أسهم ممتازة، والباقى عن طريق بيع أسهم عادية، فلو استثمرت هذه الـ ١٥٠ مليون دولار، ولو لاقت الأوراق المالية المشتراة تقديراً معتاداً، فإن حافظة الأوراق المالية للتكتل سوف تزيد قيمتها مع حلول الصيف بنسبة ٥٠٪.. وهكذا ستساوى الأصول ٢٢٥ مليون دولار؛ ولكن السندات والأسهم الممتازة ستظل مساوية ١٠٠ مليون دولار، ولن تزيد أرباحها؛ كما أنها لن تطالب بنصيب أكبر فى الأصول فى حالة افتراض تسييل الشركة؛ ولهذا، فإن الـ ١٢٥ مليون دولار الباقية سوف تشكل أساساً لرفع قيمة الأسهم العادية للتكتل.. ويتعبير آخر، سوف تزيد قيمة الأسهم العادية من ٥٠ مليون دولار إلى ١٢٥ مليون دولار، أى بنسبة ١٥٠٪ وذلك كنتيجة لزيادة أصول الشركة ككل بنسبة ٥٠٪ فقط.

هكذا كان سحر "السيطرة"، ولكن هذا لم يمكن كل شىء، فلو أن الأسهم العادية للتكتل - التى زادت قيمتها بهذا القدر من الإعجاز - بيعت إلى تكتل آخر ذى سيطرة مماثلة، فإن تلك الأسهم العادية سوف تحقق زيادة تتراوح بين ٧٠٠٪ و ٨٠٠٪ من الزيادة الأصلية البالغة ٥٠٪ وهلم جرا. إن اكتشاف عجائب المتوالية الهندسية فى وول ستريت سنة ١٩٢٩؛ كان لا يقل تأثيراً عن اختراع العجلة. لقد كان هناك اندفاع لرعاية تكتلات استثمارية، تقوم برعاية تكتلات استثمارية، تقوم بدورها برعاية تكتلات استثمارية.. وفوق كل هذا، فإن معجزة

(١) بافتراض أنها كانت تقليدية بدرجة معقولة، السندات والأسهم الممتازة فى تلك الأيام كانت تصدر بتنوع غير محدود تقريباً من حقوق التحويل أو المشاركة.

"السيطرة" جعلت من مثل هذا الأمر عملية غير مكلفة نسبياً بالنسبة إلى الرجل الأساسى الذى يقف خلف كل هذه التكتلات، فبمجرد إطلاق تكتل واحد والاحتفاظ، بنصيب من الأسهم العادية، فإن الأرباح الرأسمالية المتحققة من السيطرة جعلت من السهل الانتقال إلى تكتل ثانٍ أكبر، يعظم من المكاسب ويجعل من الممكن الانتقال إلى تكتل ثالث أكبر.

وهكذا، نظرت لجنة الأوراق المالية والبورصة إلى هاريسون ويليامز، أحد أنصار "السيطرة" المتحمسين، باعتباره أحد كبار أصحاب "السيطرة" الرئيسيين على منظومة من التكتلات الاستثمارية والشركات القابضة تقترب قيمتها السوقية من مليار دولار^(١). وقد بنيت هذه المنظومة على سيطرته الأساسية على شركة صغيرة جدا (سنترال ستيت إليكترونيك كورپوريشن) التى كانت تساوى ستة ملايين دولار فقط سنة ١٩٢١^(٢).

كانت "السيطرة" أيضاً عاملاً أساسياً فى النمو المرموق لمجموعة أمريكان فاوندريز جروب، العضو الأصلى فى تلك الأسرة البارزة من التكتلات الاستثمارية التى تأسست سنة ١٩٢١؛ فقد كان المؤسس الأصلى غير قادر - مع الأسف - على النهوض بالمجموعة؛ لأنه كان فى حالة إفلاس. وعلى الرغم من ذلك، وفى العام التالى شاركه صديق بمبلغ ٥٠٠ دولار، وبرأسمال متواضع تكون تكتلاً استثمارياً ثانياً، وبدأت الشركتان فى العمل. وكان استقبال الجمهور مشجعاً بدرجة كبيرة. وبحلول سنة ١٩٢٧ باعبت الشركتان الأصليتان وشركة ثالثة أضيفت إليهما لاحقاً أوراقاً مالية للجمهور بما يتراوح بين سبعين وثمانين مليون دولار^(٣)، ولكن هذه كانت فقط البداية. وفى ١٩٢٨ و ١٩٢٩ أصابت مجموعة أميريكان فاوندريز جروب طفرة من النشاط، وبيع السهم للجمهور بسعر محقق. وأقيمت شركات

(١) شارك جولدمان ساكس فى جزء منها، كما سوف نلاحظ الآن. إن الحد الفاصل بين شركة قابضة تستثمر فى وتسيطر على شركة تابعة (أو شركة قابضة أخرى) وبين تكتل استثمارى أو شركة عادية لديها استثمارات ولكن لا يفترض أن لديها سيطرة، هو فى الغالب حد غير واضح. إن هرمية بنية الشركات القابضة وآثار التفوذ المصاحب لها كان أيضاً سمة صادمة فى تلك الفترة.

Investment Trusts and Investment companies, Pt. III, Ch. 1, pp. 5, 6. (٢)

Ibid., Pt. 1, pp. 98-100. (٣)

جديدة بأسماء جديدة كي تبيع مزيداً من الأسهم، إلى أن أصبحت المجموعة في ١٩٢٩ تضم ١٢ شركة.

في ذلك الوقت، كانت أكبر شركات المجموعة، يوناييتد فاوندرز كوربوريشن تمتلك موارد قدرها ٦٨٦١٦٥٠٠٠ مليون دولار، بينما كانت المجموعة ككل تمتلك موارد تصل قيمتها السوقية أكثر من بليون دولار. وربما كان ذلك أكبر حجم من الأصول بنى على إنفاق أصلى لا يتجاوز ٥٠٠ دولار. ومن ضمن البليون دولار كانت هناك ٢٢٠٠٠٠٠٠٠ دولار تمثلها شركات قابضة متداخلة، أى تمثل استثمار أى من شركات المجموعة فى الأوراق المالية الخاصة بغيرها من شركات المجموعة. لقد كانت هذه العلاقات المالية التى تشبه سفاح المحارم هى الأداة التى من خلالها تتم المحافظة على التحكم والتمتع بـ "السيطرة"، وبفضل هذه السلسلة الطويلة من تملك كل شركة لأوراق مالية لشركة أخرى، كانت الزيادة فى القيم فى ١٩٢٨ و ١٩٢٩؛ مركزة بشكل أساسى فى قيمة الأسهم العادية للشركات الأصلية.

السيطرة - التى ستتطور فيما بعد - كانت تعمل فى اتجاهين؛ حيث لم يكن كل الأوراق المالية الذى فى حوزة شركة فاوندرز من نوع يفترض أنه سيرتفع إلى أجل غير مسمى أو نوع مقاوم للكساد. فبعد عدة سنوات وجد أن محفظتها المالية كانت تحتوى على ٥٠٠٠ سهم تخصص شركة كروجر آند تول، و ٢٠,٠٠٠ سهم تخصص شركة كولو برودكت كوربوريشن، وهى شركة جديدة مغامرة كانت تصنع الصابون من زيت الموز. بالإضافة إلى ٢٩٥,٠٠٠ دولاراً فى شكل سندات على مملكة يوغوسلافيا^(١)، وحيث هبطت كروجر آند تول إلى قيمتها النهائية التى تعادل لا شىء، كانت "السيطرة" تعمل أيضاً، حيث كانت المتوالية الهندسية تعمل بالصورة الدرامية نفسها فى الاتجاه العكسى، ولكن هذا الجانب من رياضيات "السيطرة" كان لا يزال لم يكشف عنه فى بواكير سنة ١٩٢٩؛ ويجب أولاً أن نلقى ملاحظة على أكثر عمليات تأسيس شركات الاستثمار درامية فى تلك السنة غير العادية، وهى شركة جولدمان ساكس.

(١) Reis, op. cit., p. 124.

شركة جولدمان ساكس آند كومباني هي شراكة استثمار مصرفي وسمسرة دخلت متأخرة بعض الشيء في مجال أعمال التكتلات الاستثمارية، ففيما قبل ٤ ديسمبر ١٩٢٨ - أى قبل انهيار سوق الأوراق المالية بأقل من عام - لم تكن شركة جولدمان ساكس تريدنج كورپوريشن قد بدأت الاستثمار في هذا المجال، وربما كان من النادر - إذا كان قد حدث على الإطلاق - أن نمت شركة في التاريخ مثلما نمت شركة جولدمان ساكس تريدنج كورپوريشن والشركات التابعة لها في الأشهر التالية.

الإصدار الأولي لشركة تريدنج كورپوريشن كان بمليون سهم، اشترت كلها بواسطة شركة جولدمان ساكس آند كومباني مقابل ١٠٠ دولار للسهم، بقيمة إجمالية ١٠٠٠٠٠٠٠ دولار. بيع ٩٠٪ منها للجمهور آنذاك مقابل ١٠٤ دولارات للسهم. لم تكن هناك سندات أو أسهم ممتازة، فالسيطرة لم تكن اكتشفت بعد بالنسبة إلى جولدمان ساكس آند كومباني، وظل التحكم في جولدمان ساكس تريدنج كورپوريشن في يد جولدمان ساكس آند كومباني بموجب عقد إدارة، وبوجود الشركاء في مجلس إدارة تريدنج كورپوريشن (١).

خلال الشهرين التاليين لتأسيسها، باعت الشركة الجديدة بعض الأسهم الأخرى للجمهور. وفي ٢١ فبراير ١٩٢٩؛ اندمجت الشركة مع تكتل استثماري آخر يسمى فايننشال آند إندستريال سيكيوريتيز كورپوريشن، وقومت أصول الشركة الناشئة بمبلغ ٢٢٥ مليون دولار، محققة ربحاً يزيد على ١٠٠٪ في أقل من ثلاثة أشهر. في الثاني من فبراير، قبل الاندماج بنحو ثلاثة أسابيع، كان السهم الذي اشتراه المستثمر مقابل ١٠٤ دولارات يباع مقابل ١٣٦,٥ دولار، وفي ٧ فبراير، أى بعد خمسة أيام، وصل إلى ٢٢٢,٥٠ دولار. وعند هذا الرقم الأخير، كانت قيمة الأسهم قد وصلت تقريباً إلى ضعف القيمة الحالية الإجمالية للأوراق المالية والتفدية والأصول الأخرى المملوكة لشركة تريدنج كورپوريشن.

(١) Stock Exchange Practices, Hearings, April-June 1932, Pt. 2 pp. 566.

هذه الزيادة المرموقة لم تكن نتيجة خالصة لحماس الجمهور للعبقري المالى جولدمان ساكس؛ فجولدمان ساكس كان يحظى بذاته بحماس له اعتباره، وتريدنج كويوريشن كانت تشتري بكثافة من أسهمها. وفى ١٤ مارس اشترت ٥٦٠,٧٢٤ سهمًا من أسهمها مقابل مبلغ إجمالى قدره دولار (١)، وهذا بدوره رفع قيمة الأسهم بشدة؛ وعلى الرغم من ذلك - ربما إدراكًا منها لطبيعتها باعتبارها شركة استثمار كل استثماراتها مقتصرة على أسهمها العادية - توقفت تريدنج كويوريشن فى مارس عن شراء نفسها؛ ثم باعت جزءًا من الأسهم إلى وليم كرابو ديورانت الذى أعاد بيعها مرة أخرى للجمهور كلما سنحت الفرصة.

كان الربيع والصيف هادئين نسبيًا بالنسبة إلى جولدمان ساكس. ولكنها كانت فترة إعداد. وفى ٢٦ يوليو، كانت مستعدة.. فى هذا التاريخ، أطلقت تريدنج كويوريشن - بالاشتراك مع هاريسون وليمز - شركة شيناندوه كويوريشن، التكتل الاستثمارى الأول من تكتلين كبيرين. الإصدار المبدئى الأول لشركة شيناندوه كان بمبلغ ١٠٢٥٠٢٠٠٠ دولار (كان هناك إصدار إضافى بعد شهرين). وقالت تقارير: إن الاكتتاب تمت تغطيته بنحو سبعة أضعاف قيمته. كانت هناك أسهم ممتازة وأسهم عادية، وفى ذلك الوقت كان جولدمان ساكس قد أدرك مزايا "السيطرة". ومن بين الملايين الخمسة من الأسهم العادية فى العرض المبدئى، اشترت تريدنج كويوريشن مليونى سهم، واشترت شركة سنترال ستيتس إليكتريك كويوريشن مليونى سهم لصالح الراعى هاريسون وليامز. وكان وليامز عضوًا فى مجلس الإدارة المصغر إلى جانب الشركاء فى جولدمان ساكس. أحد أعضاء مجلس الإدارة الآخرين كان محامياً بارزاً من نيويورك الذى ربما يعزى افتقاده للتميز فى تلك اللحظة لتفاؤل الشباب، وهو السيد جون فوستر دالاس^(٥) John Foster Dulles، صدرت أسهم شيناندوه مقابل ١٧,٥ دولار للسهم، وكان عليه التعامل سريع ونشط. افتتح التعامل عند ٣٠ دولارًا، ووصل إلى

(١) التفاصيل هنا مأخوذة من Investment Trusts and Investment Companies, Pt. III, Ch. 1, pp. 6 ff. and 17 ff.

(٥) وزير خارجية الولايات المتحدة فيما بعد من ١٩٥٢ حتى ١٩٥٩ (المترجم).

٣٦ دولاراً وأقفل عند ٣٦ دولاراً، أى أعلى من سعر الإصدار بـ ١٨,٥ دولار (بنهاية العام وصل سعر السهم إلى ٨ دولارات وكسور، وفيما بعد وصل إلى نحو خمسين سنتاً).

فى الوقت نفسه، كان جولدمان ساكس يعد لعطيته الثانية لريف توماس جيفرسون^(٥) Thomas Jefferson نبي المشروعات الصغيرة والبسيطة. هذه العطية كانت شركة بلور ريدج كوربوريشن، الأقوى والأكثر تأثيراً، والتي ظهرت للوجود فى ٢٠ أغسطس ١٩٢٩، كان رأسمال بلور يدج ١٤٢٠٠٠٠٠٠ دولار، ولم يكن هناك شئ يميزها أكثر من حقيقة كونها قامت برعاية شيناندوه التى سبقتها للوجود بخمسة وعشرين يوماً. وكان مجلس إدارة بلور يدج هو نفسه مجلس إدارة شيناندوه، بمن فيه مستر دالاس الذى ما زال متفائلاً. ومن بين أسهمها العادية البالغة ٧,٢٥٠,٠٠٠ سهم (كان هناك أيضاً إصدار لعدد كبير من الأسهم الممتازة)، اشترت شيناندوه ٦٢٥٠٠٠٠ سهم؛ وعندئذ كان جولدمان ساكس يمارس "السيطرة" بقوة أكبر.

كان من الملامح الجديرة بالاهتمام فى شركة بلو ريدج، تلك الفرصة التى أتاحتها للمستثمر كى يتخلص من الأساليب الروتينية لشراء الأوراق المالية، وذلك بالاستبدال المباشر للأسهم العادية والممتازة للشركة الجديدة، فحامل سهم أميركان تليفون آند تلغراف كومبانى يستطيع الحصول على ٤,١ سهم تقريباً من الأسهم الممتازة أو العادية لشركة بلور ريدج مقابل تقديم كل سهم من أسهم شركة أميركان تليفون. ومنحت الميزة نفسها لحاملى أسهم أتلاندا كيميكال آند داي، وسانتا فى، وإيستمان كوداك، وجنرال إلكتريك، وستارد أولف أوف نيوجيرسى، وخمسة عشر سهماً أخرى؛ وكانت هناك فوائد كثيرة لهذا العرض.

٢٠ أغسطس، يوم ميلاد بلو ريدج، كان يوم ثلاثاء، ولكن كان هناك مزيد من العمل المطلوب إنجازه من شركة جولدمان ساكس فى ذاك الأسبوع؛ ففى يوم

(٥) الرئيس الثالث للولايات المتحدة (١٨٠١ - ١٨٠٩) واحد أهم الآباء المؤسسين. شارك فى كتابة الدستور الأمريكى ١٧٧٦ (المترجم).

الخميس، أعلنت شركة جولدمان ساكس تريندنج كوربوريشن استحواذها على شركة باسيفيك أميركان أسوسيأشن، وهي تكتل استثماري على الساحل الغربي، وهي التي بدورها اشترت مؤخراً عدداً من التكتلات الاستثمارية الأصغر، وكذلك تملك شركة أميركان ترست كومباني، وهي بنك تجاري كبير له عدد كبير من الفروع المنتشرة في كاليفورنيا. كان رأسمال باسيفيك أميركان نحو ١٠٠ مليون دولار. وفي سبيل الإعداد للاندماج، أصدرت تريندنج كوربوريشن أسهما أخرى بمبلغ ٧١٤٠٠٠٠٠ دولار، وقامت باستبدالها مقابل أسهم رأسمال شركة أميركان كومباني، الشركة القابضة التي تملك أكثر من ٩٩٪ من الأسهم العادية لشركة أميركان ترست كومباني (١).

بعد أن أصدرت أسهما بقيمة تزيد على ربع بليون جنيه خلال أقل من شهر - وهي العملية التي لم تكن بسيطة بالنسبة إلى وزارة الخزانة الأمريكية - تراجع نشاط شركة جولدمان ساكس لحد ما. ولم يكن أعضاؤها فقط هم المشغولون خلال هذا الوقت، لقد كان يعد يوماً بائساً من أغسطس وسبتمبر من ذلك العام؛ ذلك اليوم الذي لا يعلن فيه عن تكتل استثماري جديد، أو لا يعلن عن إصدار كبير جديد لأوراق مالية بواسطة تكتل قديم.. وهكذا، في أغسطس أولاً، أعلنت الصحف عن تكوين شركة أنجلو - أميركان شيرز، وهي شركة تميزت بمظهر وتنظيم حسن لم يكن من المألوف رؤيتهما في شركة بولاية ديلاور، حيث كان من بين مديريها ماركيز كاريزبروك، رئيس الجمعية الملكية للطيران بلندن.

وفي اليوم نفسه دشنت شركة أميركان إنشورانسستوكس كوربوريشن، على الرغم من أنها لم تكن تزدهو بمدير أكثر لمعاً من وليم جيبس مكادو (٥) "William Gibbs McAdoo" وفي الأيام التالية ظهرت شركات جود وينميل تريندنج كوربوريشن، وناشونال ريبيلك إنفستمنت ترست، وإنسول يوتيليتي

(١) Details on Shenandoah, Blue Ridge, and Pacific American merger not from the New York Times of the period are from Investment Trusts and Investment Companies, Pt. III, Ch. 1, pp. 5-7.

(٥) محام وسياسي أمريكي عضو بمجلس الشيوخ، شغل وظيفة وزير الخزانة في (١٩١٢ - ١٩١٨)، وبهذه الصفة كان عضواً في مجلس الاحتياطي الفيدرالي في واشنطن (المترجم).

إنفستمنت، وإنترناشونال كاريزرز ليميتيد، وترى - كونتيننتال ألابيد كوربوريشن، وسولفاى أميريكان إنفستمنت كوربوريشن. وفى ١٣ أغسطس؛ أعلنت الصحف أن النائب العام الأمريكى زار مكاتب شركة كوزمزيوليتان فيسكال كوربوريشن وشركة خدمات استثمارية أخرى اسمها فايننشال كاونسلور. وفى كل من الحالتين كانت المبادئ غائبة؛ علماً بأن شركة فايننشال كاونسلور لم تكن فوق مستوى الشبهات من حيث النزاهة والاستقامة.

المزيد من الأوراق المالية لتكتلات الاستثمار عرضت فى سبتمبر، وحتى أكثر مما عرض فى أغسطس. وكان المجموع يزيد على ٦٠٠ مليون دولار^(١). وعلى الرغم من ذلك، فإن التأسيس المتزامن تقريباً لشركتى شيناندوه وبلوريدج كان يمثل الذروة فى مجال التمويل فى العصر الحديث. إنه لمن الصعب ألا تشعر بالعجب من التصور الذى كان كامناً فى هذه الحماقة الهائلة، وإذا كان لا بد من وجود جنون، فإن هناك ما يمكن أن يقال من أنه كان موجوداً على مستوى خرافى.

بعد عدة سنوات، ذات فجر رمادى فى واشنطن، دار الحديث التالى قبل انعقاد لجنة تابعة لمجلس الشيوخ الأمريكى^(٢):

سيناتور كوزينز: هل قام بنك شركة جولدمان ساكس آند كومبانى بإنشاء شركة جولدمان ساكس تريننج كوربوريشن؟
مستر ساكس: نعم يا سيدى.

سيناتور كوزينز: وباعت أسهمها للجمهور؟
مستر ساكس: جزء منها. الشركة استثمرت بداية فى ١٠٪ من إجمالى الإصدار بمبلغ قيمت ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار.

E. H. H. Simons, The Principal Causes of the Stock Market crisis of Nineteen Twenty- (١)
Nine (address Issued in pamphlet form by the New York Stock Exchange, January 1930), p.
16.

. Stock Exchange Practices, Hearings, April-June 1932, Pt 2, pp. 566-67 (٢)

سيناتور كوزينز: والتسعين بالمئة الباقية بيعت للجمهور؟

مستر ساكس: نعم يا سيدى.

سيناتور كوزينز: بأى سعر؟

مستر ساكس: مقابل ١٠٤ دولارات للسهم القديم... السهم انقسم إلى

سهمين.

سيناتور كوزينز: وما سعر السهم الآن؟

مستر ساكس: ١,٧٥ دولار تقريباً.

الفصل الرابع

أقول الوهم

لم تكن هناك فترة خمول صيفية في وول ستريت ذلك العام، فمع عمليات التأسيس الكثيرة للتكتلات الاستثمارية ذهبت السوق إلى أبعد مدى لها على الإطلاق. كانت الأسعار ترتفع كل يوم، ولم تشهد أى انخفاض تقريباً. وخلال يونيو ارتفع مؤشر التايمز للشركات الصناعية بمقدار ٥٢ نقطة. وفي يوليو ارتفع بمقدار ٢٥ نقطة أخرى، وكان هذا يمثل ارتفاعاً إجمالياً قدره ٧٧ نقطة في شهرين. وكان في مجمل سنة ١٩٢٨ غير العادية - قد ارتفع بمقدار ٨٦,٥ نقطة، ثم في أغسطس ارتفع بمقدار ٢٣ نقطة أخرى.. وكذا يكون قد ارتفع بمقدار ١١٠ نقاط في ثلاثة أشهر، من ٢٣٩ نقطة في اليوم الأخير من مايو إلى ٤٤٩ نقطة في اليوم الأخير من أغسطس؛ وهو ما يعنى أن القيم قد ارتفعت خلال الصيف ككل بمعدل الربيع تقريباً.

أسهم الشركات أيضاً - كل على حدة - أبلت بلاء حسناً؛ فخلال أشهر الصيف الثلاثة ارتفعت وستجهاوس من ١٥١ إلى ٢٨٦ بزيادة صافية قدرها ١٣٥ نقطة. وارتفعت جنرال إلكتريك من ٢٦٨ إلى ٣٩١، كما ارتفعت شركة ستيل من ١٦٥ إلى ٢٥٨ نقطة. حتى أميريكان تل أند تل الكئيبة ارتفعت من ٢٠٩ إلى ٣٠٣، وكانت التكتلات الاستثمارية تحقق مكاسب جيدة، حيث ارتفعت يونيتد فاوندرز من ٢٦ إلى ٦٨ وأليغاني كوربوريشن من ٣٣ إلى ٥٦.

حجم التعاملات أيضاً كان كثيفاً على نحو مستمر، حيث تكرر وضوله في بورصة نيويورك إلى ما بين أربعة ملايين وخمسة ملايين سهم. وفي حالات قليلة جداً انخفضت خلال يوم كامل عن ثلاثة ملايين سهم. ومع ذلك، فإن حجم التعامل في بورصة نيويورك لم يعد مؤشراً جيداً للأرباح الإجمالية من المضاربة على الأوراق المالية؛ فالكثير من الإصدارات الجديدة والمثيرة لم يكن مدرجاً في بورصة نيويورك - مثل شيناندوه وبلو ريدج وبنرود وإنسل يوتيليتيز. لم تكن بورصة نيويورك - في ذلك الوقت - مؤسسة متعجرفة أو متطفلة أو غير متسامحة؛ فمعظم الشركات التي رغبت تمكنت من تسجيل أسهمها، غير أنه كان هناك بعض ممن وجدوا أنه من الحكمة، وآخرون أكثر منهم وجدوا أنه من المصلحة عدم تقديم إجابات على الطلبات البسيطة المشروعة التي كانت تتقدم بها البورصة للحصول على معلومات.. وهكذا كان يتم التعامل على الأسهم الجديدة خارج البورصة أو في بورصة بوسطن أو أي بورصة أخرى بخلاف بورصة نيويورك. وعلى الرغم من أن حجم الأعمال في بورصة نيويورك ظل أكبر منه في البورصات الأخرى مجتمعة، فإن موقعها النسبي بدأ يتأثر (في ١٩٢٩ حظيت بما يقدر بـ ٦١٪ من إجمالي التعاملات، وبعد ثلاث سنوات، حيث اختفت معظم التكتلات الاستثمارية إلى الأبد، حظيت بورصة نيويورك بـ ٧٦٪ من إجمالي التعاملات)^(١). وقد تلى ذلك بحلول صيف ١٩٢٩؛ أن البورصات الهشة في بوسطن وسان فرانسيسكو وحتى سنسيناتي كانت تحقق رواجاً. وبدلاً من أن تكون مجرد انعكاس باهت للبورصة الحقيقية في وول ستريت كانت لها حياتها وشخصيتها الخاصة بها. والأسهم التي لم يكن من الممكن أن تباع في بورصة نيويورك، كانت تباع هنا، وقد حقق بعضها انطلاقات استثنائية في مجال المضاربة. بحلول سنة ١٩٢٩؛ كانت مدنا بائسة، مجردة على نحو محزن من الروح الحضرية، ولم يكن ليثير الاستغراب لو أنها حتى لم يكن بها بورصة.

لقد كان هناك ما هو آخذ في الارتفاع أكثر من أسعار الأسهم العادية، حيث كان حجم المضاربة يتزايد بمعدل مروع؛ فقد زادت قروض السماسرة خلال

(١) Estimates are from Stock Exchange Practices, Report (Washington 1934), p. 8.

الصيف بمعدل ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار شهرياً تقريباً. ومع نهاية الصيف تجاوز حجمها الإجمالى سبعة بلايين دولار، أكثر من نصف هذا المبلغ تم توفيره بواسطة شركات وأفراد فى الداخل والخارج، كانوا يستفيدون بمزايا أسعار الفائدة الممتازة التى كانت تقدمها نيويورك، وكان من النادر - خلال ذلك الصيف - أن ينخفض سعر الفائدة على القروض تحت الطلب إلى ٦٪. وكان المعدل المعتاد يتراوح بين ٧٪ و ١٢٪، وفى إحدى المرات وصل المعدل إلى ١٥٪؛ وحيث إن هذه القروض - كما لاحظنا من قبل - قد وفرت تقريباً كامل الأمان والسيولة وسهولة الإدارة، فكان من الطبيعى أن تبدو الأرباح جذابة لمقرض مرابى فى بومباى. وقد بدا لعدد قليل من المراقبين القلقين؛ كما لو أن وول ستريت كان يقوم بالتهام كل أموال العالم أجمع.. ومع ذلك، فإنه وفقاً للممارسات الحضارية، وبمجرد انصرام الصيف، أدان المتحدثون المسئولون والموثوق بهم، ليست الزيادة فى قروض السماسرة، ولكن هؤلاء الذين أصروا على أهمية هذا التوجه. لقد كان هناك انتقاد حاد لأنبياء الرواج.

- ٢ -

كان هناك مصدران للمعلومات المتعلقة بقروض السماسرة. الأول: هو التصنيف الشهرى الذى كانت تصدره بورصة نيويورك، والذى يستخدم هنا عادة. والثانى: هو التقرير الأقل اكتمالاً الذى كان جهاز الاحتياطى الفيدرالى ينشره أسبوعياً. كل يوم جمعة، كان هذا التقرير يكشف عن زيادة كبيرة فى القروض. وكل يوم جمعة كان هناك إقرار قاطع بأن ذلك لم يكن يعنى شيئاً. وكل من قال بشئ آخر، حكم عليه بتوبيخ قاس. لقد بدا من المحتمل أن هناك أقلية فقط من الناس الموجودين فى السوق يربطون بين حجم قروض السماسرة وحجم الشراء بالهامش، ومن ثم بحجم المضاربة.. وهكذا كان أى تعبير عن القلق بشأن هذه القروض يهاجم بسهولة باعتباره مجهوداً بلا طائل لتقويض الثقة.. وهكذا كتب شيلدون سينكلير ويلز فى صحيفة بارونز فى الثامن من يوليو: إن هؤلاء الذين يقلقون من قروض السماسرة ومن تدفق التمويل من الشركات؛ هم ببساطة لا

يفقهون ما يحدث؛ ثم جادل بأن سوق القروض تحت الطلب أصبحت منفذاً جديداً ضخماً لاستثمار احتياطات الشركات، ولكن الانتقادات لم تقدر هذا التغيير.

أما السيد ميتشل رئيس ناشونال سيتي بنك - الرجل الرصين بطبيعة الحال - فقد غضب مرات متكررة بسبب الاهتمام الذي أعطى لقروض السماسرة، وعبر عن غضبه بقوة. كما كانت الصحافة المالية أيضاً منزعجة، وعندما تساءل آرثر بريسبن فى وقت لاحق من العام؛ عن مدى ملاءمة أن يكون معدل الفائدة على القروض تحت الطلب ١٠٪ وصلت وول ستريت جورنال إلى مفتهى صبرها: "حتى بالنسبة إلى الصحف غير المتخصصة، فإن بعض المعرفة الدقيقة مطلوب لمناقشة معظم الأشياء. لماذا يكون لأى جاهل أن يتحدث عن وول ستريت؟" (١). (يبدو وكأن بريسبن قد اعتقد أن سعر الفائدة كان ١٠٪ يومياً وليس سنوياً).

الباحثون أيضاً كان لهم رد فعلهم على هؤلاء الذين كانوا - عن عمد أو دون - يخربون الازدهار بتشاؤمهم غير المحسوب، فبعد استعراض الموقف بترو، استنتج البروفيسور دايس أن المستوى العالى من قروض السماسرة يجب ألا يكون "باعثاً على الخوف إلى الدرجة التى يريد بعض أن نصدقها". (٢) وفى أغسطس، أعلن ميدلاند بنك أوف كليفلاند عن نتائج عمليات حسابية؛ تثبت أنه لا موجب للقلق إلى أن تصل القروض الممنوحة من الشركات فى سوق الأوراق المالية إلى اثنى عشر بليون دولار (٣).

إن أفضل التطمينات بشأن قروض السماسرة؛ كانت مبنية على التوقعات المتعلقة بالسوق. فما دامت أسعار الأسهم ظلت مرتفعة وفى تزايد مستمر، وما دامت هى كذلك لأن احتمالاتها المستقبلية متوافقة مع أسعارها، فلا مجال إذن للقلق بشأن القروض التى كانت تتراكم. ووفقاً لهذا، فقد انبنى الكثير من الدفاع

(١) The Wall Street Journal, September 19, 1929.

(٢) New Levels in the Stock Market, p. 183.

(٣) New York Times, August 2, 1929.

عن القروض على الدفاع عن مستويات السوق. ولم يكن من الصعب إقناع الناس بأن السوق كانت بحالة جيدة. وكما هو معتاد في مثل تلك الحالات، كانوا يطالبون فقط بكم الأصوات المتشككة وبالتعبير المتكرر عن الثقة.

في ١٩٢٩؛ لم تكن كلمة الخيانة قد أصبحت بعد مصطلحاً فضفاضاً للتعبير عن التوبيخ. ونتيجة لذلك لم يكن التشاؤم مرادفاً بشكل صريح لجهود رامية لتدمير أسلوب الحياة الأمريكي، ولكن كان هناك شيء من هذا المفهوم، فدون استثناء تقريباً، كل من عبروا عن قلقهم قالوا فيما بعد إنهم فعلوا ذلك بخوف ورهبة (في وقت لاحق من العام شن مستشارو شركة استثمار في بوسطن حملة جديدة مصحوبة بتحذير علني مفاده أن أمريكا ليس بها مكان لـ "التدميريين").

التفاؤل الرسمي كان وافراً ومعبراً عنه بوضوح.. وهكذا، برنارد باروش أنبا بروس بارتون في حديث صحفي شهير نشر في جريدة ذي أميريكان ماجازين^(١) بأن "الظروف الاقتصادية للعالم تبدو على حافة نقلة كبرى للأمام". وقد أشار إلى أنه لا مكان للحمقى في عالم الثراء. الكثير من أساتذة الجامعات أيضاً كانوا ينضحون ثقة. وفي ضوء التطورات اللاحقة، كان سجل رابطة إيفي^(٥) "Ivy بشكل خاص سيئ الحظ، ففي تقرير حظي بقدر من سوء السمعة، قال League لورنس من جامعة برينستون: "إن إجماع الملايين على أن تقييم هذه السوق الجديرة بالإعجاب، سوق الأوراق المالية، لهو دليل على أن الأسهم في الوقت الحالي ليست مقدرة بأكثر من قيمتها". ثم أضاف: "أين هي هذه المجموعة من الرجال ذوي الحكمة الشاملة الذين يمكن أن نعطيهم حق الاعتراض على تقييم هذا الجمهور الذكي؟"^(٢).

في ذلك الخريف، أدلى البروفيسور إرفينج فيشر بتقييمه الخالد: "إن أسعار

The American Magazinn, June 1929. (١)

(٥) اتحاد رياضي كان يجمع بين ثمانى جامعات في شمال الولايات المتحدة. من بين هذه الجامعات هارفارد وبرينستون ويال. وتعبير "Ivy league" كان يشير أيضاً إلى التميز الاجتماعي والأكاديمي (المترجم).

(٢) Wall Street and Washington, p. 179. These passages were later quoted editorially by the New York Times and are reproduced in turn from there.

البورصة وصلت إلى ما يبدو أنه مستوى عالٍ مستديم، وقد كان إرينج فيشر أكثر الاقتصاديين الأمريكيين تميزاً. ومن حسن الحظ، أن هناك أشياء أفضل تذكر مقرونة باسمه، مثل إسهاماته في جداول الأرقام القياسية، والنظرية الاقتصادية التقنية، ونظرية النقود.

من جامعة كمبريدج، أنتت تطمينات أقل أرباحية بقليل من تلك التي أنتت من الجمعية الاقتصادية في جامعة هارفارد "Harvard Economic Society" - وهي منظمة غير رسمية كونها عدد من أساتذة الاقتصاد يشهد لهم بلا استثناء بالاتجاه المحافظ. وكان هدف الجمعية من هذا المشروع مساعدة رجال الأعمال والمضاربين في التنبؤ بالمستقبل، كانت التنبؤات تجري عدة مرات كل شهر، وكانت بلا شك تحظى بمكانة مستمدة من جمعيتهم التي تحمل اسم الجامعة المهيبة.

من باب الحكمة أو حسن الحظ، كانت الجمعية في أوائل ١٩٢٩ في وضع أقل ما يوصف به أنه في حالة صعود. وقد أفادت نبوءاتهم بأن هناك ركوداً (وبالتأكيد ليس كساداً) يوشك على الحدوث. وأسبوعاً بعد أسبوع، تنبئوا بانتكاسة خفيفة في مجال الأعمال. وعندما أتى صيف ١٩٢٩؛ دون أن تقع الانتكاسة - على الأقل على أي شكل مرئي بوضوح - تراجعت الجمعية واعترفت بالخطأ؛ وقررت أن الأعمال يمكن أن تكون جيدة بعد كل شيء، كان هذا - كما يحكم على مثل هذه الأشياء - لا يزال تقريراً جيداً بالتصديق، ولكن الانهيار أتى بعد ذلك؛ وظلت الجمعية مقتنعة بأنه لا يوجد كساد خطير في الأفق. وفي نوفمبر قالت بحزم: "إن كساداً حاداً كذلك الذي وقع في ١٩٢٠ / ١٩٢١ هو خارج نطاق الاحتمالات.. نحن لا نواجه تسييلاً طويلاً الأجل". وظلت الجمعية تكرر القول بهذا الرأي حتى تم تسييلها.

- ٣ -

كان المصرفيون أيضاً مصدراً للتشجيع بالنسبة إلى هؤلاء الذين أرادوا الإيمان بدوام الرواج. وقد تجاهل عدد كبير منهم دورهم التاريخي باعتبارهم رعاة للتشاؤم المالي للأمة، وراحوا يستمتعون بمهلة قصيرة من التفاؤل. وقد كانت لديهم الأسباب ليفعلوا ذلك؛ ففي السنوات السابقة، أنشأ عدد كبير من البنوك

التجارية - بما فى ذلك أكبر بيوت نيويورك المصرفية - شركات تابعة، وهذه الشركات باعت أسهما وسندات للجمهور، أصبح هذا النشاط مهما؛ فقد كان نشاطاً فرض صورة وردية للمستقبل. وبالإضافة لذلك، فقد كان هناك مصرفيون - بصفة فردية - يضاربون بنشاط لصالحهم الشخصى، ربما بعد أن أخذوا الإشارة من بنكى ناشيونال سيتى وتشيز فى نيويورك. وقد كان من غير المتوقع أن يقولوا - أو أن يؤيدوا - أى شىء يمكن أن يلحق ضرراً بالسوق.

على الرغم من ذلك، فقد كانت هناك استثناءات، أحد هذه الاستثناءات كان بول إم واربورج من إنترناشونال أكسبتانس بانك، الذى يجب أن تعطى تنبؤاته من الأهمية نفس ما أعطى لتنبؤات إيرفينج فيشر^(*) Irving Fisher فقد كان كل منهما ذا بصيرة جديرة بالتقدير. ففى مارس ١٩٢٩؛ نادى واربورج بسياسة أقوى للاحتياطى الفيدرالى، وقال بأنه لو لم يتم فوراً وقف الانغماس الحالى فى "المضاربة غير المحكومة" فقد يقع فى النهاية انهيار كارثى. كما أشار إلى أن هذا الانهيار - من سوء الحظ - لن يحل فقط بالمضاربين، ولكنه يمكن أن يجلب كساداً عاماً يحل بالبلاد كلها^(١).

فقط المتحدثون باسم وول ستريت الذين نظروا إلى واربورج النظرة الأكثر ترففاً أراحوا أنفسهم بوصفه بأنه قد عفا عليه الزمن؛ بينما قال أحدهم: إنه كان "يضع العوائق فى طريق ازدهار أمريكا". وألح آخرون إلى أنه كانت لديه دوافع، وربما كان يمارس البيع على المكشوف^(**) "Short Selling" وحيث راحت السوق تصعد وتصعد، فلم تعد تحذيراته تذكر إلا بالازدراء^(٢).

أكثر التشككات وجاهة كانت تأتى من قبل الصحافة، ولكنها بالتأكيد كانت تمثل أقلية ضئيلة؛ حيث إن معظم المجلات والصحف فى ١٩٢٩ قدمت طفرة

(*) أحد أشهر المنظرين الاقتصاديين الأمريكيين فى النصف الأول من القرن العشرين (المترجم) .

(١) The Commercial and Financial Chronicle, March 9, p. 1444.

(**) فى ظل البيع على المكشوف يقوم المستثمر ببيع الأوراق المالية أولاً، ثم يقوم بشرائها بعد أن ينخفض سعرها، وتتمثل أرباح المستثمر فى قيمة الفرق بين سعر البيع وسعر الشراء. راجع الفصل الثامن، فقرة ٢ (المترجم).

(٢) Alexander Dana Noyes, The market Place (Boston: Little, Brown, 1938), p. 324.

السوق بإعجاب وتبجيل ودونما حذر. وقد نظروا إلى الحاضر والمستقبل نظرة مفعمة بالأمل.. والأكثر من هذا، أن عدداً كبيراً من الصحفيين كانوا يقاومون بحزم النفاق والمداهنات الرقيقة التي كان يعتقد بأنهم سريعو التأثير بها. وبدلاً من ذلك كانوا يطلبون نقوداً سائلة مقابل الأخبار الإيجابية بالنسبة إلى السوق. أحد كتاب الأعمدة متخصص في الشؤون المالية في جريدة ديلي نيوز، والذي كان يوقع باسم "التاجر"، تلقى ١٩٠٠٠ دولار في ١٩٢٩ وأوائل ١٩٣٠؛ من رجل مال غير متفرغ يدعى جون جى ليفينسون؛ وقد كان "التاجر" يكتب بإيجابية وبشكل متكرر عن الأسهم التي تهم السيد ليفينسون. ومع ذلك فقد أصر السيد ليفينسون فيما بعد على أن الأمر كان مجرد صدفة، وأن المبالغ التي دفعها كان تعكس كرمه المعتاد^(١). معلق إذاعى يدعى وليم جى مكماهون كان رئيساً لمعهد مكماهون للبحوث الاقتصادية، وهو منظمة كانت في معظمها مملوكة لمكماهون. كان مكماهون يتحدث في برامج الإذاعية عن الاحتمالات الرائعة للأسهم التي تسعى مجموعة معينة من المتعاملين لترويجها؛ ومن أجل هذا وصل الأمر إلى أنه كان يتلقى منحة أسبوعية قدرها ٢٥٠ دولاراً من شخص يدعى دافيد إم ليون^(٢)، وكان ليون واحداً من الذين اتهمتهم لجنة بيكورا "Pecora Committee"^(٥) بممارسة أعمال شراء تعليقات مشجعة بالكميات الضرورية في الوقت الملائم.

على الجانب المقابل تماماً كانت هناك أفضل الصحافة المالية، مثل تلك الصحف المالية العريقة التي كانت تصدرها شركة بور "Poor" وستاندرد ستاتستيك كومباني "Standard Statistic Company" التي لم تفقد أبداً إحساسها بالواقع. ففى الخريف ذهبت صحيفة ويكلي بزنس آند إنفستمنت ليدر - التي تصدر عن بور -

(١) Stock Exchange Practices, Hearings, April-June 1932, Pt. 2, pp. 601 ff.

(٢) Ibid. , p. 676,ff.

(٥) لجنة منبثقة عن لجنة الشؤون المصرفية والعملة التابعة لمجلس الشيوخ الأمريكى. تشكلت سنة ١٩٣٢ للتحقيق في الانهيار الذى أحاق ببول ستريت سنة ١٩٢٩؛ وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى رئيسها فرديناند بيكورا (الترجم).

بعيداً إلى درجة الحديث عن "وهم الأسهم العادية الكبير" (١). أما محرر صحيفة كوميرشال آند فايننشال كرونكل؛ فلم يكن متردداً في اقتناعه بأن وول ستريت قد فقد صوابه. كانت التقارير الأسبوعية للصحيفة حول قروض السماسرة مناسبات منتظمة للتحذير العلني، وكانت أعمدة الأخبار تبرز أي أنباء سيئة متاحة.. ومع ذلك، فحتى ذلك الحين كانت أكبر قوى الرصانة والاعتدال هي النيويورك تايمز، فتحت توجيه المخضرم ألكسندر دانا نوبيس، كانت صفحتها المالية محصنة تماماً ضد نفاق العصر الجديد. ولم يكن القارئ المداوم يستطيع الشك في أن يوم الحساب كان متوقعاً. وفي مناسبات متعددة أيضاً، ذكرت الصحيفة - قبل الأوان بكثير - أن يوم الحساب قد حان.

الواقع أن التعثرات المؤقتة في السوق والتي سبقت الانهيار؛ كانت اختباراً لهؤلاء الذين يملكون خيالاً هابطاً. ففي أوائل ١٩٢٩ وفي يونيو وديسمبر من العام نفسه، وفي فبراير ومارس ١٩٢٩ بدا أن النهاية قد حانت. وفي العديد من تلك المناسبات أعلنت التايمز بسعادة عن العودة إلى الواقع؛ ثم عادت السوق لتحلق من جديد. وكان الإحساس المستديم بالنهاية الوشيكة هو فقط ما أبقي عدم التشجيع هذا قائماً. ولكن الوقت كان آتياً حيث سيجنى المتفائلون حصاداً ثرياً من افتقاد الاحترام. ولكن ما ظل منسياً لفترة طويلة هو أن هؤلاء الذين قاوموا التطمينات ظلوا لشهور عديدة مفتقدين مثلهم للاحترام وإن يكن لزمان أقل. القول بأن التايمز - عندما وقع الانهيار الحقيقي - زفت الحدث بسرور هو من قبيل المبالغة؛ ومع ذلك، فقد غطته بقدر لا يُخطأ من عدم الأسف.

- ٤ -

بحلول صيف ١٩٢٩ لم تكن السوق قد هيمنت فقط على الأخبار، ولكن أيضاً على الثقافة. فتلك القلة القليلة التي كانت في أوقات أخرى تولي اهتمامها لتوماس الأكويني (٥) Saint Thomas Aquinas "وبروست" (**) Proust والتحليل

(١) . Quoted by Allen, Only Yesterday, p. 322.

(٥) توماس الإكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤)؛ مفكر ديني وفيلسوف إيطالي، كان لأفكاره تأثير كبير في عقيدة كنيسة روما الكاثوليكية (المترجم).

(٥٥) مارسيل بروست (١٨٧١-١٩٢٢)؛ روائي فرنسي يعد من أهم الكُتّاب في العصر الحديث (المترجم).

النفسي(*) Psychoanalysis والطب النفسي، تتحدث الآن عن شركات يونيتد كوربوريشن ويونيتد فاوندرز وستيل. فقط غريبو الأطوار الأكثر عدوانية هم الذين احتفظوا بعزلتهم عن السوق وباهتمامهم بالإيحاء الذاتي(٥٥) Autosuggestion أو بالشيوعية. وفي أوساط الأمريكيين العاديين كان يوجد دائماً مواطن يتحدث - عن علم - عن شراء وبيع الأسهم، وقد أصبح الآن مستشاراً حكيماً. وفي نيويورك، على حافة أى تجمع من الناس مثير للانتباه بشكل ملحوظ؛ سوف تجد سمساراً مثقفاً أو مستشار استثمارى عليم بالخطط الجارية للصناديق المشتركة والاتحادات والاندماجات، وعلى علم بالإمكانات الجذابة. إنه يتعاون مع أصدقائه من خلال النصائح بشأن الاستثمارات، ويلح منبئاً بما يعرفه عن السوق، وبالكثير مما لا يعرفه. هؤلاء الرجال الآن، حتى بين فرق الفنانين، وكتاب المسرح، والشعراء، والعشيقات الجميلات، قد برزوا لامعين من الآن فصاعداً. وأصبحت كلماتهم - حرفياً تقريباً - ذهبية. لقد أصبح الجمهور يستمع إليهم ليس بالاهتمام الفضفاض الذى يعيرونه لمن يلقون بنوادر مسلية، ولكن بانتباه مستغرق حقيقى لهؤلاء الذين يتوقعون أن يكونوا المال من خلال ما يسمعون.

إن كون كثير مما كان يتردد حول السوق - كما هى الحال الآن - لا علاقة له بالواقع، هو شيء مهم، ولكنه غير لافت للنظر. إن هناك بين البشر نوعاً من الاتصال لا ينشأ من المعرفة، ولا حتى من الافتقار للمعرفة، ولكن من الفشل فى معرفة ما هو غير معلوم. لقد كان هذا حقيقياً بالنسبة إلى الكثير من الأحاديث التى كانت تدور حول السوق. فى غداء فى وسط نيويورك، يتحدث الطبيب العالم ببواطن الأمور عن الانقسام الوشيك فى سهم شركة ويسترن يوتيليتى إنفيسستور، وعن أثر ذلك على أسعار الأسهم. ولم يكن الطبيب ولا المستمعون إليه يعرفون لماذا سوف يكون هناك انقسام، ولماذا سوف ينتج عن هذا الانقسام ارتفاع فى

(٥) نظرية فى العلاج النفسى أسسها العالم والطبيب النمساوى سيجموند فرويد، سادت خلال أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين (المترجم).

(٥٥) نظرية فى العلاج النفسى نشأت فى أواخر القرن التاسع عشر (المترجم).

قيمة الأسهم، أو حتى لماذا يجب أن يكون لويسترن يوتيليتي إنفستورز قيمة ما؛ ولكن لا الطبيب ولا مستمعوه يعرفون أنه لا يعرف. إن الحكمة هي في الغالب فكرة مجردة لا ترتبط بالحقيقة أو الواقع، ولكن بالشخص الذى يفرضها وبأسلوب الذى يفرضها به.

ربما كان فشل المرء فى إدراك مدى جهله متحققاً - بصفة خاصة - فى حالة المستثمرات من النساء اللاتى أصبحن الآن يدخلن السوق بأعداد كبيرة (مقال منشور فى مجلة دى نورث أميريكان ريفيو فى أبريل أشارت إلى أن النساء أصبحن لاعبات مهمات فى "أكثر ألعاب الرجل الرأسمالية إثارة"، وأن ربة البيت الحديثة الآن "تقرأ - على سبيل المثال - أن سهم وايت أير أخذ فى الارتفاع... تماماً كما تقرأ أن السمك الطازج موجود الآن فى السوق..."، وقد جازف الكاتب بتقدير أن النجاح فى المضاربة يمكن أن يحقق الكثير لمكانة المرأة). بالنسبة إلى المرأة المضاربة النمطية، لم تكن علاقتها بشركة ستيل علاقة مع شركة، وبالتأكيد ليست علاقة مع المناجم، والسفن، والسكك الحديدية، وأفران الصهر العالية، وأفران الصلب، ولكنها - عوضاً عن ذلك - كانت علاقة مع رموز على شريط، وخطوط فى رسم بيانى وسعراً يرتفع. لقد كانت تتحدث عن ستيل بالألفة نفسها التى تتحدث بها عن صديقة قديمة، بينما هى فى الحقيقة لم تكن تعرف عنها شيئاً أياً كان. ولم يكن هناك أى شخص يخبرها بأنها لم تكن تعرف أنها لا تعرف، فنحن أناس مهذبون ومتحفظون، ونتجنب المشاكسة.. وفوق هذا، فإن أى نصيحة من هذا القبيل، أبعد ما تكون عن تحقيق أى نتيجة، سوف تثير الشعور بالازدراء تجاه أى شخص يفتر للشجاعة والمبادرة والرقى اللازمين لإدراك كم هو من السهل أن يصبح المرء غنياً. لقد اكتشف وكيل أعمال السيدة فى البورصة أنها تستطيع أن تصير غنية؛ وبالتأكيد كان من حقها أن تصير غنية، شأنها شأن أى شخص آخر. إن إحدى مزايا النساء أن دوافعهن - وإن كانت مشابهة لدوافع الرجال - إلا أنها أصعب فى إخفائها بإتقان مقارنة بدوافع الرجال.

إن قيم مجتمع منشغل - كلية - بجمع المال ليست مطمئنة تماماً. أثناء فصل الصيف، قبلت جريدة التايمز نشر إعلان لصالح متعامل فى أسهم شركة ناشونال ووتروروكس كوربوريشن، وهى شركة أنشئت كى تشتري حصصاً فى شركات المياه فى المدينة. وقد نص الإعلان على الفكرة الجشعة التالية: "تصور هذا المشهد اليوم، لو أنه نتيجة لكارثة طبيعية ما لم يبق بمدينة نيويورك الكبرى سوى بئر مياه واحدة، ولو بيع دلو المياه مقابل دولار واحد، فمئة دولار، فالف دولار، فمليون دولار، لأصبح الرجل الذى يملك البئر يملك كل ثروة المدينة". وهكذا استحدث هذا الإعلان كل المستثمرين ذوى العقول الكارثية لاحتلال موقع كبير فى شركات المياه قبل أن يفوت الأوان.

- ٥ -

الدور المحورى للبورصة فى الحياة الأمريكية فى صيف ١٩٢٩؛ كان فوق أى شك. وناس كثيرون من نوعيات وظروف كثيرة مختلفة كانوا فى البورصة. وقد صور فردريك لويس ألين تنوع تلك المشاركة فى فقرة رائعة:

"سائق الرجل الغنى كان يقود السيارة وهو يوجه أذنيه للخلف كى يلتقط أخبار حركة وشيكة فى أسهم بتلهم ستيل، فهو يملك خمسين سهماً اشتراها بهامش ٢٠٪ منظم النواخذ فى مكتب السمسار صمبت كى يراقب المبرقة، لأنه كان يفكر فى تحويل مدخراته التى تراكمت بشق الأنفس إلى عدد قليل من الأسهم فى شركة سيمونز. إدوين ليفيفر (مراسل صحفى مسموع الكلمة فى السوق فى ذلك الوقت كان معروفاً بخبرته الشخصية الكبيرة) حكى عن مستخدم عند سمسار كون نحو ربع مليون دولار من السوق، وعن ممرضة مدربة استثمرت ٢٠,٠٠٠ دولار كانت قد جمعتها من البقاشيش التى منحها لها مرضى ممتنون، وعن مربية ماشية من وويمنج على بعد ثلاثين ميلاً من أقرب خط سكة حديد، كان يشتري أو يبيع ألف سهم يومياً"^(١).

ربما كانت المبالغة فى تقدير المصلحة العامة فى السوق أكثر خطراً من التهوين منها. إن أكليشييه أن كل واحد "فى السوق" الذى ذاع فى ١٩٢٩؛ كان بعيداً

Only yesterday, p. 315. (١)

جداً عن الحقيقة الحرفية. فآنذاك - مثل الآن - كانت البورصة شيئاً بعيداً غامضاً منذراً بالسوء بالنسبة إلى الأغلبية العظمى من العمال والمزارعين وذوى الياقات البيضاء. والواقع أنها كانت كذلك بالنسبة إلى الأغلبية العظمى من كل الأمريكيين. وآنذاك - مثل الآن - لم يكن الكثير يعرفون كيف يمكن للمرء أن يشتري ورقة مالية. إن شراء أسهم بالهامش كان بكل الاعتبارات بعيداً عن مجريات الحياة كبعد كازينو في مونت كارلو.

فى السنوات اللاحقة؛ أخذت لجنة لتقصى الحقائق تابعة لمجلس الشيوخ على عاتقها مهمة التأكد من عدد الأشخاص الذين كانوا متورطين فى المضاربة على الأوراق المالية فى ١٩٢٩.. شركات السمسرة المسجلة فى ٢٩ بورصة فى ذلك العام أقرت بأنها تعاملت مع ١٥٤٨٧٠٧ من بين هؤلاء ١٢٧١٩٢٠ عميلاً لشركات سمسرة مسجلة فى بورصة نيويورك). إذن فإن مليون ونصف المليون شخصاً فقط من بين نحو ١٢٠ مليوناً من السكان تقريباً، ومن بين ما يتراوح بين ٢٩ و٣٠ مليون أسرة كان لهم تعامل نشط من أى نوع مع البورصة، وليس كل هؤلاء كانوا مضاربين. وقد قدرت شركات السمسرة للجنة مجلس الشيوخ بأن نحو ٦٠٠٠٠٠ فقط من العملاء المذكورين كانوا من المشترين بالهامش، مقارنة بنحو ٩٥٠٠٠٠ عميل كانت تعاملاتهم تتم نقداً.

إن رقم الـ ٦٠٠٠٠٠ متعامل المشترين بالهامش يتضمن بعض الازدواج، فعدد قليل من كبار المتعاملين كانت لديه حسابات مع أكثر من سمسار. وهناك بعض المتعاملين أيضاً الذين كانت عملياتهم غير ذات أهمية؛ ومع ذلك فإن رقم الـ ٩٥٠٠٠٠ المتعاملين نقداً كان يتضمن بعض المضاربين. فبعض كانوا يسددون كامل ثمن شراء أسهمهم على الرغم من أنهم يضاربون كذلك. وبعض كانوا يقترضون أموالاً من خارج السوق ويضعون الأوراق المالية كرهن. فعلى الرغم من أنهم مسجلون باعتبارهم عملاء شراء نقدي، فهم فى الحقيقة كانوا مشترين بالهامش. وعلى الرغم من ذلك، نستطيع أن نقول مطمئنين إنه فى ذروة ١٩٢٩ كان عدد المضاربين النشطين أقل من - وربما أقل كثيراً - من مليون. وفيما بين نهاية

١٩٢٨ ونهاية يوليو ١٩٢٩ - وهى الفترة التى صور فيها الفلكلور الشعبى الأمريكيين كمندفعين كالقوارض للمشاركة فى السوق - زاد عدد حسابات الشراء بالهامش فى كل بورصات البلاد بأكثر قليلاً من خمسين ألفاً^(١). فالشئ المذهل فى المضاربة فى البورصة فى ١٩٢٩، لم يكن ضخامة حجم المشاركة، ولكنه كان الطريقة التى أصبحت بها المضاربة شيئاً مركزياً فى الثقافة.

- ٦ -

مع نهاية صيف ١٩٢٩، لم تعد نشرات ورسائل السماسرة تقنع بالقول بأى أسهم سوف ترتفع وبأى مقدار؛ فقد ذهبوا إلى القول بأنه فى الثانية بعد الظهر سوف يتم تداول أسهم راديو أو جنرال موتورز^(٢). إن الإيمان الراسخ بأن السوق أصبحت الأداة الشخصية لرجال غامضين ولكنهم قادرون على كل شئ؛ لم تكن فى وقت من الأوقات أقوى منها فى تلك الأيام. والواقع أن تلك كانت فترة من العمليات النشطة - بشكل متزايد - لتكوين الاتحادات والصناديق المشتركة - باختصار فترة للتلاعب "Manipulation" فائئاً ١٩٢٩ كان هناك أكثر من مئة إصدار فى بورصة نيويورك كان محل عمليات تلاعب، شارك فيها أعضاء فى البورصة أو شركاء لهم، وقد تنوعت تلك العمليات بشكل ما، ولكنها اشتركت فى أن عدداً من التجار كونوا صناديق مشتركة كى يرفعوا من قيمة سهم بعينه؛ حيث عينوا مديراً للصندوق وتعهدوا بعدم خيانة أحدهم للآخر من خلال القيام بعمليات خاصة. وأخذ مدير الصندوق موقفاً له فى البورصة كان يمكن أيضاً أن يتضمن أسهماً يشارك فيها الشركاء. وعمليات الشراء التى كان يقوم بها الصندوق كان يمكن أن تؤدى إلى رفع قيمة السهم وتجذب اهتمام الناس الذين يتابعون تغيرات الأسعار عبر البلاد. وكان اهتمام هؤلاء الناس يستثار أكثر نتيجة لعمليات البيع والشراء النشطة التى تعطى كلها انطباعاً بأن هناك شيئاً كبيراً له قيمته، وهنا تقوم الصحف المتخصصة فى أخبار البورصة، والمعلقون المتخصصون

(١) Stock Exchange Practices, Report, 1934, pp. 9, 10.

(٢) Noyes, op. cit., p.328.

فى السوق بالحديث عن تطورات مثيرة مرجحة الحدوث. ولو سار كل شىء كما ينبغى، فسوف يقبل الناس على الشراء، وسوف ترتفع الأسعار نتيجة لذلك، وهنا يقوم مدير الصندوق بالبيع، ويخرج لنفسه بنسبة مئوية من الأرباح، ويقسم الباقي بين مستثمريه (١).

وبينما استمرت هذه الطريقة، لم تكن هناك طريقة أخرى متفق عليها أفضل منها لتكوين الأموال، وقد شعر الناس على نطاق كبير بجاذبية هذه العمليات. ومع انتهاء الصيف، أصبح من المفترض أن وول ستريت لم يعد يهتم كثيراً بشىء آخر. كان هذا نوعاً من المبالغة، ولكنه لم يؤثر سلباً فى النشاط العام فى السوق. لم يعتقد الناس أنهم يُسرقون، ولا هم كانوا يسرقون. فهم ومديرو الصناديق كانوا يكونون الأموال، بفارق واحد هو أن الأخيرين كانوا يريخون أكثر. وعلى أى الأحوال، فقد كان رد فعل الجمهور على بعض العمليات الداخلية هو الأمل فى الحصول على بعض المعلومات الداخلية حول هذه العمليات بما يودى إلى الحصول على حصة من الأرباح التى كان يحققها الرجال الكبار من أمثال كوتن وليفرمور وراسكوب.

حيث وصلت السوق إلى أن تعتبر أقل فأقل؛ تعبيراً عن التوجهات المستقبلية للشركات على المدى الطويل، وأكثر فأكثر تعبيراً عن نوع من الحيل الخداعية، كان المضارب مطالباً بأن يعطى أقصى انتباه، ومن الأفضل أن ينتبه كل الانتباه. العلامات الأولى على النشاط المبكر للصناديق كانت تستوجب ملاحظتها منذ أول لحظاتها الأولى بقدر الإمكان، ما كان يعنى أن المرء كان يحتاج للمتابعة الدائمة لمؤشرات البورصة، ومع ذلك، فإن حتى الشخص الذى كان يعتمد على الحدس أو التعاويذ أو الإيمان المجرد - وليس المعتمد على الاجتهاد فى تقييم نوايا المحترفين - كان يجد من الصعب عليه ألا يتابع المؤشرات. وفيما عدا حالات نادرة جداً فقط، لم يكن ممكناً أن تكون المضاربة نشاطاً لجزء من الوقت. إن المال بالنسبة إلى معظم الناس فائق الأهمية. وفى فقاعة بحر الجنوب لوحظ أن

(١) Stock Exchange Practices, report, 1934, p. 30 ff.

رجال الدولة نسوا سياساتهم، والمحامين نسوا منصاتهم، والتجار نسوا تجارتهم، والأطباء نسوا مرضاهم، وأصحاب المتاجر نسوا متاجرهم، والمدينين الجيدين نسوا دائنيهم، والوعاظ نسوا منابرهم، وحتى النساء أنفسهن نسين زهوهن وخيلاءهن"..^(١) وهكذا كان الأمر في ١٩٢٩: "كانت مكاتب السماسرة مزدحمة منذ العاشرة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر بالعملاء الجالسين أو الواقفين الذين - بدلاً من الذهاب إلى أعمالهم - كانوا يراقبون لوحة الأسعار. في بعض "غرف العملاء" كان من الصعب وصولك إلى مكان ترى منه قوائم الأسعار المعلنة، ولم تكن هناك فرصة لأحد كي يراقب شريط الأسعار"^(٢).

نتج عن ذلك؛ أن أصبح المضارب على غير صلة بالسوق، وباختصار شديد كانت هذه خبرة الأعصاب المتوترة. ولحسن الحظ؛ أن هذا لم يكن ضرورياً في أغلب الأحوال؛ فخدمة التلغراف كانت الآن منتشرة عبر البلاد، وبمكالمة تليفون محلية كان يمكن معرفة آخر الأسعار في كل مكان تقريباً، ولكن رحلة لأوروبا تسببت في قليل من الاستثناءات المزعجة. وكما أشارت صحيفة ذا ليتراي دايجست أثناء فصل الصيف إلى أن "أعمال السمسرة عبر المحيط كانت تنمو بدرجة هائلة ... ولكن كانت هناك فترة فاصلة من عدم التيقن والانزعاج لدى المضاربين عبر المحيط"^(٣). ولكن في أغسطس تضاءلت حتى تلك الفترة الفاصلة، فهناك شركات سمسرة تقدمية (بقيادة إم جى ميهان، المتخصص في أسهم شركة راديو، والمخضرم في عمليات تلاعب مرموقة، أسست فروعاً على سفن كبرى تحت ضوابط خاصة وضعت من قبل البورصة. وفي ١٧ أغسطس، غادرت السفينتان ليفياثان وإل دي فرانس الميناء مجهزتين تماماً للمضاربة في أعالي البحار. وصفت الأعمال على إل في يوم الافتتاح بأنها نشطة، وكانت من أولى العمليات تلك التي قام بها إرفينج برلين الذي باع ١٠٠٠ سهم في شركة باراماونت فيمس لاسكى بسعر ٧٢ دولاراً للسهم (كانت هذه حركة بارعة، حيث

(١) Viscount Erleigh, The South see Bubble (New York: Putnam, 1933), p. 11

Noyes, op. cit., p. 328. (٢)

The Literary Digest, August 31, 1929. (٣)

إن سعر السهم بعد ذلك انخفض إلى لا شيء تقريباً، والشركة وصلت إلى الإفلاس).

في مدينة سبوكين "Spokane" احتفل شاعر مغمور من هيئة تحرير مجلة سبوكسمان ريفيو بمجالس الإدارة المسافرة بحراً بقصيدة جاء فيها:

كنا متزاحمين في الكابينة

نراقب الأرقام على اللوحة

كنا في منتصف الليل فوق سطح المحيط

حين زمجرت عاصفة بصوت عالٍ

.....

صاح القبطان: "نحن تائهون"،

وهو يترنج نازلاً على السلم.

قال متلعثماً: "لقد حصلت على معلومات"،

جاءتني رأساً باللا سلكى

من عمة زميل على صلة قرابة

بابن عم ديورانت

بفعل هذه الكلمات المفزعة ارتعدنا

وأصاب المرض المضارب الشجاع

بينما صاح السماسرة: "مزيداً من البيع بالهامش"

وتوقف التلغراف عن التكتكة

ولكن ابنة القبطان الصغيرة

قالت: "أنا لست أفهم..."

أليس مورجان الذى على سطح المحيط
هو نفسه الذى على الأرض؟^(١)

— ٧ —

كان يوم عيد العمال يوافق النهاية التقليدية لفصل الصيف فى الثانى من سبتمبر ١٩٢٩؛ كانت هناك موجة حر قاسية، وفى مساء يوم العطلة كانت الطرق المحيطة بنيويورك مكتظة لعدة أميال بالسيارات العائدة. وفى النهاية اضطر الكثيرون إلى ترك سياراتهم والعودة إلى بيوتهم بواسطة القطار أو مترو الأنفاق. فى الثالث من سبتمبر، استمرت المدينة تتصيب عرقاً فى يوم وصفه مكتب الأرصاد بأنه أعلى أيام العام حرارة.

بعيداً عن وول ستريت، كان هذا يوماً هادئاً جداً فى وقت شديد الهدوء. وبعد عدة سنوات رجع فردريك لويس ألن إلى صحف تلك الأيام، وفى مقال رائع أخبرنا بكل ما وجد^(٢). لم يكن هناك الكثير. كان خفض التسلع يناقش بالأسلوب نفسه غير المنهجى المعتاد الذى - دون شك - سوف يدمرنا فى النهاية. كان منطاد زيلن يقترب من نهاية أول رحلة له حول العالم. طائرة ذات ثلاثة محركات تابعة لشركة ترانسكونتينتال أير ترانسبورت؛ تحطمت فى عاصفة رعدية فى نيومكسيكو، وقتل ثمانية أشخاص فى الحادث (الشركة قامت مؤخراً فقط بافتتاح خدمة السفر إلى الساحل الغربى فى ٤٨ ساعة: بقطار النوم إلى كولومبس بأوهايو، ثم بالطائرة إلى واينوكا فى أوكلاهوما، ثم قطار النوم مرة أخرى إلى كولفيس فى نيومكسيكو، ثم طائرة فى بقية المسافة). بيب روث سجل ثمانية وأربعين هدفاً حتى الآن خلال هذا الموسم؛ كأفضل الكتب مبيعاً، تقدم كتاب كل شيء هادئ على الجبهة الغربية على كتاب دودسوورث. ملابس النساء كانت لافتة للنظر على نحو لا يقبل الشك دون أن يقول أحد ذلك. أعلن من واشنطن أن هارى إف سنكلير، الموجود آنذاك فى سجن مقاطعة كولومبيا بسبب

(١) Quoted in literary Digest, August 31, 1929.

(٢) "One Day in History", Harper's Magazine, November 1937.

ازدرائه لمجلس الشيوخ فى أثناء التحقيقات فى فضيحة تيبوت دوم(*) "Teapot Dome" سوف يسجن سجننا مشدداً من الآن فصاعداً. وقد كان - فيما سبق - يصطحب يومياً بالسيارة إلى مكتب طبيب السجن حيث يعمل لديه باعتباره مساعد صيدلى. وقد كانت عمليات سنكلير فى البورصة فى وقت سابق من العام على نطاق ضخم، وأصبحت فيما بعد موضوعاً لتحقيقات تفصيلية. ولم يعرف أبداً فيما بعد ما إذا كانت إقامة سنكلير المؤقتة فى واشنطن قد شهدت أى مضايقات. ويبدو من المرجح أن ذلك لم يحدث، فهو كان واحداً من أكثر ممثلى جيله دهاء ومرونة.

فى الثالث من سبتمبر، بلغت المبيعات فى بورصة نيويورك ٤٤٣٨٩١٩ سهماً، وبلغت القروض تحت الطلب ٩٪ طوال اليوم. وكان سعر الخصم على الأوراق التجارية الرئيسية ٦,٥٪ وكان سعر إعادة الخصم لدى بنك الاحتياطى الفيدرالى بنيويورك ٦٪؛ كانت السوق قوية على نحو وصفها مراقبو السوق بأنها كانت معتدلاً.

فى ذلك اليوم، وصلت أميركان تل آند تل إلى ٢٠٤ نقاط. ووصلت يو إس ستيل إلى ٢٦٢ نقطة، وجنرال إلكتريك إلى ٣٩٦ وآى جى كيس إلى ٢٥٠ ونيويورك سنترال إلى ٢٥٦، أما راديو كوربوريشن أوف أميركا فقد وصلت إلى ٥٠٥ .. أرقام قروض السماسرة من الاحتياطى الفيدرالى أظهرت هى أيضاً عندما كشف عنها زيادة ضخمة حيث بلغت ١٢٧٠٠٠٠٠٠ دولار فى أسبوع واحد. بنوك نيويورك أيضاً كانت تقترض بكثافة من الاحتياطى الفيدرالى لكى تقى باحتياجات المضاربة، وقد بلغت الزيادة فى قروضها ٦٤٠٠٠٠٠٠ دولار خلال الأسبوع. فى أغسطس استمر تدفق الذهب من الخارج إلى نيويورك بكميات كبيرة، وفى الشهر الجديد بدأ بداية طيبة، وكانت هناك تعبيرات متعددة عن الثقة.

فى الثالث من سبتمبر؛ كان من المتفق عليه أن سوق المضاربات السعودية الكبيرة فى عشرينيات القرن العشرين قد وصلت إلى نهايتها. الاقتصاد - كعادته

(*) فضيحة رشوة كبرى وقعت فى أوائل عشرينيات القرن العشرين، وأدين فيها وزير الداخلية فى ذلك الوقت ألبرت بى فول. تعد ثانى أكبر وأشهر فضيحة سياسية فى التاريخ الأمريكى بعد فضيحة ووترجيت (المترجم).

- يقدم لنا القليل من نقاط التحول الدراماتيكية، وأحداثه دائماً غائمة وغير محددة. ففى بعض الأيام التالية - فى عدد قليل منها فقط - كانت بعض المعدلات عالية بالفعل، وعلى الرغم من ذلك، فإن السوق لم تعد تعبر أبداً عن ثقتها القديمة. نقاط الذروة التالية لم تكن نقاط ذروة، ولكن توقفات قصيرة على طريق الهبوط.

فى الرابع من سبتمبر، كان صدى السوق لا يزال جيداً، ثم فى الخامس من سبتمبر حدثت انتكاسة؛ حيث هبط مؤشر التايمز للشركات الصناعية بمقدار عشر نقاط، وهبط الكثير من الأسهم بمعدلات أكبر بكثير. الشركات ذات المكانة والسمعة الجيدة حافظت على مكانتها، على الرغم من أن شركة ستيل انخفضت من ٢٥٥ إلى ٢٤٦ نقطة، ووايت وستنجهاوز فقدت سبع نقاط، وتل آند تل فقدت ست نقاط. وزادت أرقام المبيعات بحدة؛ حيث سعى الناس إلى بيع أسهمهم، وتم بيع ٥٥٦٥٢٨٠ سهماً فى بورصة نيويورك.

السبب المباشر للانتكاس كان واضحاً ومثيراً للاهتمام. وقد صرح روجر بابسون قبل مؤتمره السنوى فى الخامس من سبتمبر بأن: "عاجلاً أم آجلاً، هناك انهيار قادم، وقد يكون هائلاً". وقد عبر عن اعتقاده بأن ما حدث فى فلوريدا يمكن أن يحدث فى وول ستريت. وبدقته المعتادة حدد أن مؤشر داوجونز يمكن أن ينخفض بمقدار ٦٠ إلى ٨٠ نقطة. وفى حماسة متفجرة لاحظ أن "المصانع سوف تغلق أبوابها... والرجال سوف يلقي بهم خارج أعمالهم... وسوف تدور الدائرة الخبيثة، وسوف تكون النتيجة كساداً خطيراً فى الأعمال" (١).

وبالتأكيد لم يكن فى هذا ما يطمئن، ولكن المشكلة كانت فى أن السوق لم يكن لديها من داع للالتفات فجأة لما يقوله بابسون، فكما سارع الكثيرون بالقول، قام بابسون بالكثير من التنبؤات من قبل، ولم يكن لها تأثير يذكر فى الأسعار بشكل أو بآخر.. وفوق هذا، فإن بابسون لم يكن بالرجل الذى يوحى بالثقة كنبى ملهم على طريقة إرفينج فيشر أو الجمعية الاقتصادية فى هارفارد، فهو كمعلم،

(١) The Commercial and Financial chronicle, September 7, 1929.

وفيلسوف، وعالم لاهوت، وإحصائي، ومتنبئ، واقتصادي، ومؤيد لقانون الجاذبية، كان ينظر إليه بعض الأحيان على اعتبار أنه يفرض نفسه أكثر من اللازم. كما أن الأساليب التي توصل بها إلى استنتاجاته كانت مشكلة أخرى؛ فقد تضمنت خزعبلات من الخطوط والمساحات على رسم بياني. كما كان للحدس - وربما للأفكار الباطنية - دور في الأمر. وهؤلاء الذين وظفوا الأساليب المنطقية والموضوعية والعلمية كان من الطبيعي ألا يكونوا متسامحين مع بابسون، على الرغم من أن أساليبهم فشلت في التنبؤ بالانهيار، ففي هذه الشؤون - كما في ثقافتنا غالباً - من الأفضل كثيراً جداً جداً أن تكون على خطأ بطريقة محترمة من أن تكون على صواب للأسباب الخطأ.

لم يكن وول ستريت في حاجة للتساؤل عما يمكن أن يفعله بشأن بابسون، فقد أدانه فوراً بقوة ووضوح. وفي مقالها الافتتاحية في ٩ سبتمبر أشارت صحيفة بارونز إليه بسخرية شديدة باعتباره "حكيم ويليلى" وقالت: إنه يجب ألا يؤخذ بجدية من قبل أى شخص مطلع على "أخطائه سيئة السمعة" في تقاريره السابقة. شركة هورنبورور أند ويكس قالت لعملائها بحزم: "يجب ألا نندافع لبيع الأسهم بسبب تنبؤات على غير أساس حول انتكاسة سيئة من قبل إحصائي معروف"^(١). إرفنج فيشر أيضاً أدلى بدلو، حيث لاحظ أن التوزيعات كانت ترتفع، وأن الشكوك حول الأسهم العادية في انحسار، وأن التكتلات الاستثمارية الآن تقدم للمستثمر "تنوعاً واسعاً جيد الإدارة". وكان استنتاجه الخاص هو أن: "قد يكون هناك ركود في أسعار الأسهم، ولكن لا يوجد أى شيء له طبيعة الانهيار"^(٢). متقدماً إلى فكرة مختلفة قليلاً، أخطر تكتل استثماري في بوسطن الجمهور بأنه قد يكون هناك بعض التراجعات البسيطة، ولكن يجب أن ندرك أنه سوف يمر سريعاً. وفي إعلان كبير أشارت إلى أنه "عندما تأتي انتكاسات مؤقتة، فإن انخفاضات المنحنى الصاعد للازدهار الأمريكي، والأسهم كل على حدة، وحتى بالنسبة إلى أنجح الشركات، تهبط مع الاتجاه العام..."، وعلى الرغم من ذلك؛ فقد قرر أيضاً - من ناحيته - إن "مستثمريه في وضع مطمئن".

(١) Quoted in The Wall street journal, September 6, 1929.

(٢) Edward Angly, Oh, Yeah! (New York: Viking, 1931), p. 37.

نكسة بابسون، كما أطلق عليها فى الحال، أتت يوم خميس؛ ثم استعادت السوق توازنها يوم الجمعة. وكانت قوية يوم السبت. وبدا أن الناس قد ارتفعوا فوق مخاوفهم، وبدا أن المنحنى الصاعد سوف يبدأ فى الارتفاع من جديد، كما كان من قبل، وعلى الرغم من السيد بابسون. ثم فى الأسبوع التالى - أسبوع ٩ سبتمبر - بدأت الأسعار تتأرجح من جديد. وفى يوم الاثنين، أشارت التايمز - فى تحذير متشائم سابق لأوانه بكثير - إلى أن النهاية قد أتت، وأضافت: "إنها سمة معروفة جيداً عن أيام الرواج التى نادرا ما تدرك فكرة أنها يمكن أن تكون فى الطريق إلى نهايتها بالطريقة القديمة البغيضة". يوم الأربعاء، كمثال على ابتذال السوق، لاحظت الـ وول ستريت جورنال أن "تحركات الأسعار فى الكتلة الرئيسية من الأسهم استمرت أمس فى التعبير عن سمات توقف مؤقت عن تقدمها الكبير بسبب اختلالات فنية".

التفاوت استمر؛ وفى بعض الأيام كانت السوق قوية. وفى أيام أخرى كانت ضعيفة. وكان الاتجاه متذبذباً لحد ما، ولكن بنظرة إلى ما كان، سنجد بالتأكيد أنها كانت فى هبوط واضح.

كانت تكتلات استثمارية جديدة لا تزال تتكون. وكان مزيد من المضاربين يتدفقون على السوق. وكان حجم قروض السماسرة لا يزال فى ارتفاع حاد. النهاية أتت، ولكنها بعد لم تكن مرئية.

ربما كان الأمر كذلك، ولكن اللحظة الأخيرة من الحياة يجب أن تظل عالقة بالذهن، هذا ما قالتها وول ستريت. وفى ١١ سبتمبر، وكما اعتادت أن تفعل بانتظام، نشرت الـ وول ستريت جورنال حكمة اليوم، وكانت من مارك توين: "لا تذهب بعيداً مع أوهامك، فعندما تذهب هى، قد تبقى أنت موجوداً، ولكنك ستكون قد توقفت عن الحياة".

الفصل الخامس

الانهيار

وفقاً للشكل العام للأحداث، كان الاقتصاد مع قدوم الخريف متوجهاً بقوة إلى الكساد. فى يونيو، كانت مؤشرات كل من الصناعة والإنتاج الصناعى قد وصلت إلى ذروتها ثم أخذت فى الهبوط. بحلول أكتوبر كان مؤشر الاحتياطي الفيدرالى للإنتاج الصناعى متوقفاً عند ١١٧ مقارنة بـ ١٢٦، قبل أربعة أشهر. إنتاج الصلب هبط من يونيو فصاعداً، وفى أكتوبر انخفضت حمولات قطارات شحن البضائع. بناء المنازل - أكثر الأنشطة تقلباً - كان فى حالة هبوط مستمرة لعدة سنوات. وازداد هبوطاً فى ١٩٢٩ وأخيراً هبطت سوق الأوراق المالية. طالب ثاقب البصر كان يدرس السلوك الاقتصادى فى تلك الفترة؛ قال إن هبوط السوق "عكس بشكل أساسى التغير الذى كان ظاهراً بالفعل فى الموقف الصناعى"^(١).

والصورة هكذا، لم تكن البورصة إلا مرآة (ربما كما فى هذا المثال) تقدم - متأخراً لحد ما - صورة للموقف الاقتصادى الأساسى أو "الجوهري". إن السبب والنتيجة ينطلقان من السوق إلى البورصة، وليس العكس مطلقاً. وفى ١٩٢٩؛ كان الاقتصاد متجهاً إلى متاعب، وهذه المتاعب انعكست أخيراً ويعنف على وول ستريت.

(١) Thomas Wilson, *Fluctuation in Income and Employment*, p. 143

فى ١٩٢٩ كانت هناك أسباب قوية، أو على الأقل استراتيجية، لتلك الصورة. ومن السهل أن نفهم لماذا أصبحت عقيدة عليا. ففى وول ستريت، كما فى كل مكان آخر فى ١٩٢٩؛ كان قليل من الناس يريدون كساداً سيئاً. وفى وول ستريت، كما فى كل مكان آخر، كان هناك إيمان عميق بقوة السحر. وعندما انهارت السوق شعر الكثير من مواطنى وول ستريت - فى الحال - بالخطر الحقيقى الذى تمثل فى أن الدخل والتوظيف - الازدهار بشكل عام - سوف يتأثران تأثيراً سلبياً. وكان يجب إيقاف هذا الأمر. وكان السحر الوقائى يتطلب أن يردد أكبر عدد ممكن من الناس المهمين، وبأقصى ما يستطيعون من تأكيد، أن هذا لن يحدث. وقد فعلوا هذا؛ حيث راحوا يشرحون كيف أن البورصة هى مجرد زبد طاف على السطح، وأن المادة الحقيقية للحياة الاقتصادية تكمن فى الإنتاج، والتوظيف، والإنفاق، والتي سوف تظل كلها غير متأثرة. لم يكن أحد يعلم - على وجه اليقين - أن الأمور كانت هكذا بالفعل. وكأداة من أدوات السياسة الاقتصادية، لم يسمح السحر بالقليل من الشكوك أو الوسواس.

فى سنوات الكساد اللاحقة؛ كان من المهم الاستمرار فى التأكيد على عدم أهمية البورصة. لقد كان الكساد تجربة استثنائية من حيث عدم إمكانية الاتفاق حولها. ولم يكن وول ستريت دائماً رمزاً محبباً لحياتنا الوطنية. وفى بعض المناطق المتدينية من البلاد لم يكن ينظر إلى هؤلاء الذين يضاربون على الأسهم - والذين يستخدم فى وصفهم كلمة "المقامرون" المثيرة للاشمئزاز - باعتبارهم من مفاخر مجتمعنا. وأى تفسير للكساد يعطى أهمية لانهايار السوق كان وفقاً لهذا يؤخذ بجدية شديدة، وكان من الممكن أن يسبب متاعب خطيرة لوول ستريت. وول ستريت - من دون شك - كان سيستمر على قيد الحياة، ولكن كانت ستبقى آثار الجروح. ويجب أن نكون واضحين فى أنه لم توجد مؤامرة متعمدة للتقليل من شأن عواقب انهيار وول ستريت على الاقتصاد. لكن كان من الواضح لكل شخص يتمتع بغريزة الحفاظ على الحياة أن وول ستريت كان من الأفضل له أن يبقى بعيداً عن هذه العواقب، ولكنه كان عرضة للتأثر.

الحقيقة أن أى تفسير مرض لأحداث خريف ١٩٢٩ وما تلاها؛ لا بد أن يربط بين الدور الجليل للرواج القائم على المضاربة وبين ما تلاه من انهيار. حتى سبتمبر أو أكتوبر ١٩٢٩ كان الهبوط فى النشاط الاقتصادى بسيطاً جداً. وكما سوف أطرح لاحقاً، فإنه إلى ما بعد انهيار السوق كان يمكن للمرء الافتراض أن حركة الهبوط هذه كان يمكن أن تصحح نفسها بسرعة، كما عكست نفسها حركة مشابهة فى ١٩٢٧ أو كما حدث لاحقاً فى ١٩٤٩؛ حيث لم تكن هناك أسباب لتوقع كارثة. لم يكن أحد يتوقع أن الإنتاج والأسعار والدخول وكل المؤشرات الأخرى يمكن أن تستمر فى الانكماش على مدى ثلاث سنوات طويلة وكثيية. فقط بعد انهيار السوق، كان هناك أساس معقول لافتراض أن الأشياء يمكن الآن أن تصير إلى أسوأ كثيراً لزمن طويل.

بناء على ما سبق؛ فإن الانهيار لم يأت - كما ادعى بعض - لأن السوق أصبحت فجأة واعية بأن كساداً خطيراً فى الأفق. إن أى كساد - خطير أو غير خطير - لا يمكن التنبؤ به عندما تهبط السوق، حيث لا يزال هناك احتمال أن يكون هبوط المؤشرات قد أفزع المضاربين ودفعهم للتخلص من أسهمهم، وهكذا ثقبوا الفقاعة التى كان لا بد - على أى حال - أن تنثقب فى يوم ما. وهذا أكثر معقولة، فربما يكون بعض الناس الذين يتابعون المؤشرات قد اقتنعوا من واقع ملاحظاتهم بالبيع، وقد يكون هذا شجع آخرين على اتباعهم. ولكن هذا لا يهم كثيراً، حيث إنه من طبيعة الرواج القائم على المضاربة أن أى شئ تقريباً يمكن أن يؤدى به إلى الانهيار، فأى صدمة مهمة تصيب الثقة يمكن أن تسبب عمليات بيع من قبل هؤلاء المضاربين الذين أملوا دائماً فى أن يخرجوا من السوق قبل الانهيار النهائى، ولكن بعد أن يجنوا كل ما يمكن جنيه من أرباح ناتجة عن ارتفاع الأسعار، وسوف يعدى تشاؤمهم - هؤلاء الناس - الأكثر بساطة الذين ظنوا أن السوق سوف تظل ترتفع إلى الأبد، ولكنهم الآن سوف يغيرون رأيهم وبييعون. وفى الحال سوف يتم استدعاء الديون المستحقة من عمليات البيع على الهامش، فيضطر آخرون إلى البيع، وهكذا تنفث الفقاعة.

إلى جانب انخفاض المؤشرات، عزا وول ستريت أهمية كبيرة لحدثين آخرين فى انشاء الفقاعة. فى إنجلترا، فى ٢٠ سبتمبر ١٩٢٩ انهارت فجأة شركات كليرنس هارتى. كان هارتى واحداً من تلك الشخصيات غريبة الطبع وغير الإنجليزية التى وجد الإنجليز أنفسهم بشكل متكرر غير قادرين على التعامل معها. وعلى الرغم من أن تاريخه المالى المبكر لم يكن فيه غير ما يطمئن، فقد بنى هارتى فى العشرينيات إمبراطورية صناعية ومالية ذات أبعاد حقيقية مثيرة للإعجاب. كانت نواة هذه الإمبراطورية - أكثر ما يلفت الانتباه - سلسلة من ماكينات البيع الآلى وماكينات التصوير الأوتوماتيكي، ومن هذه المشروعات غير الجذابة تحول إلى التكتلات الاستثمارية والتمويل العالى. وهو يدين بتوسعه - إلى حد كبير - لإصدار أسهم غير مصرح بها، وزيادة قيمة أصوله عن طريق تزوير شهادات بملكية أسهم، وعمليات تمويل غير رسمية أخرى مماثلة. ووفقاً لتقاليد ١٩٢٩؛ يفترض أن افتضاح أمر هارتى فى لندن قد وجه ضربة عنيفة للثقة فى نيويورك (١).

كان فى مرتبة فضيحة هارتى نفسها وفقاً لتلك التقاليد ما حدث يوم ١١ أكتوبر؛ حين رفضت إدارة المرافق العامة فى ماساشوسيتس أن تسمح لشركة بوسطن إديسون بأن تقسم أسهمها بمعدل أربعة إلى واحد. وكما جادلت الشركة فإن هذا النمط من الانقسام كان شائعاً. وكان هذا الرفض غير مسبوق. وفوق هذا، فقد أضافت الإدارة إهانة أخرى بالإعلان عن التحقيق بشأن معدلات أرباح الشركة، وبالإدعاء بأن القيمة الحالية للسهم "نتيجة لممارسات المضاربين" قد وصلت إلى مستوى أن "على أساس أرباح هذا السهم، لا أحد فى تقديرنا يمكن أن يجد فيه ميزة تدفعه لشرائه".

كانت هذه الكلمات غير مألوفة، وكان يمكن أن تكون مهمة، وأن تمثل تعريضاً بكلارنس هارتى، ولكنها كان يمكن أيضاً أن تعبر ضمناً عن أن التوازن غير المستقر قد تزعزع ببساطة بسبب القرار العاجل بالخروج من السوق. وفى ٢٢

(١) اعترف هارتى بأنه مذنب، وفى أوائل ١٩٣٠ حكم عليه بالسجن لمدة طويلة.

سبتمبر حملت الصفحات المالية فى صحف نيويورك إعلاناً عن خدمة استثمارية بعنوان لافت للنظر يقول: "سوق مضاربة سعودية لا تريد أن تنتهى". وجاء فى نص الإعلان: "معظم المستثمرين يربحون المال من سوق للمضاربة السعودية، فقط كى يخسروا كل ما حققوه من أرباح - وأحياناً أكثر مما حققوه - من خلال إعادة التقييم التى تتبع ذلك لا محالة". وبدلاً من الانخفاض فى مؤشر الاحتياطى الفيدرالى للشركات الصناعية، أو فضح هارتى، أو المكابرة غير الطبيعية من قبل إدارة المرافق العامة فى ماساشوستس، كان يمكن لمثل هذه الأفكار أن تثير أولاً العشرات ثم المئات وأخيراً الآلاف من المشاعر التى تضع أخيراً نهاية للرواج، أما ما أثار فى البداية هذه الشكوك فنحن لا نعرفه، ولا هو من المهم كثيراً أن نعرف.

- ٢ -

الثقة لم تتبدد فى الحال. فكما لوحظ خلال سبتمبر وحتى أكتوبر، وعلى الرغم من اتجاه السوق عموماً للهبوط، فقد جاءت أيام حسنة مع الأيام السيئة. كان حجم التعامل كبيراً، وفى بورصة نيويورك كانت المبيعات دائماً تقريباً تتجاوز الأربعة ملايين، ومن حين لآخر فوق الخمسة ملايين. وفى سبتمبر ظهرت إصدارات جديدة أكبر حتى من حجم إصدارات أغسطس، وكانت بانتظام تطلب علاوة إصدار فوق السعر الأساسى. وفى ٢٠ سبتمبر؛ لاحظت التايمز أن سهم ليمان كوبوريشن الذى أصدر مؤخراً وعرض مقابل ١٠٤ دولارات قد بيع مقابل ١٢٦ دولاراً فى اليوم السابق (فى حالة هذا التكتل الاستثمارى حسن الإدارة لم يكن حماس الجمهور مضملاً تماماً). خلال سبتمبر زادت قروض السماسرة بمقدار ٦٧٠ مليون دولار محققة أكبر زيادة فى أى شهر حتى ذلك اليوم، وقد أظهر هذا أن الحماس للمضاربة لم ينكمش.

كانت هناك علامات أخرى تشير إلى أن آلهة العصر الجديد لا تزال قائمة فى معابدها. عدد ١٢ أكتوبر من جريدة سترداى إفينينج بوست تضمن مقابلة أجراها إسحق إف ماركوسون مع إيفر كروجر. وكان هذا سبقاً صحفياً، حيث كان

يصعب على الصحفيين فيما سبق الوصول إلى كروجر. كان كروجر - هكذا لاحظ ماركوسون - "مهندساً مثل هوفر. وكانت لديه على الدوام دقة المهندس التنفيذي في تحقيق الترابط داخل أعماله المترامية الأبعاد". ولم يكن هذا هو التشابه الوحيد، فقد أضاف الكاتب: "إن كروجر مثل هوفر يحكم بعقلانية خالصة".

خلال الحوار كان كروجر صريحاً بشكل ملحوظ في نقطة بعينها، فقد قال للسيد ماركوسون: "أياً ما كان النجاح الذي وصلت إليه فإنه ربما يعود إلى ثلاثة أشياء: أحدها هو الصمت، والثاني هو المزيد من الصمت، بينما الثالث هو أيضاً مزيد من الصمت". هكذا كان. وبعد سنتين ونصف السنة أقدم كروجر على الانتحار في شقته بباريس، وعقب ذلك بقليل اكتشف أن نفوره من الكشف عن المعلومات - خاصة إذا كانت دقيقة - أبقي حتى معظم علاقاته الشخصية مجهولاً في أكبر عملية احتيال في التاريخ. حتى ضامنيه الأمريكيين المشهورين بالاحترام، شركة لي، هيجنسسون أند كامباني من بوسطن، لم يسمعو أو يعرفوا عنه أى شيء. وقد كان أحد أعضاء هذه الشركة هو دونالد ديورانت عضواً في مجلس إدارة شركات كروجر، ولم يسبق له مطلقاً أن حضر اجتماعاً لمجلس الإدارة، وقد كان من المؤكد أنه لم يكن من الأفضل له فعل ذلك.

خلال الأسابيع الأخيرة من أكتوبر قدمت مجلة تايم أيضاً - التي كانت لا تزال مجلة شابة غير عليمه ببواطن الأمور - كروجر على غلافها باعتباره "المعجب الكبير بسيسيل رودس" (*) "Cecil Rhodes" ثم بعد ذلك بأسبوع، وكأنما لتؤكد إيمانها بالعصر الجديد، قدمت صمويل إنسول "Samuel Insull" (**) بعد أسبوعين آخرين، وبعد تبدد أوهامها الشبابية، أعطت المجلة الإخبارية الأسبوعية هذا الشرف التاريخي لواردن لاوس نزيل سجن سينج سينج "Sing Sing" (***) في تلك

(*) سيسيل رودس: محام ورجل أعمال جنوب إفريقي، بريطاني المولد. عرف بميوله العنصرية ضد السود. مؤسس جمهورية روديسيا التي استمدت اسمها من اسمه (المترجم).

(**) صمويل إنسول (١٨٥٩ - ١٩٢٨) رجل أعمال أمريكي اشتهر بريادته في الاستثمار في مشروعات البنية الأساسية. (المترجم).

(***) سجن في ولاية نيويورك يتصف بالصرامة الشديدة في معاملة النزلاء (المترجم).

الأيام الصيفية الحارة نفسها، أبرزت وول ستريت جورنال الإعلان الرسمي بأن أندرو ميلون سوف يبقى فى مجلس الوزراء حتى ١٩٣٢ على الأقل (كانت هناك شائعات بأنه قد يستقيل)، وعلقت قائلة: "التفاؤل يسود من جديد... الإعلان ... فعل الكثير من أجل استرداد الثقة أكثر من أى شىء آخر". فى ألمانيا، أعلن تشارلز إى ميتشل أن الأحوال الصناعية فى الولايات المتحدة جيدة تماماً. وأعطى نفس هذا الاهتمام الكبير جداً لقروض السماسرة قائلاً "لا شىء يستطيع أن يعوق الحركة للأمام". وفى الخامس عشر من أكتوبر، حيث أبجر عائداً إلى الوطن، أسهب فى النقطة التالية: "الأسواق الآن بوجه عام فى حالة سليمة... الأسعار تقوم على أساس جيد من الازدهار العام فى بلادنا". فى هذا المساء نفسه، أعلن البروفيسور إرفينج لافيشر إعلانه التاريخى عن المستوى العالى على الدوام، وأضاف: "أنا أتوقع أن أرى البورصة فى حالة أجود مما هى عليه الآن خلال أشهر قليلة". والواقع أن الشىء الوحيد المزعج فى تلك الأيام من أكتوبر كان الهبوط المطرد بوضوح فى السوق.

- ٣ -

يوم السبت التاسع عشر من أكتوبر، أفادت الرسائل الواردة من واشنطن بأن وزير التجارة لامونت كان يواجه مشكلة فى الحصول على ١٠٠,٠٠٠ دولار من الميزانية العامة؛ من أجل صيانة اليخت كورسيير Corsair الذى أهده جى بى مورجان للحكومة. (خسارة مورجان لم تكن كبيرة، حيث كان هناك كورسيير جديد بثلاثة ملايين دولار يجرى إعداده فى باث بولاية مين). كان هناك المزيد من المؤشرات الأخرى المؤكدة على تقشف غير معتاد. الصحف أشارت إلى سوق ضعيفة جداً فى اليوم السابق، وكان هناك انخفاض كبير فى العمليات المسائية^(٥) Late Trading وهبط مؤشر التايمز للشركات الصناعية بمقدار سبع نقاط. شركة ستيل فقدت سبع نقاط، وكل من وستنجهاوز ومونتجرى وارد وجنرال إلكتريك فقدت ست نقاط. فى الوقت نفسه كانت السوق فى ذلك اليوم

(٥) عمليات تداول غير مشروعة فى الأسهم والسندات تتم بعد مواعيد العمل الرسمية فى البورصة بغرض تحقيق أرباح استثنائية (الترجم).

تسلك مسلكاً غاية في السوء. ففي ثاني أكثف تعاملات يشهدها يوم سبت في التاريخ تم تداول ٢٨٨١٠٠ سهماً. في نهاية اليوم انخفض مؤشر التايمز للشركات الصناعية بمقدار ١٢ نقطة. أسهم الشركات الكبرى المتميزة حققت خسائر كبيرة، والأسهم المفضلة لدى المضاربين هبطت.. جى آى كيس على سبيل المثال هبطت بمقدار ٤٠ نقطة كاملة.

يوم الأحد، كانت أخبار السوق تنصدر الصحف. كان مانشيت صحيفة التايمز يقول: "الأسهم تهبط حيث ابتلعت السوق موجة من البيع". وفي اليوم التالي كتب المحرر المالي ربما للمرة العاشرة أن النهاية قد أتت (ومع ذلك فقد تعلم أن يتحفظ حيث قال: "على أى الأحوال فقد جاء الوقت الذى يبدو فيه أن وول ستريت يرى حقائق الأشياء"). ولكن لم يبد أن هناك تفسيراً سريعاً للهبوط. الاحتياطي الفيدرالى ظل هادئاً لفترة طويلة. بابسون لم يقل شيئاً جديداً. هاترى وإدارة المرافق العامة فى ماساشوستس كانا متأخرين عن الأحداث فيما بين أسبوع وشهر، وقد قدما تفسيرات لاحقاً فقط.

حملت صحف هذا الأحد ثلاثة تعليقات قدر لها أن تصبح شائعة فى الأيام التالية؛ حيث لوحظ أنه بعد مبيعات يوم السبت لم يحدث إلا القليل جداً من الاستدعاء الهامشى (*) Margin Call وقد كان معنى هذا أن قيمة السهم الذى يحملة المشتري بالهامش قد انخفضت إلى درجة أنه لم يعد يمثل ضماناً كافياً بالنسبة إلى القرض الذى منح لشرائه، وكان المضاربون يطالبون بالمزيد من النقود السائلة.

الملاحظتان الأخريان كانتا أكثر طمأننة؛ فقد اتفقت الصحف - وكانت هذه أيضاً • وجهة النظر المعلنة لـ وول ستريت - على أن أسوأ الأحوال قد مرت. وكان المتوقع هو أن السوق فى اليوم التالى سوف تبدأ فى تلقى دعماً منظماً، لقد كان يجب أن يكون واضحاً أنه لم يعد من الممكن الاستمرار فى التسامح حيال الضعف.

(*) مطالبة سمسار الأوراق المالية لعملائه الذين يحملون أوراقاً مالية مشترة بالهامش؛ بإيداع مبالغ إضافية لرفع نسبة الهامش المدفوع نقداً. تحدث هذه المطالبات عادة عند انخفاض القيمة السوقية للأوراق المالية المشترة بالهامش (المترجم).

لم تكن هناك مطلقاً عبارة أكثر سحراً من "الدعم المنظم". فى الحال تقريباً؛ أصبحت هذه العبارة على كل لسان وفى كل تحقيق صحفى عن السوق. لقد كان الدعم المنظم يعنى أن أشخاصاً أقوياء سوف يقومون بترتيبات للحفاظ على أسعار الأسهم فى مستوى معقول. وقد اختلفت الآراء حول من سينظم هذا الدعم. فكر بعض فى كبار المتعاملين فى البورصة من أمثال كوتن وديورانت وراسكوب، فهم - من دون كل الناس - لا يستطيعون تحمل حدوث انهيار. بعض فكر فى المصرفيين، فتشارلز ميتشيل فعل هذا مرة من قبل، ومن المؤكد أنه سوف يفعله مرة ثانية لو ساءت الأمور. بعض آخر فكر فى تكتلات الاستثمار، فهى تحتفظ بحافضة من الأسهم العادية، وهم بالتاكيد لا يستطيعون تحمل انخفاض أسعار هذه الأسهم، وهم أيضاً يحتفظون بسيولة مالية. وهكذا، لو انخفضت أسعار الأسهم، يمكن لهذه التكتلات أن تتلقف الصفقات من السوق؛ وهذا معناه أن الصفقات لن تستمر طويلاً. وحيث إن كثيراً من الناس كانوا يريدون تجنب مزيد من الهبوط، فإن مزيداً من الهبوط بالتاكيد سوف يتم تجنبه.

فى الأسابيع التالية؛ كان صمت يوم الأحد يحمل اتجاهاً ملحوظاً لتفريخ القلق والشكوك والتشاؤم واتخاذ قرار يتم تنفيذه يوم الاثنين؛ ويبدو أن هذا هو بالتأكيد ما حدث يوم الأحد ٢٠ أكتوبر.

- ٤ -

الاثنين ٢١ أكتوبر؛ كان يوماً بائساً جداً، وصلت فيه المبيعات إلى ٦٠٩١٨٧٠ سهماً، أى ثالث أكبر حجم مبيعات فى التاريخ. وتوصل عشرات الآلاف ممن كانوا يراقبون السوق عبر البلاد إلى اكتشاف مزعج. لم تكن هناك طريقة لإخبار الناس بما كان يحدث. فيما سبق، فى أيام المضاريات الكبرى على صعود الأسعار، كانت المبرقة تعجز عن ملاحقة التغيرات فى الأسعار. ولم يكن المرء يستطيع أن يكتشف كم أصبح أكثر ثراء إلا بعد أن تغلق السوق أبوابها، ولكن الخبرة مع سوق تنازلية كانت أكثر محدودية بكثير. ومنذ مارس لم تفشل المبرقة جدياً فى ملاحقة الأسعار المستمرة فى الهبوط. الكثيرون الآن عرفوا للمرة

الأولى أنهم يمكن تدميرهم، تماماً وللأبد. وحتى لو لم يدمروا، فقد كان هناك اتجاه قوى لتصور ذلك. منذ افتتاح يوم ٢١ والمبرقة متخلفة عن ملاحقة الأسعار، ومع الظهيرة كانت متأخرة ساعة كاملة، وإلى ما بعد مرور ساعة وأربعين دقيقة بعد إغلاق السوق لم تكن قد سجلت آخر المعاملات. كل عشر دقائق كانت أسعار أسهم مختارة تطبع بواسطة المبرقة، ولكنها لم تكن تضيف إلا المزيد من القلق، والمزيد من الاقتناع الراسخ بأن البيع قد يكون أفضل شيء.

على الرغم من أن الأمور كانت سيئة، فإنها كانت لا تزال غير ميئوس منها. وقرب نهاية تعاملات يوم الاثنين تحسنت السوق، وكانت الأسعار النهائية أعلى من الأسعار المنخفضة خلال اليوم، كما كانت الخسائر الصافية أقل من خسائر يوم السبت. الثلاثاء شهد تحسناً متذبذباً، وكما حدث غالباً في السابق، أسفرت السوق عن قدرتها على التحسن. وأصبح الناس مستعدين للتعامل مع هذه التجربة كمجرد انتكاسة أخرى مثل انتكاسات كثيرة سابقة.

بينما كان الناس على هذه الحال، أتهم المساعدة من الرجلين اللذين كانا يعتبران يومئذ نبى وول ستريت الرسميين. يوم الاثنين في نيويورك، قال البروفيسور فيشر إن الهبوط كان يمثل فقط "تذبذباً على هوامش غبية"، ثم تطرق إلى تفسير السبب في أنه شعر بأن أسعار الأسهم في أثناء الرواج لم تكن منحصرة في قيمها الحقيقية وارتفعت لأكثر من تلك القيم. فمن بين أشياء أخرى، إن السوق لم تصل بعد إلى أن تعكس الآثار الإيجابية لحظر إنتاج وبيع الخمور^(٥) "Prohibition" الذي جعل العامل الأمريكي "أكثر إنتاجية ويمكن الاعتماد عليه أكثر".

يوم الثلاثاء، تشارلز إى ميتشيل أدلى بدلوه في نيويورك بملاحظة أن "الهبوط ذهب بعيداً جداً"، (الزمن وجلسات متعددة في الكونجرس ووقائع محاكمات كانت كافية لأن تبين أن ميتشيل كانت لديه أسباب شخصية قوية تجعله يحس

(٥) إشارة إلى حظر إنتاج الخمور ونقلها وبيعها وتعاطيها وتصديرها واستيرادها في الولايات المتحدة من سنة ١٩١٩ حتى ١٩٣٣ (المترجم).

بهذا الشعور؛ ثم أضاف أن الأحوال كانت "جيدة من حيث الأساس". وقال ثانية: إن اهتماماً كبيراً جداً قد أعطى للحجم الكبير لقروض السماسرة، واستنتج أن الموقف كان يمكن أن يصحح نفسه بنفسه لو ترك لشأنه، وعلى الرغم من ذلك فقد صدر عن بابسون اقتراح يتنافى مع ذلك بشكل صارخ، فقد أوصى ببيع الأسهم وشراء الذهب.

يوم الأربعاء ٢٣ أكتوبر، تبدد بشكل ما أثر هذا التهليل، فبدلاً من مزيد من التحسن كانت هناك خسائر ثقيلة. كان الافتتاح هادئاً بدرجة كبيرة، ولكن مع تقدم ساعات الصباح كانت الأسهم تباع بكثافة، وبدأ الحجم يزداد تدريجياً. وكانت الساعة الأخيرة استثنائية؛ حيث تم تداول ٢٦٠٠٠٠٠ سهم بأسعار سريعة الهبوط.. وانخفض مؤشر التاييمز للشركات الصناعية خلال اليوم من ٤١٥ إلى ٣٨٤ فاقداً كل ما حققه من ارتفاع منذ يونيو الماضى. تل أند تل فقدت ١٥ نقطة، جنرال إلكتريك فقدت ٢٠ وستنجهانس ٢٥، جى آى كپس فقدت ٤٦، وعادت المبرقة ثانية للتأخر عن ملاحقة تحركات الأسعار، وكى تزيد من حالة عدم اليقين تسببت عاصفة ثلجية فى الغرب الأوسط فى تعطل واسع الانتشار فى الاتصالات. بعد الظهيرة وفى المساء قرر الآلاف من المضاربين الخروج من السوق؛ بينما كان الأفضل لهم (كما اعتقدوا مخطئين) البقاء. آلاف آخرون أخبروا بأنه لا خيار لهم إلا الخروج إلا إذا قدموا مزيداً من الضمانات، حيث إنه ما إن أتت نهاية اليوم كان هناك حجم غير مسبوق من الاستدعاء الهامشى. أما عن الحديث فى واشنطن، فقد أصبح حتى البيروفييسور فيشر بالتدريج أقل تفاؤلاً، فقد أخبر اجتماعاً للمصرفيين بأن "قيم الأوراق المالية فى معظم الجالات لم تكن متضخمة"؛ ولكنه مع ذلك لم يقلل من المزايا غير المرئية لحظر إنتاج وتناول الخمر.

الصحف الصادرة فى تلك الليلة؛ ألحت على الحديث عن تذكّار من عصر آخذ فى الرحيل بسرعة. وكانت هناك إعلانات ضخمة عن حقوق اكتتاب فى عرض حول إصدار جديد لشهادات استثمار فى شركة أكتيبيولاجيت كرونجر أند تول

بسعر ٢٣ دولاراً وكان هناك أيضاً شيء من التهليل. كما كان من المتوقع أن تبدأ السوق في الغد في تلقي "دعم منظم".

— ٥ —

الخميس ٢٤ أكتوبر؛ كان أول يوم يحدد فيه التاريخ بداية رعب ١٩٢٩، وبالمقياس على ما شهدته اليوم من فوضى وفزع وارتباك؛ فهو يستحق أن يشار إليه بهذا الوصف. في هذا اليوم تم تداول ١٢٨٩٤٦٥٠ سهماً، الكثير منها بأسعار حطمت أحلام وآمال هؤلاء الذين يملكونها. من بين كل أغاز البورصة لا يوجد ما هو أكثر استعصاء على الفهم من السبب الذي أوجد مشترياً مقابل كل من يسعى للبيع. إن يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٢٩؛ يبين أن ما كان لغزاً غامضاً لم يكن حتمياً، حيث لم يعد هناك في الغالب مشترون؛ ولكن فقط بعد هبوط حاد كبير كان يمكن لأي شخص التقدم للشراء.

لم يستمر الرعب طوال اليوم، فقد كان ظاهراً لساعات الصباح. فافتتاح السوق لم يكن صادمًا، ولبعض الوقت كانت الأسعار متماسكة، ومع ذلك كان حجم التعامل كبيراً جداً، وفي الحال بدأت الأسعار في الانخفاض. ومرة أخرى بدأت المبرقة تتخلف عن ملاحقة التغيير في الأسعار. وبدأت الأسعار تنخفض أكثر وأسرع، وتخلفت المبرقة أكثر وأكثر. في الحادية عشرة تدهورت السوق إلى حالة من الاندفاع الوحشي والمجنون إلى البيع. في غرف مجالس الإدارة المزدحمة عبر البلاد أشارت البرقيات إلى انهيار مفزع؛ ولكن قوائم الأسعار المختارة الآتية عبر المبرقة أظهرت أيضاً أن القيم الحالية كانت منخفضة جداً عن أي قيم سجلتها من قبل على الإطلاق. عدم اليقين دفع المزيد والمزيد من الناس إلى محاولة البيع، وآخرون لم يعودوا يستطيعون قادرين على تلبية الاستدعاء الهامشي فلبجئوا لبيع كل ما يملكون. في الحادية عشرة والنصف، استسلمت السوق لخوف أعمى لا يرحم؛ هذا حقاً كان الرعب.

خارج البورصة في شارع "برود" كان يسمع زئير غريب، حيث تجمع عدد كبير من الناس، وأصبح مفوض الشرطة جروفر والين مدركاً لأن هناك شيئاً يحدث،

وأوفد قوة خاصة من الشرطة إلى وول ستريت كى تحفظ السلم. مزيد من الناس حضروا وانتظروا، على الرغم من أن أحدا فيما يظهر لم يكن يعرف ماذا ينتظرون، وعندما ظهر رجل أعلى أحد المباني كان يقوم ببعض الإصلاحات، افترض الحشد الجامع أن الرجل بسبيله للانتحار، ووقفوا ينتظرون من دون صبر قفزه فى أى لحظة. تكونت التجمعات أيضاً حول المكاتب الفرعية لشركات السمسرة عبر المدينة، أو فى الواقع عبر البلاد. الجديد مما كان يحدث - أو ما كان يعتقد أنه يحدث - كان يأتى من خلال لوحة تحركات الأسعار أو شرائط المبرقة. وقد لاحظ أحد المراقبين أن لسان حال الناس كان يقول: "ليس هناك ما يبعث على المعاناة مثل الشك المرعب"^(١). شائعة بعد شائعة سرّيت فى وول ستريت وأصقاعه البعيدة. الأسهم أصبحت الآن تباع مقابل لا شىء. بورصتا شيكاغو وبنسلفانيا أغلقتا.. موجات من الانتحار كانت تتعاقب، وأحد عشر مضارباً معروفًا قتلوا أنفسهم.

فى الثانية عشرة والنصف؛ أغلق المسئولون عن بورصة نيويورك مقتصرة الزواردون هذه المشاهد الشاذة التى كانت تحدث بالأسفل. وكان أحد الزوار الذين غادروا لتوهم يستعرض قدرته المرموقة على التأثير فى مجريات التاريخ. إنه وزير المالية البريطانى السابق السيد ونستون تشرشل. لقد كان هو الذى أعاد بريطانيا سنة ١٩٢٥ إلى قاعدة الذهب والجنيه الإسترليني مرتفع القيمة. وبناء عليه فقد كان هو المسئول عن المشكلات التى أرسلت مونتاجو نورمان للتسول فى نيويورك طلباً لأموال سهلة، مما ساعد فى تسهيل الائتمان فى الوقت القاتل، مما تسبب بدوره - من وجهة النظر الأكاديمية تلك - فى الرواج. تشرشل الآن - كما يمكن أن يتصور - كان يعاين إنجازاته الضخمة.

لا يوجد دليل مسجل على أن أحدا وجه اللوم إلى تشرشل، فالالاقتصاد لم يكن مطلقاً نقطة قوته، ولهذا (ومن باب الحكمة)، يبدو من غير المرجح أنه هو نفسه قد وجه اللوم إلى نفسه.

Edwin Levevre, "The Little Fellow in Wall Street," The Saturday Evening Post, January 4, (١) 1930.

فى نيويورك على الأقل؛ توقف الرعب عند الظهيرة حيث ظهر الدعم المنظم، ففى الثانية عشرة علم مراسلون صحفيون أن اجتماعاً كان منعقدًا فى ٢٣ وول ستريت بمكتب جى بى مورجان آند كومبانى. وسرت المعلومات بسرعة عمن كان يحضر الاجتماع: تشارلز إى ميتشيل رئيس مجلس إدارة ناشونال سیتی بانك، ألبرت إتش ويجن رئيس تشيز ناشونال بنك، وليم سى بوتر رئيس جورانتى ترست كومبانى، وسيوارد بروسر رئيس بنكرز ترست كومبانى، والمضيف توماس دبليو لامونت الشريك الرئيسى فى شركات مورجان. وفقًا لما جاء بالأساطير، يقال إنه فى أثناء رعب ١٩٠٧ أوقف مورجان الكبير النقاش الدائر حول ما إذا كان يتعين إنقاذ شركة ترست كومبانى أوف أمريكا المترنحة قائلاً: إنه المكان الذى يمكن منه إيقاف الرعب، وقد أوقف. والآن بعد مرور ٢٢ سنة كان يعاد تمثيل الدراما نفسها. مورجان الكبير قد مات، وابنه كان فى أوروبا، ولكن كان هناك رجال يتمتعون بالإصرار نفسه. لقد كانوا أكبر المالىين فى البلاد. لم يكونوا بعد قد أصبحوا مسارا للسخرية والمعايرة من قبل أنصار العقد الجديد "New Dealer"، وكانت الأنباء القوية حول أنهم سيتصرفون كفيلة بأن تحرر الناس من حالة الخوف التى استسلموا لها.

وقد حدث، فقد تم التوصل بسرعة إلى قرار بدمج الموارد من أجل دعم السوق^(١). انفض الاجتماع واجتمع توماس لامونت مع مراسلى الصحف، وقد وصف أسلوبه بأنه كان متحفظًا ولكن كلماته كانت مطمئنة. وفيما أطلق عليه فردريك لويس ألين فيما بعد أنه كان أكثر تصريحات ذلك الوقت تهوينا^(٢)، أخبر

(١) الكميات التى تمت المشاركة بها أو إيداعها لم تحدد قط. فردريك لويز ألين Only يقول: إن كلا من المؤسسات - بما فى ذلك جورج إف بيكر جى آر - التى 30 - 329 pp Yesterday شاركت فى هذا الصندوق شاركت بمبلغ ٤٠ مليون دولار، ولكن مجموع هذه المشاركات (٢٤٠ مليون دولار) تبدو كبيرة لدرجة غير معقولة. وقد قدرت نيويورك تايمز لاحقاً (٩ مارس ١٩٢٨) أن المبلغ الإجمالى كان بين ٢٠ مليوناً و ٢٠ مليون دولار.

(٢) Op., cit., p. 330.

لامونت مراسلى الصحف بأن "توجد محنة بيع صغيرة فى البورصة"، ثم أضاف:
إن هذه المحنة كانت "تعزى إلى ظروف فنية متعلقة بالسوق" أكثر من أى سبب
جوهري. كما أخبر الصحفيين بأن الأمور كانت "قابلة للتحسن"، لقد ترك
انطباعاً بأن رجال المصارف قد قرروا فعل شئ يحسن من الأمور.

وصلت الأنباء إلى صالة البورصة بأن رجال المصارف كانوا مجتمعين، وحملت
برقيات الأنباء هذه الكلمات السحرية بعيداً. تماسكت الأسعار وبدأت فى
الصعود، ثم فى الواحدة والنصف ظهر ريتشارد ويتنى فى الصالة وتوجه إلى
المكان الذى كان يتم فيه التعامل على أسهم شركة ستيل، وربما كان ويتنى أكثر
الشخصيات شهرة داخل الصالة، فقد كان واحداً من الرجال ذوى الخلفية الجيدة
والتعليم المناسب الذين كان يتوقع لهم - فى ذلك الوقت - تولى زمام الأمور فى
البورصة. وكان فى ذاك الوقت نائباً لرئيس البورصة، ولكن فى غياب إى إتش
إتش سيمونز فى هاواى كان هو يقوم بدور الرئيس الفعلى. ولكن ما كان أكثر
أهمية بكثير فى تلك اللحظة هو أنه كان معروفاً باعتباره منفذاً لعمليات شركات
مورجان، والواقع أن أخاه الكبير كان شريكاً لمورجان.

حيث شق ويتنى طريقه وسط الزحام الشديد، كان يبدو عليه الابتهاج والثقة
بالنفس، وقد وصف بعض - فيما بعد - أسلوبه بأنه كان مرحاً (شركته الخاصة
كانت تتعامل إلى حد كبير فى السندات، ولهذا كان من المرجح أنه لم يكن طرفاً
فى اضطراب ذلك الصباح). وفى المكان الذى كان يتم فيه التعامل على أسهم
شركة ستيل طلب شراء ١٠٠٠٠ سهم بسعر ٢٠٥ دولارات. كان هذا هو آخر سعر
بيع، ولكن عروض الشراء الحالية كانت أقل من ذلك بعدة نقاط. وفى عملية
مجردة تماماً من التحسب التجارى حصل على مئتى سهم وترك بقية الطلب مع
المتخصص. استمر ويتنى فى طريقه منفذا طلبات مشابهة على خمسة عشر أو
عشرين سهماً.

هكذا كان الأمر، حيث تحرك المصرفيون بوضوح، وسرى التأثير سريان
الكهرباء، تلاشى الخوف وأخلى مكانه للقلق خشية فقدان فرصة التحسن
الجديد، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً كبيراً.

نجح المصرفيون - فى الواقع - فى تحقيق انقلاب ملحوظ، فعندما هبطت الأسعار فى الصباح بدأت سلسلة من أوامر البيع بكميات كبيرة وفقاً لتقلبات الأسعار - وكانت أوامر البيع تصدر كلما وصلت الأسعار إلى مستوى معين. وقد قام السماسرة بإصدار تلك الأوامر لحماية أنفسهم بالنسبة إلى الأسهم الخاصة بالعملاء الذين لم يستجيبوا للدعوة لزيادة الهامش. وكل أمر من أوامر البيع تلك الهادفة لتوقى الخسارة كان يلقي بالمزيد من الأسهم فى السوق ويؤدى بالأسعار إلى مزيد من الانخفاض، وكانت كل نوبة من نوبات التسييل تؤدى إلى نوبة تالية. لقد كان هذا هو التفاعل المتسلسل - بالمعنى الحرفى - الذى كبجه رجال المصارف، وقد كبجوه بحزم.

فى ساعة إقفال البورصة، أدت أوامر بيع مستمرة فى الوصول من أنحاء البلاد إلى العودة بالسوق إلى حالة هشّة من جديد.. ومع ذلك فإن تعافى البورصة فى يوم الخميس الأسود، وبطريقتها الخاصة، كان شيئاً جديراً بالانتباه مثله مثل البيع الذى جعله بهذا السواد. مؤشر التايمز للشركات الصناعية انخفض بمقدار ١٢ نقطة فقط، أى أكثر قليلاً من ثلث الانخفاض الذى شهدته فى اليوم السابق. سهم شركة ستيل الذى اصطفاه ويتى كى يبدأ به عملية الإحياء افتتح ذلك اليوم بسعر ٢٠٥,٥؛ بأعلى بنقطة أو نقطتين من سعر إقفال اليوم السابق. وفى أدنى سعر له وصل إلى ١٩٣,٥ فاقدًا ١٢ نقطة (١)، ثم عاد ليرتفع عند الإغلاق إلى ٢٠٦ نقاط ليحقق ارتفاعاً مدهشاً وصل إلى نقطتين لذلك اليوم. مونتجمرى وارد الذى افتتح بسعر ٨٣ وانخفض إلى ٥٠، عاد إلى ٧٤؛ جنرال إلكتريك وصل فى لحظة معينة إلى سعر أدنى من سعر الافتتاح بـ ٣٢ نقطة، ثم عاد ليصبح أقل بـ ٢٥ نقطة. خارج السوق، افتتح جولدمان ساكس تريدينج كوربوريشن بسعر ٨١ وهبط إلى ٦٥ ثم عاد إلى ٨٠، جى آى كيس الشهيرة بغرابة أطوارها التى قادتها إلى المخاطرة برأسمال كبير فى مجال صناعة ماكينات الدراس حقق سهمها ارتفاعاً صافياً قدره سبع نقاط فى ذلك اليوم. كان لدى الكثير أسباب معقولة لي شعروا بالامتنان تجاه الزعماء الماليين لولول ستريت.

(١) قوائم الأسعار كانت تدور فى المعتاد حول أقرب رقم إجمالاً فى ذلك التاريخ، ولكن سعر ستيل فى هذا اليوم يبدو أنه كان يمثل استثناء.

من المؤكد أنه لم يكن بمستطاع الجميع أن يكونوا ممتنين، فعبر البلاد كان الناس يلمسون التحسن على نحو طفيف. ففي بدايات فترة ما بعد الظهر، عندما بدأت السوق في التحسن، كانت المبرقة متأخرة بعدة ساعات. وعلى الرغم من أن محتوى قوائم الأسعار التي كانت تنتظر دورها كانت تشير إلى التحسن، فإن المبرقة نفسها استمرت تدمم بأكثر الأنباء كآبة. وأنباء المبرقة هي ما كان يؤخذ في الحسبان. وبالنسبة إلي الكثير جداً من المراقبين كان ذلك يعنى أنهم فقدوا كل شيء وأن حلمهم - في الحقيقة واقعهم المحدد - في الرخاء قد ذهب بسرعة البرق، أخذاً معه البيت، السيارة، الفراء، المجوهرات، السمعة. وكون أن السوق بعد أن حطمتهم قد تحسنت كان أكثر ما تقشعر له الأبدان.

كانت الساعة قد بلغت السابعة وثمانية دقائق ونصف الدقيقة من مساء ذلك اليوم؛ عندما أنهت المبرقة تسجيل ما شهدته اليوم من سوء الحظ. في غرف الاجتماعات كان المضاربون الذين فقدوا كل شيء منذ الصباح يجلسون صامتين يراقبون شريط المبرقة. العادة التي استمرت لأشهر أو سنين - على الرغم من أنها الآن أصبحت عديمة الجدوى - لا يمكن التخلي عنها دفعة واحدة. والآن حيث تم تسجيل المعاملات النهائية اتخذوا طريقهم إلى التجمع الليلي، آسفين أو متجهمين، بحسب طبيعتهم.

في وول ستريت نفسه، توهجت الأنوار مشعة من كل مكتب؛ حيث كان الموظفون يكافحون كي يلموا بكل ما حدث خلال يوم العمل. حاملو الرسائل وعمال غرف الاجتماعات، كانوا مأخوذين بجو الإثارة، ولكنهم غير متأثرين بالخسائر، انطلقوا يمرحون في الشوارع حتى وصلت الشرطة كي تفضهم. ممثلون لأكبر خمس وثلاثين من شركات السمسرة التي تمتلك فروعاً ترتبط ببعضها بشبكات اتصال خاصة اجتمعوا في مكاتب هورنبلاور آند وركس وأخبروا الصحافة في نهاية الاجتماع أن السوق "سليمة من حيث الأساس"، و"من الناحية الفنية في وضع أفضل مما كانت عليه على مدى أشهر". كان هناك إجماع بين

الحاضرين على أن أسوأ الأوقات قد مرت. الشركة المضيفة بثت رسالة إلى السوق تقرر فيها أنه "اعتباراً من معاملات اليوم سوف تبدأ السوق في وضع الأساس للتقدم البناء الذي نعتقد أنه سوف يميز سنة ١٩٢٠". تشارلز إى ميتشيل أعلن أن المشكلات كانت "قنية صرفة"، وأن "الأسس بقيت سليمة". السيناتور كارتر جلاس قال: إن المشكلات تعزى - لحد كبير - إلى تشارلز إى ميتشيل. السيناتور ويلسون من إنديانا ألقى باللائمة في الانهيار على مقاومة الديمقراطيين لتعريفه جمركية أعلى.

- ٨ -

فى يومى الجمعة والسبت؛ استمرت المعاملات كثيفة - أقل قليلاً من ستة ملايين سهم يوم الجمعة وأكثر من مليونى سهم فى يوم السبت القصير. والأسعار فى مجملها كانت مستقرة - المتوسطات كانت أعلى قليلاً يوم الجمعة، ولكنها هبطت يوم السبت. كان من المعتقد أن رجال المصارف كانوا قادرين على التخلص من معظم الأسهم التى اشتروها أثناء دعمهم للسوق يوم الخميس. لم تكن الأشياء أفضل فقط، ولكن كان واضحاً للجميع من الذى جعلها كذلك. رجال المصارف أظهروا شجاعتهم وقوتهم، والناس أشادوا بهم فى حرارة وكرم. وقالت التايمز إن المجتمع المالى يشعر الآن بـ "الاطمئنان لمعرفة أن أقوى البنوك فى البلاد وقفت مستعدة كى تمنع تكرار (الهلح)". ونتيجة لذلك فإن هذا المجتمع "هدأ من روعه".

ربما لم يحدث من قبل أو من بعد أن قيم الناس الاحتمالات الاقتصادية ووجدوها مواتية، كما حدث مع اليومين التاليين لكارثة الخميس. إن التفاؤل شمل حتى تهتئة الذات. فالكولونيل آيرس من كليفلاند رأى أنه لا توجد دولة أخرى تستطيع النجاة من مثل هذا الانهيار الكبير على هذا النحو الجيد. آخرون أشاروا إلى أن احتمالات الأعمال جيدة وأن هزيمة البورصة لن تجعل هذه الاحتمالات أقل مواتة.. لم يكن أحد يعلم - ولكن لا يمكن الضغط على هذه النقطة مراراً وتكراراً - أنه مع التعويضات المؤثرة لا تكون المعرفة ضرورية ولا حتى مفترضة.

إيوجين إم ستيفن، رئيس كونتيننتال إيلينويز بنك قال: "لا يوجد شيء في الموقف الاقتصادي يستدعى العصبية". والتر تيجل قال: "إنه لا يوجد تغير أساسى" فى نشاط النفط يستحق القلق. تشارلز إم سكواب قال: إن نشاط الصلب يحقق "تقدماً جوهرياً" تجاه الاستقرار، وأضاف إن هذه "الحالة السليمة من حيث الأساس" كانت مسئولة عن ازدهار الصناعة. صمويل فوكاليان، رئيس بالدوين لوكوموتيف ووركس صرح بأن "الأسس سليمة". الرئيس هوفر قال: "إن الأعمال الأساسية فى البلاد - إنتاج وتوزيع السلع - قائمة على أسس سليمة ومزدهرة". وقد طلب من الرئيس هوفر أن يقول شيئاً أكثر تحديداً عن السوق - إن الأسهم الآن رخيصة على سبيل المثال - ولكنه رفض (٥).

كثيرون انضموا إلى هؤلاء. هوارد سى هوبسون، رئيس أسوشييتد جاز آند إليكتريك، استبعد مرجعية ما حدث إلى الأسس، ورأى أنه كان "من المفيد من دون شك لمصلحة الأعمال فى البلاد إقصاء النمط المقامر من المضاربين". (السيد هوبسون - هو نفسه كمضارب - على الرغم من ثقته بنفسه، قد أقصى لاحقاً فى التوقيت المناسب). تكتل استثمارى فى بوسطن أخذ مساحة فى وول ستريت جورنال كى يقول "فليطمئن الجميع، ولنفكر بهدوء فى النظام. اسمعوا لنصيحة كلمات أعظم رجال البنوك فى أمريكا". ملاحظة واحدة نشاز، على الرغم من كونها نذيراً، ذهبت دون أن يلحظها أحد. حيث انتقد الحاكم فرانكلين دى روزفلت "حمى المضاربة" متحدثاً فى بوغكيبسى "Poughkeepsie" (٥٥).

يوم الأحد كانت هناك عظات تقول إن نوعاً من العقاب الإلهى قد حل بالجمهورية، وإنه لم يكن غير مستحق تماماً، فالناس فقدوا التبصر فى القيم الروحية فى سعيهم أحادى النظرة إلى الثراء، والآن قد أخذوا الدرس. كل شخص تقريباً آمن بأن العقاب السماوى قد رفع وأن المضاربة يمكن الآن أن تستأنف بإخلاص، وكانت الصحف تعج بالتوقعات حول سوق الأسبوع المقبل.

(٥) الذى ذكر ذلك هو جريت جاريت فى Saturday Evening Post (December 28, 1929)، وقد أكد عليه عموماً السيد هوفر فى مذكراته. ووفقاً للسيد جاريت فإن كونسيرتيوم رجال البنوك قد طلب من الرئيس هذا الإقرار الذى يدعو للاطمئنان - مثل الدعم - لدرجة مقبولة. (المترجم).

(٥٥) مدينة تتبع ولاية نيويورك (المترجم).

كانت هناك موافقة على أن الأسهم أصبحت رخيصة مرة أخرى، وتبعاً لهذا، سوف يكون هناك اندفاع كبير نحو الشراء. حكايات كثيرة صادرة عن شركات السمسرة - ربما كان بعضها صادقاً - تحدثت عن حجم مهول من أوامر الشراء التي كانت متراكمة في انتظار افتتاح السوق. وفي حملة إعلانية متناغمة في صحف الاثنين، تحدثت شركات البورصة عن حكمة التقاط هذه الصفقات بسرعة. وقالت إحدى الشركات: "نحن نعتقد أن المستثمر الذي سيشتري الأسهم في هذا الوقت بالقدرة على التمييز الذي هو دائماً شرط الاستثمار الحصيف، يستطيع فعل ذلك بأقصى قدر من الثقة". وفي يوم الاثنين بدأت الكارثة الحقيقية.

الفصل السادس

الأمور تصير أكثر خطورة

فى خريف ١٩٢٩؛ بلغ عمر بورصة نيويورك ١١٢ عاماً تحت قانونها الأساسى الحالى تقريباً. وخلال عمرها هذا شهدت بعض الأيام الصعبة. ففى ١٨ سبتمبر ١٨٧٢؛ انهارت شركة جاى كوك آند كومبانى، وكنتيجة مباشرة لذلك تقريباً انهارت سبع وخمسون شركة أخرى تابعة للبورصة خلال الأسابيع القليلة التالية. فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧؛ وصلت معدلات الاستدعاء الهامشى إلى ١٢٥٪ فى أثناء رعب ذلك العام. فى ١٦ سبتمبر ١٩٢٠ شهور الخريف هى موسم الإجازات فى وول ستريت - انفجرت قنبلة بجوار شركة مورجان مؤدية إلى مقتل ثلاثين فرداً وجرح مئة آخرين.

السمة المشتركة بين كل تلك المشكلات السابقة؛ أنها كانت تنتهى عقب حدوثها. وتم تدارك أسوأها على نحو معقول. أما السمة المتفردة للكساد الكبير ١٩٢٩ فكانت أن الأسوأ يزداد سوءاً. وما كان يبدو فى يوم ما أنه النهاية، كان يثبت فى اليوم التالى أنه فقط البداية. لم يكن هناك شىء أكثر إبداعاً يمكن تصميمه من أجل تعظيم المعاناة، وأيضاً من أجل ضمان ألا يفلت من سوء الحظ إلا أقل عدد ممكن من الناس. المضارب المحظوظ الذى توافر لديه المال اللازم للاستجابة لأول استدعاء هامشى؛ يواجه فى الحال باستدعاء ثان على القدر

نفسه من التعجل. وإذا وفى به قوبل باستدعاء آخر. وفى النهاية كان ينتزع منه كل ما لديه من مال. المستثمر الحكيم الذى خرج من السوق بأمان عندما وقع أول انهيار، كان من الطبيعى أن يعود إليها كى يتلقت الصفقات (فى الرابع والعشرين من أكتوبر، لم يسجل فقط أن هناك ١٢٨٩٤٦٥٠ تم بيعها، ولكن من المؤكد أن العدد نفسه من الأسهم قد تم شراؤه)، ثم عانت الصفقات من سقوط مدمر، فحتى الرجل الذى انتظر خارج السوق طوال أكتوبر ونوفمبر، والذى رأى أن حجم التعامل عاد لمستواه الطبيعى، ورأى وول ستريت يعود هادئاً كما سوق للمنتجات الزراعية، والذى عندئذ اشترى أسهماً عادية - سوف يشهد قيمتها تنخفض إلى ثلث أو ربع ثمن شرائها خلال الأشهر الأربعة والعشرين التالية. إن السوق السعودية التى تحدث عنها الرئيس كوليدج كانت ظاهرة استثنائية؛ ولكن قسوة زوالها كانت استثنائية بالدرجة نفسها على طريقتها الخاصة.

- ٢ -

الاثنين الثامن والعشرون من أكتوبر ١٩٢٨؛ كان اليوم الأول الذى بدأت فيه هذه العملية من الصعود والهبوط اللا نهائيين تسفر عن نفسها. لقد كان يوماً مربعاً آخر. كان حجم التعامل ضخماً، على الرغم من أنه كان أقل من حجم تعاملات يوم الخميس السابق، فقد بلغ تسعة ملايين وربع مليون سهم مقابل نحو ثلاثة عشر مليوناً. ولكن الخسائر كانت أقسى بكثير. مؤشر التايمز للشركات الصناعية فى ذلك اليوم انخفض بمقدار ٤٩ نقطة، وانخفض سهم جنرال إلكتريك بمقدار ٤٨ نقطة، ووستنجهاوس بمقدار ٢٤ وتل أند تل بمقدار ٣٤ وستيل بمقدار نقطة. والواقع أن الهبوط فى ذلك اليوم وحده كان أكبر منه فى الأسبوع السابق الحافل بالرعب. ومرة أخرى ترك تأخر المبرقة الجميع جاهلين بما كان يحدث، فيما عدا أنه كان سيئاً.

فى هذا اليوم لم تنصلح أحوال السوق. وفى الواحدة وعشر دقائق، شوهد تشارلز إى ميتشيل متوجهاً إلى شركة مورجان، ونقلت برقيات الأخبار الكلمة السحرية. شركة ستيل تحسنت وارتفعت من ١٩٤ إلى ١٩٨، ولكن ويتنى لم يبد

تأثراً بذلك، حيث يبدو من المحتمل أنه فى ضوء المعلومات الأخيرة كان ميتشيل فى طريقه لأن يعوم قرضاً شخصياً. ضعفت السوق من جديد، وفى الساعة الأخيرة تم تداول ثلاثة ملايين سهم بأسعار آخذة فى الهبوط السريع، وهو رقم استثنائى بكل المقاييس السابقة واللاحقة.

فى الرابعة والنصف بعد الظهر؛ اجتمع رجال المصارف مرة أخرى فى شركة مورجان، واستمر اجتماعهم حتى السادسة والنصف؛ حيث وصفوا بأنهم كانوا يتخذون موقفاً فلسفياً، وقد أخبروا الصحافة بأن الموقف كان "يحتفظ بلامامح مفعمة بالأمل"، على الرغم من عدم تحديد تلك اللامامح؛ ولكن البيان الذى أصدره عقب الاجتماع أوضح ما نوقش لمدة ساعتين؛ فقد قال البيان: إنه لم يكن من هدف أى من رجال المصارف الحفاظ على مستوى معين من الأسعار أو أن يحمى أرباح أى شخص. ولكن الهدف كان هو الوصول إلى سوق منظمة، تقابل فيها العروض بعطاءات بسعر ما. رجال المصارف الذين كانوا - على حد وصف السيد لامونت - مهتمين بـ "سد الثغرات" لم يظهروا.

مثل الكثير من الرجال الأقل أهمية، وجد السيد لامونت ورفاقه أنفسهم أكثر التزاماً تجاه سوق آخذة فى الهبوط، وأتى الزمن المقل فى وعوده. الدعم، المنظم أو غير المنظم، لا يمكن التعامل معه فى ظل رغبة مرضية كاسحة فى البيع. الاجتماع نظر فى كيفية التخلص من الالتزام بدعم السوق دون إضافة المزيد إلى قلق الجمهور.

الصيفة التى تم التوصل إليها كانت مرعبة. وفى يوم الخميس دعم ويتنى الأسعار وحمى الأرباح (أو على الأقل وقف الخسائر)، وهذا ما كان الناس يريدونه، فبالنسبة إلى الشخص الذى يحمل أسهماً مشتراة بالهامش كانت الكارثة بالنسبة إليه تحمل واجهاً واحداً هو هبوط الأسعار؛ ولكن الآن حيث إن الأسعار تهبط بالفعل، فقد أصبح ما يرضى المضارب هو فقط أن يأتى خرابه بطريقة منظمة ومناسبة.

لم يكن هناك فى ذلك الوقت تبادل للاتهامات؛ فحياتنا السياسية تفضل التطرف فى الحديث، والرجل الموهوب فى فنون السباب يلزم أن يكون مرموقاً،

إن لم يكن شخصية عظيمة؛ ولكن الأمور مختلفة في مجال الأعمال، فنحن هنا لطاف ومتسامحون لدرجة مدهشة، وحتى الادعاءات والأعذار غير المعقولة على ظاهرها تقبل ببساطة - على الأقل أمام الجمهور- في مساء الثامن والعشرين، لم يعد أحد يمكن أن يشعر بـ "الاطمئنان إلى معرفة أن أقوى البنوك تقف متأهبة لكى تمنع تكرار" الرعب. إن السوق تعيد نفسها كقوة مجردة تتجاوز قدرة أى شخص على التحكم فيها، وحيث إن هذا هو النحو الذى يفترض أن تكون عليه السوق، فقد كانت مرعبة، ولكن لا أحد هاجم رجال البنوك لتركهم الناس يسقطون، بل كان هناك حديث عن أن السوق قد تتلقى في اليوم التالى دعماً منظماً.

- ٣ -

الثلاثاء ٢٩ أكتوبر؛ كان أكثر الأيام كارثية في تاريخ بورصة نيويورك، وربما كان أكثر الأيام كارثية في تاريخ البورصات؛ فقد جمع بين كل السمات السيئة لكل الأيام السيئة السابقة. كان حجم التعامل أكبر بكثير جداً منه في يوم الخميس الأسود، وكان هبوط الأسعار مماثلاً تقريباً لهبوط يوم الاثنين. كان الذعر وعدم اليقين مماثلاً لما كان في اليومين.

بدأ البيع بمجرد أن فتحت السوق أبوابها، وبكميات ضخمة. كتل ضخمة من الأسهم كانت تعرض في مقابل أى ثمن تستطيع الحصول عليه. في نصف الساعة الأولى كانت المبيعات بمعدل يقابل ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ سهم في اليوم. الثغرات التى كان على رجال البنوك تسديدها فتحت على اتساعها. لمرات متكررة، وبالنسبة لإصدارات عديدة، كان هناك فرط من أوامر البيع ولا مشترين على الإطلاق. سهم وايت سوينج ماشين كؤمباني، الذى وصل إلى سعر ٤٨ دولاراً في الأشهر السابقة، أقفل على ١١ دولاراً في الليلة السابقة. وأثناء اليوم راودت شخصاً ما - وفقاً لرواية فردريك لويس ألين أنه كان مجرد حامل رسائل بارع - فكرة أن يدخل مزيدة على شراء كتلة من الأسهم مقابل دولار واحد للسهم. وفي غياب أى عطاء آخر حصل عليها ^(١). ومرة أخرى، بالطبع تأخرت المبرقة حتى إنها عند الإقفال

Only Yesterday, p. 333. (١)

كانت متأخرة بساعتين ونصف الساعة. وفي لحظة الإقفال سجلت بورصة نيويورك بيع ١٦٤١٠٠٣٠ سهماً - وبالتأكيد كانت هناك مبيعات غير مسجلة - أى أكثر من ثلاثة أضعاف الرقم الذى اعتبر فى وقت ما رقماً كبيراً بدرجة خرافية بالنسبة إلى يوم واحد. مؤشر التايمز للشركات الصناعية انخفض بمقدار ٤٢ نقطة، ملغياً كل المكاسب التى حققها على مدى الاثنى عشر شهراً المدهشة السابقة.

كان يمكن أن تكون الخسائر أكبر، لولا أن كان هناك تحسن عند الإقفال.. وهكذا وصل سعر سهم شركة ستيل - الذى تلقى ويتنى عطاء عليه يوم الخميس مقابل ٢٠٥ دولارات للسهم - إلى ١٦٧ دولاراً خلال اليوم، على الرغم من أنه تحسن إلى ١٧٤ عند الإقفال. سهم شركة أميريكان كان افتتح بـ ١٣٠ وانخفض إلى ١١٠ ثم ارتفع إلى ١٢٠ عند الإقفال. وستنجهاوز افتتح بـ ١٢١ - فى ٢ سبتمبر أقفل عند ٢٨٦ وانخفض إلى ١٠٠ ثم تحسن إلى ١٢٦؛ ولكن أسوأ شئ فى ذلك اليوم هو ما حدث للتكتلات الاستثمارية؛ فهى لم تهبط فقط، ولكن كان من الواضح أنها يمكن أن تصل عملياً إلى لا شئ.. جولدمان ساكس تريدنج كوربوريشن أقفل عند ٦٠ دولاراً فى الليلة السابقة، وأثناء اليوم انخفض إلى ٢٥ وأقفل عند المستوى نفسه، فاقداً ما لا يقل كثيراً عن النصف. سهم بلو ريدج، الذى حقق ذات يوم سيطرة سحرية، سار ذلك اليوم فى اتجاه عكسى ووصل لما هو أسوأ؛ ففى أوائل سبتمبر بيع مقابل ٢٤ دولاراً، وفى ٢٤ سبتمبر انخفض إلى ٢٩ دولاراً، ولكنه قاوم سوء الحظ فى ذلك اليوم واليوم التالى. وفى صباح أكتوبر افتتح بعشرة دولارات، وسريعاً ما وصل إلى ثلاثة، فاقداً أكثر من ثلثى قيمته. وقد تحسن لاحقاً، ولكن تكتلات استثمارية أخرى وصلت لما هو أسوأ، حيث لم تستطع أسهمها أن تباع على الإطلاق.

أخيراً وصل أسوأ يوم فى تاريخ البورصة إلى نهايته. ومرة ثانية توهجت الأنوار طوال الليل. أعضاء البورصة وموظفهم، وموظفو البورصة كانوا قد وصلوا لدرجة فائقة من الضغط والإرهاق؛ وبتلك الحالة واجهوا مهمة التسجيل والتعامل مع أكبر حجم للتعاملات على الإطلاق. وكل هذا فى غياب التأكد

السابق من أن الأشياء قد تتحسن، ولكنها يمكن أن تصل إلى الأسوأ. فى إحدى الشركات أصيب أحد الموظفين بالإغماء جراء الإرهاق، وقد تمت إفاقته وعاد للعمل من جديد.

- ٤ -

فى الأسبوع الأول جرت المذبحة على الأبرياء، وفى هذا الأسبوع الثانى كان هناك دليل على أن الأغنياء والميسورين هم الذين تعرضوا لعملية تدمير كاملة؛ تقارن من حيث الحجم والمفاجأة بتلك الحالة التى سادت عبر العقد السابق بسبب لينين^(٥). حجم كتل الأسهم التى عرضت للبيع كانت تبين أن المضاربين الكبار كانوا يبيعون أو يباعون. مؤشر آخر أتى من غرف الاجتماعات، فقبل أسبوع كانت مزدحمة، والآن هى فارغة تقريباً. فهؤلاء الواقعون فى المشكلات الآن لديهم موهبة المعاناة فى خصوصية.

رجال البنوك اجتمعوا مرتين يوم ٢٩ عند الظهر ثم فى المساء. ولا يوجد ما يشير إلى أنهم كانوا رابطى الجأش. ولم يكن هذا شيئاً مدهشاً، لأنه خلال النهار سرت شائعة مفزعة. كانت مفاد تلك الشائعة أن اتحاد رجال البنوك - أبعد ما يكون عن محاولة تثبيت السوق - كان فى الواقع يبيع الأسهم! لقد كانت هيبة رجال البنوك تتهاوى حتى أسرع من السوق نفسها. وعقب الاجتماع الثانى، قابل السيد لامونت الصحفيين فى مهمة يائسة لنفى أنهم يقومون بتسييل أسهمهم، أو يشاركون فى عملية نصب ضخمة. وبعد أن شرح من جديد - مكرراً على ضوء أحداث ذلك اليوم لحد ما - أن غرض رجال البنوك لم يكن الاحتفاظ بمستوى معين من الأسعار، خلص إلى أن: "المجموعة استمرت وسوف تستمر فى طريق التعاون كى تدعم السوق، ولم يكن هناك أحد يبيع أسهمه". الواقع، كما كشفت تحريات لاحقة، أن ألبرت إتش ويجين من شركة تشيس كان يحتاج شخصياً لعدة ملايين؛ ولكن دعمه التعاونى - الذى لو نجح سوف يكلفه الكثير - كان سوف ينطوى على عنصر مثير من التناقض.

(٥) زعيم الثورة البلشفية فى روسيا ١٩١٧، ومؤسس الاتحاد السوفيتى (المترجم).

هكذا انتهى الدعم المنظم، وتكررت العبارة أثناء الأيام القليلة التالية، ولكن لا أحد رأى فيها مرة أخرى أساساً للأمل. رجال قليلون هم من فقدوا مكانتهم فى أى وقت على نحو ما حدث لرجال البنوك فى نيويورك فى الأيام الخمسة من ٢٤ أكتوبر إلى ٢٩ أكتوبر. انهيار ٢٤ أكتوبر؛ كان إشارة للشركات وللبنوك خارج نيويورك - التى تمتعت بسعر فائدة ١٠٪ وأكثر - كى يستدعوا أموالهم من وول ستريت . فيما بين ٢٢ أكتوبر و ٣٠ أكتوبر، حيث هبطت القيم وتم تسجيل الحسابات الهامشية، انخفض حجم قروض السماسرة بما يزيد على البليون دولار؛ ولكن الشركات والبنوك من خارج المدينة استجابت للأبناء المرعبة الآتية من نيويورك - على الرغم من أن أموالهم فى الحقيقة لم تتعرض لخطر جدى - باستدعاء أكثر من بليونى دولار. بنوك نيويورك خطت إلى الهوة الواسعة التى أحدثها المليون الموسميون، وخلال هذا الأسبوع الأول من الأزمة زادوا قروضهم بنحو بليون دولار؛ وكانت تلك خطوة جريئة. ولو أن بنوك نيويورك استسلمت لحالة الرعب العام، لأضيف رعب النقود إلى المصائب الأخرى؛ فالأسهم كانت سوف تعرض للبيع بكميات كبيرة لأن ملاكها لم يكونوا يستطيعون الاقتراض بأى سعر فائدة لكى يحتفظوا بها، وكان منع ذلك الأمر سيعتبر إنجازاً كبيراً يمتن له كل من يمتلك أسهماً، ولكن البنوك لم تتلق أى ائتمان. وقد ذكر الناس لهم فقط أنهم أخذوا على عاتقهم مهمة وقف انهيار الأسعار ولكنهم فشلوا.

على الرغم من افتراض العكس، فإن الناس يستجيبون بسهولة لشروط السلطة، وليس هناك من سبب قوى للاعتقاد بأن السلطة التى كان يفترض أن البنوك الكبرى تملكها قد تضررت كثيراً. ولكن - كما مع كثير من الطغاة، من يوليوس قيصر حتى بنيتو موسوليني^(٥) - كان الناس متشددين تجاه هؤلاء الذين - على الرغم من امتلاكهم للسلطة - فقدوها أو تم تدميرهم، ثم أضيف الغضب من الغطرسة إلى ازدياد الضعف الحالى. وجعلت الضحية - أو جثمانها- تعاني كل ما هو متاح من المهانة.

(٥) حاكم ديكاتورى ومؤسس النظام الفاشى فى إيطاليا (١٩٢٥ - ١٩٤٣)، انحاز لألمانيا ضد الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية (المترجم).

هكذا كان مصير رجال البنوك. وعلى مدى العقد التالى كانوا صيداً سهلاً للجان الكونجرس والمحاكم والصحافة وممثلى الكوميديا. الفرور الكبير والفشل الكبير فى تلك الأيام كانا سبباً فى ذلك، فأى مصرفى لا يحتاج لأن يكون مشهوراً. والواقع أن المصرفى الجيد فى مجتمع رأسمالى سوى ربما يجب أن يكون غير محبوب، فالناس لا يريدون أن يعهدوا بأموالهم إلى شخص ودود، ولكن إلى شخص عدوانى يستطيع أن يقول لا. ومع ذلك، فإن المصرفى يجب ألا يكون خائباً، أو غير مؤثر، أو أحقق غامضاً. وبالتناقض مع القوة الشديدة لمورجان فى ١٩٠٧، كان هذا بالضبط ما بدا عليه خلفاؤه، أو ما جعلوا يبدون عليه - فى ١٩٢٩.

فشل رجال البنوك لم يترك المجتمع دون قيادة بناءة تماماً، فقد كان هناك حاكم نيويوك جيمس جى ووكر الذى ظهر قبيل اجتماع مع عارضى الأفلام السينمائية ذاك الثلاثاء، وطلب منهم أن "يعرضوا الأفلام التى سوف تعيد الشجاعة والأمل لقلوب الناس".

- ٥ -

بالنسبة إلى البورصة نفسها، فقد كان هناك شعور قوى بأن الشجاعة والأمل كانا يمكن أن يستعدا بمجرد غلق البورصة لبعض الوقت. والواقع أن هذا الشعور كان يكتسب قوة لأيام عديدة، وهو الآن يستمد الدعم من ظرف بسيط هو أن كل شخص كان فى حاجة ماسة للنوم؛ فالموظفون فى بعض شركات البورصة لم يذهبوا إلى بيوتهم لأيام. غرف الفنادق فى وسط المدينة كانت محجوزة بالكامل، والمطاعم فى حى المال كانت مستمرة فى العمل على مدى خمس عشرة - وعشرين ساعة فى اليوم. الأعصاب كانت بحالة سيئة، والأخطاء كانت تزداد شيوعاً بدرجة متزايدة. وبعد وقف العمل بالبورصة يوم الثلاثاء، وجد أحد السماسرة سلة مهملات مليئة بالأوامر غير المنفذة التى وضعها جانباً بشكل مؤقت ثم نسيها تماماً^(١). أحد العملاء الذين دمرت حساباتهم الهامشية بيعت

(١) . Allen, Op. cit., p. 334.

أسهمه مرتين. عدد من الشركات كان يحتاج لبعض الوقت كي تنظر فيهم إذا كانت لا تزال قادرة على السداد؛ والواقع أنه لم تكن هناك إخفاقات مهمة لشركات البورصة خلال تلك الأيام، على الرغم من أن أحد المشروعات قد أخطر بإفلاسه كنتيجة لخطأ كتابي من أحد موظفيه الذي كان في أقصى حالة من التعب (١).

كان إغلاق البورصة أمراً خطيراً، فهو قد يدل - بشكل ما - على أن الأسهم قد فقدت كل قيمتها، وسط ظروف لا يستطيع أحد التنبؤ بها. وفي كل الأحوال كان على الأسهم أن تصبح أصولاً مجمدة إلى أبعد حد. وكان هذا أمراً صعباً بالنسبة إلى المستثمرين القادرين على سداد كل ديونهم، والذين قد يحتاجون لبيع هذه الأسهم أو استخدامها باعتبارها ضماناً. وعاجلاً أو آجلاً، كان لا بد من وجود سوق جديدة قادرة على استيعاب ما سوف يتخلص منه بعض الأفراد - بشكل غير رسمي - من أسهم إلى أفراد آخرين استثنائيين ما زالوا راغبين في شرائها.

في ١٩٢٩، كانت بورصة نيويورك - بوجه عام - تتمتع بالسيادة على أعضائها، ففيما عدا القوانين العامة المتعلقة بسلوكيات الأعمال ومنع الاحتيال، لم تكن خاضعة لأي قواعد خاصة بالولايات أو فيدرالية، وهذا يعني ممارسة لا يستهان بها للحكم الذاتي. فالقوانين التي تحكم سلوكيات التعامل يجب أن تراجع وتفرض من قبل البورصة. والأسهم لا بد من التصريح بإدراجها. مبنى ومرافق البورصة تدار بواسطتها، وكما في كونجرس الولايات المتحدة، فإن معظم هذا العمل ينفذ من خلال لجان كانت هذه اللجان - بدورها إلى حد ما - تحت هيمنة مجموعة أصغر من الأعضاء الذين من المتوقع والمعتاد أن يسيروا الأمور. قرار إغلاق البورصة يجب أن يتخذ من قبل "اللجنة الحاكمة"، وهي هيئة مكونة من نحو أربعين عضواً. ومجرد العلم بأن هذه الهيئة كانت مجتمعة سوف يكون له من شبه المؤكد - أثر غير مرغوب فيه على السوق.

(١) "The of Stock Exchange in the Panic of 1929" مقال كتبه ريتشارد ويتني قبل اتحاد شركات بورصة بوسطن (Boston: June 10, 1930). PP. 16, 17 (أقوال ويتني بتاريخ ٢٩ أكتوبر وما تلاه مأخوذة من المصدر نفسه.

ومع ذلك، فى ظهيرة الثلاثاء ٢٩ سبتمبر اجتمعت اللجنة. ترك أعضاء اللجنة صالة البورصة مثنى وثلاثا وذهبوا لا إلى غرفة الاجتماعات المعتادة، ولكن إلى مكتب رئيس غرفة مقاصة البورصة الواقع أسفل الصالة مباشرة. بعد عدة أشهر، وصف ويتنى رئيس الغرفة بالنيابة الجلسة بمهارة شديدة الوضوح: "المكتب الذى اجتمعوا فيه لم يكن مصمماً لاجتماعات كبيرة من هذا النوع، ونتيجة لهذا كان معظم الأعضاء مضطرين إلى الوقوف أو الجلوس على المناضد؛ حيث عندما بدأ الاجتماع كان الرعب مستعراً فوق رؤوس من فى القاعة. كل عدة دقائق كانت آخر الأسعار تعلن فى تحرك نزولى سريع لا يقاوم. كان يمكن استشفاف شعور الحاضرين من عاداتهم فى الإشعال المستمر للسجائر، آخذين نفساً أو اثنين، ثم ملقين بها ومشعلين واحدة جديدة، وهو ما جعل الغرفة الضيقة خائفة معيقة بالدخان الأزرق".

كان نتيجة هذه المداولات العصبية قرار بالعودة للاجتماع فى المساء. بحلول المساء كان التحسن المتأخر قد حدث، واتخذ قرار بقاء البورصة مفتوحة ليوم آخر.

فى اليوم التالى؛ تم التوصل لصيغة أخرى. فالبورصة سوف تظل مفتوحة، ولكنها سوف تأخذ إجازات خاصة، ثم تفتح لعدد قليل من الساعات. وسوف يعلن هذا بمجرد أن يبدو أن البورصة أصبحت قوية بما يكفى لذلك.

ظل كثيرون يريدون إغلاق البورصة، وقد قال ويتنى فيما بعد - مع بعض المبالغة من دون شك - إنه فى الأيام التالية كانت سلطات البورصة تقود جماعة من المرعوبين، حتى صار (أخيراً) استحسان بقاء البورصة مفتوحة واضحاً للجميع".

- ٦ -

فى اليوم التالى؛ كانت تلك القوى تقوم بالعمل الذى فى بعض الأحوال يجلب الخلاص، تحديداً فى الوقت الذى يبدو الخلاص فيه مستحيلاً. الأسهم صعدت بشكل مدهش إعجازي؛ على الرغم من أن حجم المبيعات ظل ضخماً. مؤشر

التايمز للشركات الصناعية ارتفع بمقدار ٢١ نقطة لهذا اليوم، معوضاً بهذا جزءاً كبيراً من الخسائر المهولة في اليوم السابق. ولا أحد يعرف على الإطلاق لماذا حدث هذا التحسن. الدعم المنظم لا يستطيع أن ينسب هذا التحسن لنفسه. ولكن التطمين المنظم يستطيع أن ينسب لنفسه فضلاً أكبر. في مساء يوم ٢٩؛ توجه الدكتور جوليوس كلاين، مساعد وزير التجارة وصديق الرئيس هوفر والرائد الإصلاحى الأكبر، إلى الإذاعة كي يذكر البلاد بأن الرئيس هوفر قال إن "الأعمال الأساسية في البلاد" بحالة جيدة. ثم أضاف في حزم: "النقطة الرئيسية التي أريدؤكد عليها هي سلامة أساس الكتلة الكبرى من الأنشطة الاقتصادية". يوم الأربعاء، أعلن وادل كاتشينجز - من جولدمان ساكس - عقب عودته من رحلة إلى الغرب أن الأحوال العامة للأعمال هي "بالتأكيد بحالة جيدة من حيث الأساس". (الشيء نفسه لا يمكن بالتأكيد أن يقال عن جولدمان ساكس بمجمله في ذلك الوقت). آرثر بريسن خاطب قراء صحيفة هآرتس قائلاً: "لكي تريح نفسك، لو كنت خاسراً، فكر في الناس الذين يعيشون بالقرب من مونت بيلي^(٥) Mount Pelee" والذين اضطروا لترك بيوتهم".

ربما كان الأكثر أهمية؛ هو أول تصريح علني أدلى به جون دي روكفلر من بوكانتيكو هيرز منذ عدة عقود. وحسب ما يتبين من السجلات حتى الآن فقد كان تصريحاً عفويًا. ولكن شخصاً ما في وول ستريت - ربما شخص كان يعرف أن مناشدة أخرى للرئيس هوفر لأن يقول شيئاً ما مشجعاً - على وجه التحديد - بخصوص الأسهم - سوف تكون بغير جدوى - قد يكون قد أدرك أن تصريحاً من روكفلر ربما يكون أفضل على وجه التأكيد. وقد جاء في هذا التصريح: "إيماناً بأن الأحوال الأساسية للبلاد في حالة جيدة... فقد قمنا أنا وابني على مدى عدة أيام بشراء أسهم عادية جيدة"، وقد قبول التصريح بتدهيل كبير على الرغم من أن إدي كانتور، الذي كان يصف نفسه بأنه كوميديان ومؤلف، وإحصائي، وضحية قال فيما بعد: "بالتأكيد، ومن غيره تبقت لديه أى نقود؟^(١)".

(٥) بركان نشط، يقع في جزر الأنثيل بالبحر الكاريبي (المترجم).

(١) p. 31. After Crash (Caught short! A Sage of Walling wall street (New York: Simon and Schuster, 1929 A. C.

التفسير المقبول لدى وول ستريت لمعجزة الأربعاء لم يكن التطمينات، ولكن أنباء التوزيعات التي صدرت في اليوم السابق. وقد كان هذا أيضاً - دون شك - منظماً بشكل ما؛ فقد أعلنت شركة يو إس ستيل عن توزيع إضافي. أما شركة أميريكان كان فلم تعلن فقط عن توزيع إضافي؛ ولكنها أيضاً زادت توزيعاتها العادية. تلك الشعاعات الشمسية الشاردة لاقت ترحيباً عميقاً في الأخاديد المظلمة في أغوار مانهاتن.

قبل أن يصل تصريح روكفلر مباشرة بدت الأمور في البورصة جيدة بما يكفي؛ لدرجة أن ريتشارد ويتي شعر بالأمان وهو يعلن أن السوق لن تفتح أبوابها قبل ظهر اليوم التالي (الخميس)، وأنها سوف تظل مغلقة يومى الجمعة والسبت؛ وقد قوبل هذا الإعلان بتحيات حارة. الأعصاب كانت بوضوح هي نقطة الضعف؛ ففي شارع لا سال في شيكاغو قام صبي بتفجير لعبة نارية فسرت شائعة سريان النار في الهشيم؛ مؤداها أن رجال عصابات ممن صفيت حساباتهم الهامشية كانوا يطلقون النيران في الشارع، ووصلت سيارات دورية عديدة من الشرطة لكي تجعلهم يتقبلون خسائرهم كرجال شرفاء. وفي نيويورك انتشلت جثة تاجر وكيل بالعمولة من نهر هودسون، كانت جيوبه تحتوى على عملات معدنية قيمتها ٩,٤٠ دولار، وبعض الاستدعاءات الهامشية.

- ٧ -

في الجلسة القصيرة التي استمرت لثلاث ساعات يوم الخميس ٢١ أكتوبر، تم التعامل على أكثر من سبعة ملايين سهم، وحققت السوق مكاسب جيدة أخرى. وارتفع مؤشر التايمز للشركات الصناعية بمقدار ٢١ نقطة. التقرير الأسبوعي لبنك الاحتياطي الفيدرالى أظهر انخفاضاً في قروض السماسرة يزيد على بليون دولار، وهو أكبر انخفاض أسبوعى مسجل. شروط البيع الهامشى انخفضت بالفعل إلى ٢٥٪ وعند ذلك قامت بنوك الاحتياطي الفيدرالى بتخفيض سعر إعادة الخصم من ٦٪ إلى ٥٪؛ بنوك الاحتياطي الفيدرالى أيضاً أطلقت عمليات شراء نشطة للسندات من السوق المفتوحة كي تحرك سعر الفائدة وتحرر عرض

الائتمان. الرواج انهيار، وكبح السوق الذى كان محل تفكير فى وقت سابق يمكن الآن أن تحل محله سياسة لتشجيع نشاط للسوق. على كل هذه البشائر السعيدة، أغلقت البورصة أيام الجمعة والسبت والأحد. ولم تكن هذه أيام راحة، موظفو مكاتب السمسرة كانوا موجودين بالكامل، وصالة البورصة كانت مفتوحة لإتمام العمليات وأيضاً لحصر حالات سوء الفهم والأخطاء التى لا تعد ولا تحصى. وقد لوحظ أنه فى يوم الجمعة أن أى زائر للمقصورات لم يكن ليستطيع أن يلاحظ أن البورصة متوقفة عن العمل.

عطلة نهاية الأسبوع حملت نبأ سيئاً، حيث أعلن يوم السبت عن إفلاس مجموعة شركات فوشاى ذات العشرين مليون دولار فى مينيابوليس. كان فوشاى يمتلك مشروعات مرافق فى نحو اثنتى عشرة ولاية، وفى كندا والمكسيك وأمريكا الوسطى، وتشكيلة من المطاعم ومطاحن الدقيق والبنوك ومؤسسات للتصنيع وتجارة التجزئة وحين أراد شراء المسلة ذات الاثنين والأربعين طابقاً التى تعتبر شعار المؤسسة، والتى لا تزال تهيمن على أفق مينيابوليس، افتتحها فى احتفال يليق بها وزير الحرب جيمس دبليو جود فى أغسطس ١٩٢٩ الوزير جود أشار إليها باعتبارها "النصب التذكارى لواشنطن فى الشمال الغربى" (١). بمعظم الاعتبار الفنية تقريباً، كان فوشاى مفلساً فى وقت الاحتفال؛ واعتمد بقاؤه على قدرته على الاستمرار فى بيع الأسهم للجمهور. انهيار السوق حد من موارده وجعله معتمدا كلية على مكاسبه غير الكافية من شركاته.

على جميع الجبهات الأخرى؛ كانت الأخبار كلها جيدة. ألفريد بى سلون جى آر، رئيس شركة جنرال موتورز قال: "الأعمال فى حالة جيدة". شركة فورد موتور أكدت اقتناعها بذلك عن طريق الإعلان عن تخفيض عام فى أسعارها: "... نحن نشعر بأن مثل تلك الخطوة هى أفضل مساهمة يمكن تقديمها لتأكيد استمرار جودة الأعمال". وقد تم تخفيض سعر طراز رودستر من ٤٥٠ إلى ٤٣٥ دولاراً، وطراز فيتون من ٤٦٠ إلى ٤٤٠ دولاراً، وتيودور سيدان من ٥٢٥ إلى ٥٠٠ دولار.

(١) Investment News, October 16, 1929, p. 538.

وعلى مدى الأيام الثلاثة التى كانت البورصة مغلقة فيها نشرت الصحف قصصاً عن تراكم أوامر الشراء، وبأسلوب ينم نوعاً عن الثقة، اتسمت القصص بنبرة ثقة أكثر من الأسبوع السابق. وكانت السوق فوق كل شيء فقد أغلقت بعد تحسن ممتاز استمر ليومين. وكما أشار بارونز، كان من المعتقد أن الأسهم كانت تباع "آمال ومشاعر الماضى". يوم الاثنين أخذ كوميرشال ناشونال بنك أند ترست كومبانى خمسة أعمدة فى جريدة التايمز كى يعلن عن "... إيماننا واقتناعنا بأن حالة الصناعة والأعمال عموماً فى البلاد فى حالة جيدة تماماً، وليست ضعيفة من حيث الأساس".

فى ذلك اليوم افتتحت السوق بركود مروع آخر.

- ٨ -

على مدى عطلة نهاية الأسبوع كان مجتمع المال قد اقتنع - بالتأكيد - تقريباً بجهوده المنظمة والعفوية لرفع الحالة المعنوية. الصحف وصفت رد فعل محترفى وول ستريت بالدهشة المذهلة وعدم التصديق والصدمة. كان حجم التعاملات أقل من الأسبوع السابق، ولكنه لا يزال أكبر بوضوح من ستة ملايين. القائمة فى مجملها كانت ضعيفة، والإصدارات الفردية حققت خسائر كبيرة، ومؤشر التايمز للشركات الصناعية كان أقل باثنتين وعشرين نقطة خلال اليوم. وبالمقارنة مع أى شيء آخر عدا الأسبوع السابق كان هذا سيئاً جداً. وبالمقياس على الآمال المشرقة لهذا اليوم كان شديد الإيلام.

تعددت التفسيرات، وتكررت الشائعة القائلة بأن "الدعم المنظم" كان يبيع الأسهم، والسيد لامونت، فى لقاء مع الصحافى، أضاف هامشاً صغيراً للقصة التى أصبحت مكتملة الآن. حيث قال إنه لا يدري، وإن الدعم المنظم لم يكن فى الحقيقة منظماً بشكل جيد. التفسير الأكثر إقناعاً هو أن الجميع كانوا يشعرون بالابتهاج فيما عدا الجمهور؛ حيث إنه من قبل ومن بعد، كانت عطلة نهاية الأسبوع فرصة للتفكير، وقد أسفر التفكير عن تشاؤم وقرار بالبيع.. وهكذا، كما

فى أيام الاثنين الأخرى، وبغض النظر عن بشائر البهجة الظاهرية، تدفقت أوامر البيع لتزيد من الحجم الكلى.

فى ذلك الوقت، كان واضحاً أيضاً أن التكتلات الاستثمارية التى اعتبرت فى وقت ما دعامة للمستوى العالى للأعمال وأداة دفاع عضوية ضد الانهيار، كانت فى الحقيقة مصدراً عميقاً للضعف. السيطرة التى تحدث الناس عنها قبل أسبوعين فقط بمعرفة جيدة وحتى بمودة أصبحت الآن معكوسة تماماً. ويسرعة غير عادية أزال كل قيمة للأسهم العادية لأى تكتل. وكما فى السابق، فإن حالة نمطية لتكتل صغير الحجم تستحق التأمل. ودعنا نفترض أن له أوراقاً مالية فى أيدى الجمهور قيمتها السوقية ١٠٠٠٠٠٠٠ دولار فى أوائل أكتوبر، وأن نصف هذه الأوراق أسهم عادية، والنصف الثانى سندات وأسهم ممتازة. هذه الأوراق المالية كانت مغطاة بالكامل بالقيمة السوقية الحالية للأوراق المالية المملوكة للتكتل. بتعبير آخر، فإن حافظة الأوراق المالية للتكتل تحتوى على أوراق مالية قيمتها السوقية أيضاً ١٠٠٠٠٠٠٠ دولار.

حافظة الأوراق المالية النموذجية المملوكة لمثل هذا التكتل سوف تهبط قيمتها فى أوائل نوفمبر، لنقل بمقدار النصف (قيمة الكثير من هذه الأوراق المالية سوف تظل مرتفعة، ففى ٤ نوفمبر كان أقل سعر بالنسبة لشركة تل آند تل ٢٢٢ دولاراً، وبالنسبة لجنرال إلكتريك كان ٢٢٤ دولاراً، وبالنسبة لستيل كان ١٨٢ دولاراً. القيمة الجديدة لحافظة الأوراق المالية (٥٠٠٠٠٠٠ دولار) سوف تكون كافية فقط لتغطية الأوراق المالية ذات الأولوية المتمثلة فى الأسهم الممتازة والسندات. أما الأسهم العادية فلن يتبقى لها شىء بعد ذلك. وبغض النظر عن التوقعات التى كانت مشرقة دون أدنى شك، أصبحت الآن بلا قيمة.

هذه القسوة ذات الطبيعة الهندسية لم تكن استثنائية؛ بل على العكس، كانت موجودة حيثما تم التعامل مع أسهم التكتلات ذات السيطرة. ففى أوائل نوفمبر أصبحت أسهم معظمها غير ممكنة البيع عملياً. وكى تزداد الأمور سوءاً، فإن التعامل فى الكثير من هذه الأسهم كان يتم خارج البورصة أو فى بورصات خارج نيويورك حيث المشترون قليلون والسوق هزيلة.

لم يحدث أن كان هناك وقت احتاج فيه مزيد من الناس لمزيد من المال وبشكل عاجل كما فى تلك الأيام. والقول بأن السوق قد "قبضت" على شخص كان بمثابة إشارة لدائنيه كى يحطوا عليه مثل الجراد. والكثير من الناس الذين كانوا يواجهون مشكلات فى الوفاء بالاستدعاءات الهامشية كانوا يريدون بيع بعض الأسهم كى يستطيعوا الاحتفاظ بالباقي، وهكذا ينجون.. لحد ما - من سوء حظهم؛ ولكن مثل هؤلاء الناس وجدوا أن أسهمهم فى التكتلات الاستثمارية لا يمكن أن تباع مقابل أى مبلغ ذى قيمة، وربما لا يمكن أن تباع على الإطلاق. ونتيجة لذلك اضطروا إلى أن يتصرفوا فيما لديهم من أوراق مالية جيدة. الأسهم المعيارية مثل أسهم ستيل وجنرال موتورز وتل آند تل؛ كانت قد تراكمت فى السوق بكميات غير طبيعية، مع التأثير فى الأسعار الذى أصبح واضحاً تماماً. إن الرواج الكبير للتكتلات الاستثمارية انتهى بتجل فريد لقانون جريشام^(*) "Gresham's Law" حيث أزاحت الأسهم الرديئة الأسهم الجيدة.

الآثر المثبت للموارد النقدية الضخمة للتكتلات الاستثمارية؛ أثبت أيضاً أنه مجرد سراب. ففى أوائل الخريف كانت الموارد النقدية والسائلة للتكتلات كبيرة. والكثير من التكتلات انجذبت إلى العوائد الضخمة للسوق الهامشية (دائرة المضاربة أغلقت، حيث إن الناس الذين ضاربوا فى أسهم التكتلات الاستثمارية كانوا فى الحقيقة يستثمرون فى الشركات التى وفرت لهم الموارد المالية التى يستخدمونها فى المضاربة؛ ولكن الآن، حيث أحدث التدفق النقدى العكسى أثره، فإن إدارات التكتلات الاستثمارية كانت أكثر قلقاً من انهيار قيمة أسهمها الخاصة أكثر من قلقها من الحركة العكسية فى قائمة الأسهم ككل. كما أن التكتلات الاستثمارية استثمرت بكثافة فى بعضها بعض، ونتيجة لذلك كان هبوط بلو ريدج يؤثر فى شيناندوه، وكان الانهيار الناتج عن ذلك فى شيناندوه ذا أثر أفتح بالنسبة إلى جولدمان ساكس تريدينج كوربوريشن.

(*) قانون اقتصادى يتلخص فى أنه عند وجود أكثر من عملة فى التداول؛ فإن "العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق"، حيث يلجأ الناس إلى اكتناز العملة الجيدة وتداول العملة الرديئة - (المترجم).

فى ظل تلك الظروف استخدم الكثير من التكتلات مواردهم النقدية المتاحة فى مجهود يائس لدعم أسهمها الخاصة، ولكن كان هناك فرق كبير بين شراء شركة لأسهمها حيث يريد الجمهور البيع وبين الشراء أثناء الربيع الماضى - كما فعلت جولدمان ساكس تريندينج كورپوريشن - حيث كان الجمهور يريد الشراء وحيث أدت المنافسة الناتجة عن ذلك إلى الدفع بالأسعار لأعلى وأعلى. الآن، ذهبت النقدية وجاءت الأسهم، والأسعار إما لم تتأثر بدرجة ملحوظة وإما لم تتأثر لوقت طويل. وما كان منذ ستة أشهر مناورة مالية بارعة؛ أصبح الآن نوعاً من التضحية المالية بالنفس. وفى التحليل الأخير، فإن شراء شركة لأسهمها هو بالضبط عكس بيع الأسهم، وبيع الأسهم هو الذى يؤدى إلى نمو الشركات نمواً طبيعياً.

على الرغم من هذا، فإن شيئاً من ذلك لم يكن ظاهراً فى حينه، وعندما يكون هناك شخص يتمتع بعبقريّة مالية، فإن الثقة فى العبقريّة المالية لا تتلاشى فى الحال. وبالنسبة إلى عبقريّ متهالك ولكنه يرفض الاستسلام؛ فإن الدعم المستمد من أسهم شركته لا يزال يبدو مسلكاً جريئاً ومبتكراً وفعالاً. والواقع أن هذا بدا البديل الوحيد لموت بطيء ولكنه مؤكد... وهكذا، وإلى الحد الذى سمحت به مواردهم النقدية، اختارت إدارات التكتلات موتاً أسرع وإن كان مؤكداً بالدرجة نفسها حيث اشتروا أسهمهم عديمة القيمة. لقد تعرض الناس للخداع من قبل أناس آخرين فى مناسبات عديدة؛ ولكن خريف ١٩٢٩ ربما كان المناسبة الوحيدة التى نجح فيها أناس فى خداع أنفسهم على مستوى كبير.

والآن حان الوقت كى نستكمل سرد وقائع الأيام الأخيرة من الأزمة.

الثلاثاء الموافق الخامس من نوفمبر كان يوم الانتخابات، وكانت السوق مقفلة طوال اليوم. فى السياق على منصب حاكم نيويورك؛ سجل الحاكم المنتخب الديمقراطى جيمس ج ووكر نصراً ساحقاً على منافسه الجمهورى إف إتش لاجارديا الذى هوجم من قبل الديمقراطيين باعتباره اشتراكياً. بابسون أصدر بياناً يطالب فيه برياطة الجأش والفطنة والشجاعة الحكيمة والمنطق السليم

الأصيل. يوم الأربعاء فتحت السوق فى سلسلة جديدة من الجلسات القصيرة التى تمتد كل منها ثلاث ساعات، وكانت هذه الجلسات نوعاً من المواءمة مع المطالبة بالغلق والتى ترددت فى الأسبوع السابق. فى هذه الجلسة تم التعامل على ستة ملايين سهم - أى ما يعادل عشرة ملايين فى يوم كامل. وكان هناك هبوط مزعج، حيث افتتح سهم يو إس ستيل بـ ١٨٠ وفيما أسمته إحدى الصحف بأنه "سقوط محموم" هبط إلى ١٦٥. أوبورن أوتوموبيل فقدت ٦٦ نقطة. أوتيس إليفاتور فقدت ٤٥، مؤشر التاييمز للشركات الصناعية انخفض بمقدار ٣٧ نقطة، أى أقل بست نقاط فقط عن يوم الثلاثاء الريب قبل ثمانية أيام.. أين سوف ينتهى كل هذا؟

كانت هناك أيضاً أنباء مزعجة من خارج السوق. وبدا أن الأسس تتحول إلى رديئة، فأرقام الأسبوع الخاصة بشحنات السكك الحديد أظهرت انخفاضاً كبيراً بالمقارنة بأرقام العام السابق. سعر الصلب انخفض بشدة عن الأسبوع السابق، والأكثر خطورة أن الركود امتد لأسواق السلع. فى الأيام السابقة تجاوزت تلك الأسواق مع سوق الأوراق المالية تجاوباً طفيفاً؛ ولكن فى هذا الأربعاء كانت لها مشكلاتها الخاصة بها؛ فقد كانت أسعار القطن منخفضة فى أكثف الأيام تعاملاً على مدى أسابيع؛ وعندما انخفضت الأسعار بحدة عند الظهر أرجع السبب إلى "العرب" فى سوق القطن.

يوم الخميس؛ كانت سوق الأوراق المالية آخذة فى الارتفاع باطراد، لكنها يوم الجمعة شهدت انخفاضاً بسيطاً. وأخذ الناس عطلة نهاية أسبوع أخرى للتأمل. هذه المرة لم يكن هناك حديث عن تراكم فى أوامر البيع، والواقع أنه كان هناك قليل من الأنباء الجيدة نوعاً ما. يوم الاثنين ١١ نوفمبر حدث هبوط مأساوى آخر. وفى اليومين التاليين كان التعامل كثيفاً - كانت البورصة لا تزال تعمل لساعات محدودة - وانخفضت الأسعار أكثر. وفى هذه الأيام الثلاثة ١١ و ١٢ و ١٣ نوفمبر؛ فقد مؤشر التاييمز للشركات الصناعية ٥٠ نقطة أخرى.

من بين كل أيام الانهيار كانت تلك الأيام هى - دون شك - أكثرها كآبة. الدعم المنظم فشل، وحتى تلك اللحظة كانت كل التطمينات المنظمة قد صرف النظر

عنها. كل ما أمكن عمله كان بعض التهكم والسخرية، وقد لوحظ أن الاستدعاءات الهامشية الصادرة عن شركة ويسترن يونيون فى هذا الأسبوع كانت تحمل ملصقاً صغيراً يقول: "تذكرهم فى البيت ببرقية تهنئة بعيد الشكر، الأسلوب الأمريكى لهذا اليوم الأمريكى". ويقال إن الموظفين فى فنادق وسط المدينة كانوا يسألون النزلاء ما إذا كانوا يريدون غرفاً للنوم أم للقفز منها. رجلان قفزا يدا بيد من نافذة مرتفعة فى فندق ريتز، وقد كان لديهما حساب مشترك. وول ستريت جورنال أصبحت واعظة توراتية؛ حيث خاطبت قراءها قائلة: "أقول لكم - دون شك - دعوا الخوف من السوق يكون قانون الحياة. واتبعوا كلمات مندوب بيع السندات". المحرر المالى للتايمز - الذى أظهر فى ذلك الوقت علامات عن الرضا نتيجة للانهيـار، بل وربما أيضاً علامات عن الشعور بأن الانهيـار ذهب إلى حدود بعيدة جداً - قال: "من المحتمل أنه لا أحد من الجيل الحالى سوف يكون قادراً على التحدث مرة أخرى... عن (التفاعل الصحى)، فهناك علامات كثيرة على أن هذه العبارة قد عفى عليها الزمن"

الفصل السابع

فى اعقاب الانهيار (١)

خلال الأسبوع - أو نحو ذلك - الذى تلا الخميس الأسود، رسمت صحف لندن الرخيصة - بابتهاج - مشاهد مما يحدث فى قلب نيويورك، فروت أن المضاربين كانوا يلقون بأنفسهم من النوافذ، وأن المارة كانوا يشقون طريقهم بحذر وسط جثث رجال المال المتساقطة. وكتب المراسل الأمريكى لمجلة الإيكونومست عموداً غاضباً فى مجلته معترضاً على تلك الصورة التى تصور مذبحه خيالية.

فى الولايات المتحدة - أيضاً كانت - موجة الانتحارات التى تلت انهيار البورصة جزءاً من أسطورة ١٩٢٩ والحقيقة أنه لم يكن هناك شىء من ذلك. فعلى مدى عدة سنوات سبقت ١٩٢٩، كان معدل الانتحار فى ارتفاع تدريجى، واستمر فى الارتفاع فى تلك السنة، مع زيادة أكبر وأكثر حدة فى السنوات ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٢؛ وهى السنوات التى شهدت أشياء كثيرة إلى جانب البورصة جعلت الناس يخلصون إلى أن الحياة لم تعد تستحق أن تعاش. والإحصاءات الخاصة بسكان نيويورك - الذين يفترض أن لديهم نزوعاً خاصاً لتدمير الذات نتيجة لقربهم الخاص من البورصة - تظهر انحرافاً بسيطاً فقط عن سكان البلاد ككل، وحيث إن أسطورة الانتحار قد روج لها جيداً، فقد يكون من المفيد أن نورد الأرقام التفصيلية، وهى كالاتى:

عدد حالات الانتحار لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة من السكان

١٩٢٥ - ١٩٣٤

السنة	بالنسبة لمنطقة التسجيل (١)	بالنسبة لمدينة نيويورك
١٩٢٥	١٢,١	١٤,٤
١٩٢٦	١٢,٨	١٣,٧
١٩٢٧	١٣,٢	١٥,٧
١٩٢٨	١٣,٦	١٥,٧
١٩٢٩	١٤,٠	١٧,٠
١٩٣٠	١٥,٧	١٨,٧
١٩٣١	١٦,٨	١٩,٧
١٩٣٢	١٧,٤	٢١,٣
١٩٣٣	١٥,٩	١٨,٥
١٩٣٤	١٤,٩	١٧,٠

(١) منطقة التسجيل هي الجزء من الدولة (معظمها) الذي تسجل فيه أسباب الوفاة على نحو واف. البيانات مستقاة من:

Vital Statistics: Special Report, 1-45, 1935(Washington: Department of Commerce, Bureau of the Census, 1937).

حيث أن انهيار السوق وقع في أواخر ١٩٢٩؛ فربما كانت هناك زيادة كبيرة في عدد حالات الانتحار في أواخر أكتوبر وما تلاه، وهي زيادة لا يفترض أن تكون كبيرة بما يكفي للتأثير في أرقام العام ككل. ومع ذلك، فإن الأرقام الخاصة بأسباب الوفاة على مستوى الأشهر متاحة أيضاً بالنسبة لسنة ١٩٢٩^(٥)، وهي تبين أن عدد حالات الانتحار في أكتوبر ونوفمبر كان منخفضاً نسبياً، حيث بلغت في أكتوبر ١٢٢١ حالة في جميع أنحاء الولايات المتحدة. وفي نوفمبر بلغت ١٣٤٤ وفي ثلاثة أشهر فقط - يناير فبراير وسبتمبر - كان عدد حالات الانتحار أقل.

(١) أنا ممتن للقائمين على الإحصاءات الحيوية في وزارة الصحة والتعليم والرفاهة لإتاحة هذه الأرقام لي. وهي مستمدة من Mortality Statistics, 1929 (Washington: Department of Commerce, Bureau of The Census).

أما فى أثناء أشهر الصيف، حيث كانت السوق فى حالة جيدة، فقد كان عدد حالات الانتحار أعلى بدرجة كبيرة.

يستطيع المرء تخمين كيف نشأت أسطورة الانتحار، فمثل مدمنى الكحول والمقامرين، يفترض أن يكون لدى المضاربين المحطمين نزوع لتدمير أنفسهم. وفى الوقت الذى كان فيه عدد المضاربين المحطمين كبيراً، ربما قامت الصحف والجمهور - ببساطة - باستخلاص النتيجة المباشرة. وفى الأوقات الأخرى، يمكن أن تستدعى حالات الانتحار السؤال التالى: "لماذا تعتقد أنه قام بذلك؟"، أما الآن فإن الدافع يحدد تلقائياً: "المسكين تعثر فى انهيار البورصة". وأخيراً يجب أن نلاحظ أنه على الرغم من أن حالات الانتحار لم تزد بحدة سواء فى أشهر الانهيار أو فى سنة ١٩٢٩ ككل، فإن المعدل قد ارتفع فى سنوات الكساد التالية. وربما أرجعت تلك المأسى فى الذاكرة إلى الخلف سنة أو سنتين إلى وقت انهيار البورصة.

إن ضعف الدليل يقودنا إلى الاعتقاد بأن الصحف والجمهور تشبثوا بحالات الانتحار تلك أيما كان سببها؛ لإظهار أن الناس كانوا يتفاعلون على النحو المناسب مع سوء حظهم. وربما يمكن الربط بين عدد كاف من حالات الوفاة وبين السوق بشكل أو بآخر. فعقب الخميس الأسود مباشرة بدأت قصص الانتحار العنيفة تظهر فى الصحف بشكل منتظم. ومن الغريب، على العكس مما جاءت به الأسطورة، أن عددا قليلا من الناس فى تلك الأيام هم الذين اتبعوا الأسلوب التقليدى بالقفز من نافذة مرتفعة. وفى إحدى الحالات قفز أحدهم إلى نهر سكويلىكل، على الرغم من أنه غير رأيه عندما ارتطم بالماء وتم انتشاله. رئيس شركة روشستر جاز آند إلكترونيك كومبانى استنشق الغاز. ضحية أخرى غمر نفسه بالبنزين ثم أشعل النار، وهو لم يهرب بنفسه فقط من الاستدعاءات الهامشية، ولكنه أخذ معه زوجته. وكان هناك أيضاً انتحار جى جى ريووردان.

كتبت وفاة ريووردان مانشيتات الصحف يوم الأحد ١٠ نوفمبر، فقد التقطت الصحف ليست فقط قصة وفاته نفسها، ولكن أيضاً الأسلوب الذى أعلن به

عنها. فريوردان كان شخصية مشهورة وشعبية وسط الديمقراطيين فى نيويورك. وكان المسئول المالى عن الحملة الانتخابية للحاكم ووكر، وأيضاً واحداً من رجال آل سميث. كان هو وسميث صديقين مقربين وشريكين فى مجال الأعمال. كان سميث عضواً فى مجلس إدارة البنك المؤسس حديثاً، كاونتى ترست كومبانى، الذى كان ريوردان رئيساً له.

يوم الجمعة ٨ نوفمبر، ذهب ريوردان إلى بنكه، وأخذ مسدساً من كابينة الصراف، وذهب إلى بيته حيث أطلق النار على نفسه. أعلن آل سميث بالخبر، ولم يكن أسفه لموت صديقه ليتأثر بعلمه بأن تلك الأنباء يمكن أن تفتح مساراً خطيراً على بنكه. وقد استدعى طبيب شرعى، ولكنه لم يصدر أى تقرير حتى ظهر اليوم التالى (السبت)، حيث أغلق البنك أبوابه لعطلة نهاية الأسبوع. وقد مر وقت طويل قبل تنظيم الجنازة التى حضرها المعززون المرموقون واضعين عينا على الجثة وعينا أخرى على الساعة.

الطبيب الشرعى الملح - فى البداية - إلى أنه أرجأ تقريره إحساساً منه بالمسئولية العميقة تجاه المودعين فى كاونت ترست، لقد كانت هذه ممارسة متجاوزة للصلاحيات، تقود إلى استنتاج منطقي، حيث تعنى أن كل الحالات يجب أن تقيم بواسطة الطبيب الشرعى الحاضر وفقاً لعواقبها المالية. وقد أعترف - فيما بعد - بأن هذا كان قرار آل سميث، وقد كانت مكانة سميث (وكذلك حالة التوتر العامة) كبيرة لدرجة أنه لم تكن هناك مساءلة على هذا التصرف.

على مدى عدة أيام دارت الشائعات بأن انهيار البورصة أجهز على ريوردان، وقد احتشد أصدقاؤه للدفاع عنه، بعضهم بإصرار شديد على أنه لم يسبق له أن لعب فى السوق، ولكنه كان متورطاً إلى حد كبير، كما كشفت عن ذلك تحقيقات لاحقة للجنة من الكونجرس حول البورصة، ولكن مراجعاً متسرعاً من بنك كاونتى ترست كومبانى أعلن أن أرصده كانت سليمة لم تمس. وقد تم الترويج لهذه الحقيقة جيداً طوال عطلة نهاية الأسبوع؛ وأعلنت إدارة المدينة بجلاء أنها كانت تودع أموالها لدى البنك، وهو ما مر دون اهتمام مثل القول بأنه يجب الاستثمار

فى التحدث بمصطلحات تامانى هول(*) Tammany Hall ، تولى راسكوب رئاسة البنك مؤقتا، ولم يتعرض البنك لأزمة. وقد أعلنت الكنيسة أن ريبوردان، ككاتوليكي، قد أصيب بتشوش مؤقت، ولهذا فهو جدير بالدفن فى أرض مقدسة. وبين حاملى النعش الشرفيين، كان هناك آل سميث، وهريرت ليهمان، وجون جى راسكوب، ومن بين هؤلاء الذين حضروا الجنازة كان هناك الحاكم فرانك هاجو، وفنسنت أستور، وجروفر والن، وجيمس أى فيرلى، وإم جى ميهان منظم البورصة.

بعد سنتين ونصف السنة، يوم السبت الموافق ١٢ مارس ١٩٣٢ أطلق إيفار كروجر النار على نفسه فى شقته بباريس فى تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً بالتوقيت المحلى. وكان هذا قبل أن تغلق بورصة نيويورك أبوابها بست ساعات. وبالتعاون مع شرطة باريس، تم حجب النبأ حتى موعد إغلاق البورصة. وفيما بعد، انتقدت لجنة من الكونجرس هذا الإجراء بشدة، وقد استدعى آل سميث باعتباره شاهد دفاع. فى حالة كروجر، يجب أن نضيف إن نظام الأمن فى شرطة باريس لم يكن على ما يرام، حيث من المؤكد بوضوح أنه كان هناك بيع كثيف فى هذا الصباح - بما فى ذلك عمليات كثيفة من البيع على المكشوف "Short Selling" لأسهم كروجر آند تول لمصلحة أطراف أمريكية (١).

- ٢ -

من وجهات متعددة كان تأثير الانهيار فى الاحتيال أكثر منه فى الانتحار. حيث كان الاحتيال الاقتصادى هو أكثر الجرائم إثارة. فقد كان له وحده من بين

(*) منظمة سياسية نشأت فى نيويورك سنة ١٧٨٦؛ كانت بمثابة القوة المحركة للحزب الديمقراطى. كان من أهم أنشطتها دعم المهاجرين الجدد خاصة من الأيرلنديين. تضاءلت أهميتها فى القرن العشرين، وحلت فى ستينيات القرن (المترجم).

(١) Stock Exchange practices, January 1933, pt. 4, p.1214 ff. مثل هذه المبيعات كانت كثيفة يومى الجمعة والسبت. ولكن فى سجلات البورصة عن ذلك الوقت لم يكن هذان اليومان متميزين. السيد دونالد ديورانت المدير الأمريكى غير المعروف لشركة كروجر آند تول كان فى باريس وقت وفاة كروجر، وأبرق بالخبر إلى شركة لى هيجينسون آند كومبانى التى كان شريكا فيها. والشركة الأخيرة، التى كانت الوكيل المصرفى الاستثمارى لكروجر ، يبدو أنها امتنعت بأمانة عن الاستفادة من تلك الأخبار. Ibid. pp. 1215-16.

الأشكال المختلفة للسرقة عنصر زمنى متغير، حيث قد تتقضى أسابيع أو شهور أو سنوات بين ارتكاب الجريمة وبين اكتشافها (بالمناسبة، كانت تلك الفترة توجد عندما يحصل المختلس على غنيمة بينما - ويا للغرابة - لا يشعر من تعرض للاختلاس بأى خسارة؛ حيث كانت هناك زيادة صافية فى الثروة الخيالية). فى أى وقت من الأوقات كان يوجد رصيد من الاختلاس غير المكتشف فى شركات وبنوك البلاد. هذا الرصيد كان يصل فى أى لحظة إلى عدة ملايين من الدولارات، كما كان أيضاً يتنوع فى حجمه بحسب دورة الأعمال. وفى الأوقات الطيبة يكون الناس مسترخين واثقين، وتكون الأموال وفيرة، ولكن حتى عندما تكون الأموال وفيرة، يكون هناك دائماً ناس يحتاجون إلى المزيد. فى مثل تلك الظروف، يزيد معدل الاختلاس، ويقل معدل اكتشافه. لكن فى وقت الكساد، ينقلب كل ذلك إلى العكس؛ حيث يقع المال تحت عين متفرسة متشككة؛ ويفترض أن الشخص الذى يتعامل فيه غير أمين إلى أن يثبت العكس. ويكون المراجعون ثاقبى النظر وموسوسين. وهكذا تتحسن الأخلاقيات التجارية وينكمش الاختلاس.

رواج البورصة وما يليه من انهيار يسبب تضخيماً مذهلاً فى هذه العلاقات العادية، فبالنسبة إلى الاحتياج العادى للمال، من أجل البيت والأسرة والتبذير، يضاف إليها أثناء الرواج المتطلبات الجديدة والكاسحة للمال من أجل اللعب فى البورصة أو لأجل الوفاء بالاستدعاء الهامشى. المال كان وفيراً بشكل استثنائى، والناس أيضاً كانت لديهم ثقة استثنائية.. فرئيس البنك الذى كان هو نفسه يثق فى كروجر وهوبسون وإنسول.. كان من المستبعد جداً أن يشك فى صديق عمره المسئول عن النقدية فى شركته؛ وهكذا فى أواخر العشرينيات كان هناك نمو سريع فى الاختلاس.

وبالضبط كما أدى الرواج إلى زيادة معدل النمو فى الاختلاس، أدى الانهيار إلى زيادة كبيرة جداً فى معدل اكتشافه. وخلال أيام قليلة، تحول شئ قريب من الثقة المطلقة إلى شئ مماثل من الشك المطلق. صدرت الأوامر للمراجعين.

ولم يلاحظ وجود سلوك متوتر ومهموم. وأهم شيء، أن الانهيار في قيمة الأسهم جعل موقف الموظف الذي اختلس كى يجرب حظه في البورصة غير قابل للإصلاح؛ وعليه الآن الاعتراف.

بعد أسبوع أو نحو ذلك من الانهيار، كانت التقارير عن الموظفين المتعثرين حدثاً يومياً، وكانت أكثر شيوعاً بكثير من أخبار الانتحارات. وفي بعض الأيام كانت روايات مختصرة نسبياً تحتل عموداً أو أكثر في التايمز. كانت المبالغ كبيرة وصغيرة، وكانت أخبارها تأتي من بعيد وعلى نطاق واسع.

أكثر الاختلاسات إذهالاً في ذلك الوقت - المناظرة لانتحار ريبوردان - كانت عملية النهب التي تعرض لها بنك يونيون إنديستريال بنك أوف فلينت في ميتشجان؛ حيث كانت التقديرات لإجمالي المبالغ المختلسة تتزايد بشكل مرعب؛ بينما كانت التحقيقات مستمرة. وقد حددتها صحيفة ذا دايجست ليتراي في وقت لاحق من العام نفسه بمبلغ ٢٥٩٢٠٠٠ دولار^(١).

في بداية الأمر كان هذا الاختلاس نوعاً من المبادرة الفردية، وقد بدأ عدد من موظفي البنك في سلب الأموال دون أن يعرف بعضهم بعضاً. وبالتدريج أصبحوا على علم بأنشطة بعضهم بعض، وحيث إنهم كانوا يمثلون خطراً على بعضهم بعض، تعاونوا معاً. وفي نهاية الأمر كانت تلك الشراكة تضم ستة من الأشخاص، والواقع أنها كانت تضم كل الموظفين الرئيسيين في البنك. وكانت العمليات حسنة التنظيم؛ لدرجة أن حتى وصول مفتشى البنك إلى الفنادق المحلية كان يعرف في الحال لأفراد المجموعة.

أودعت معظم الأموال التي اختلست لدى البنك؛ كى يتم إقراضها في سوق الأوراق المالية تحت الاستدعاء بنيويورك. وأرسلت النقود كما ينبغي إلى نيويورك، ثم تمت استعادتها بسرعة؛ بينما كانت السجلات لا تزال تظهر أنها موجودة هناك؛ ثم أعيدت الأموال مرة أخرى إلى نيويورك واستخدمت في شراء أسهم. في ربيع ١٩٢٩ كان مجموع هذه المبالغ نحو ١٠٠٠٠٠ دولار فصاعداً. ثم لسوء

(١) December 7, 1929.

الحظ، لم تعد هذه المبالغ كافية؛ حيث حلقت السوق فى الصيف إلى عنان السماء. وكان هذا مكلفاً للدرجة أن المجموعة اضطرت إلى الاقتناع بالتحول إلى المضاربة السعودية، وقد حدث هذا قبل الانهيار مباشرة. ولا حاجة للقول بأن الانهيار كان مهلكاً.

كل أسبوع خلال الخريف كان يكشف عن المزيد من سوء حظهم البائس؛ فمعظمهم كانوا رجالاً صغاراً قاموا بمغامرة فى السوق ثم أصبحوا متورطين لدرجة أعمق. وفى وقت لاحق انضم إليهم رفاق أكثر أهمية، ثم جاء الانهيار وما لحقه من الانكماش القاسى فى القيم، والذى أدى فى النهاية بكروجر وهويسون وإنسول إلى المضاربة بأموال الآخرين. ولو قيد للاقتصاد الأمريكى فى يوم من الأيام أن يحقق توظفاً وازدهاراً كامليين ودائمين، فعلى الشركات أن تراقب مراجعيها جيداً. إن إحدى مهام الكساد الكشف عما عجز المراجعون عن اكتشافه. وقد لاحظ باجيهوت يوماً أن: كل أزمة كبرى تكشف عن المضاربة المفرطة من قبل الكثير من الشركات التى لم تكن محل شك من قبل^(١).

- ٣ -

فى منتصف نوفمبر ١٩٢٩؛ وأخيراً، توقفت السوق عن الهبوط، لوقت ما. حدث انخفاض يوم ١٢ نوفمبر؛ فى هذا اليوم أقفل مؤشر التاييمز للشركات الصناعية على ٢٢٤ نقطة هابطاً من ٤٥٢ - أى تقريباً بمقدار النصف بالضبط، منذ ٣ سبتمبر. كما كان فى ذلك اليوم أيضاً منخفضاً بمقدار ٨٢ نقطة - نحو الربع - عما كان عليه عند الإقفال قبل أسبوعين تقريباً، حين أعلن جون دى روكفلر أنه وابنه يشتريان أسهماً عادية. فى ١٣ نوفمبر؛ كانت هناك قصة أخرى حول روكفلر؛ فقد قيل إن العائلة أصدرت أمر شراء بمليون سهم كى تثبت سهم ستاندارد أويل أوف نيوجيرسى عند خمسين دولاراً، وخلال بقية نوفمبر وديسمبر كانت السوق ترتفع باعتدال.

استأنفت السوق هبوطها. ومع ذلك، فقد تزامنت النهاية مع جهد أخير للطمأنة. ولا أحد يستطيع أن يؤكد أنه لم يكن جيداً، فمن ناحية كان هناك

Lombard Street, page 150. (١)

إعلان من بورصة نيويورك عن تحقيق فى عمليات للبيع على المكشوف، وحتماً كانت هناك شائعات خلال الأسابيع التالية عن عمليات بيع كثيفة بغرض المضارب على النزول بالأسعار "Bear Raids" وعن ثروات تكونت من خلال البيع على المكشوف. والناس اللطاف الذين كان يشار إليهم باسم "هم"، والذين رفعوا الأسعار فى وقت ما، أصبحوا الآن أشراراً يتدخلون من أجل خفضها وجمع المال من خلال كارثة عامة. فى الأيام الأولى من الانهيار كان هناك اعتقاد منتشر على نطاق واسع فى أن جيس إل ليفرمور (رجل من بوسطن يتصف بسمعة ذائعة لا تقبل الشك حول أنه يقوم بعمليات البيع النزولى) يت رأس مجموعة كانت تعمل على دفع السوق للهبوط. وقد أصبحت تلك الشائعات متكررة ومستمرة لدرجة أن ليفرمور الذى لا يعتقد أنه كان حساساً تجاه الرأى العام أصدر نفيًا رسمياً لكونه متورطاً فى أى مؤامرة انكماشية قال فيه: "الأعمال القليلة التى مارسناها فى البورصة كانت دوماً أعمالاً فردية، وسوف تستمر على هذا الأساس". ومبكراً فى ٢٤ أكتوبر ادعت وول ستريت جورنال - التى كانت حينئذ أقل تحفظاً لحد ما فى نظرتها للعالم عما هى الآن - أنه كان هناك الكثير من البيع على المكشوف، والكثير من البيع المصطنع والكثير من البيع بغرض إظهار السوق فى حالة سيئة". سلطات البورصة - فى ذلك الوقت - كانت تسعى لتبديد تلك الشبهات، ولكن لم يرد شىء عن نتائج لتلك المساعى.

جهد أكثر أهمية جاء من قبل الرئيس هوفر، الذى من المحتمل أنه كان لا يزال غير مبال بمصير البورصة، ولكنه لم يكن يستطيع أن يكون غير مبال بالأساسيات المعروفة للجميع، والتى كانت فى ذلك الوقت تسوء أسبوعاً بعد أسبوع. أسعار السلع كانت فى هبوط مستمر. نقل البضائع بالسكك الحديد، وإنتاج الحديد والصلب، واستخراج الفحم، وإنتاج السيارات كانت كلها أيضاً مستمرة فى الهبوط، ونتيجة لذلك، كان المؤشر العام للإنتاج الصناعى فى انخفاض أيضاً. والواقع أنه كان يهبط أسرع كثيراً من هبوطه الحاد أثناء كساد ما بعد الحرب العالمية الأولى فى ١٩٢٠ / ١٩٢١، وكانت هناك إشارات تحذير بشأن الانخفاض فى مشتريات السلع الاستهلاكية، وخاصة السلع الأعلى سعراً،

وقد قيل إن مبيعات أجهزة الراديو في نيويورك؛ قد انخفضت بمقدار النصف منذ بداية الانهيار.

لقد كانت الخطوة الأولى للسيد هوفر متفقة مع ما قال به كينز^(*) فيما بعد، وبالتحديد كما كان يمكن أن ينصح به كينز والكينزونيون، أعلن عن تخفيضات ضريبية. وتم تخفيض سعر الضريبة على الأفراد والشركات بنسبة واحد بالمئة. وأدى هذا إلى تخفيض ضريبة الدخل على رب الأسرة الذي لا يعول ويبلغ دخله ٤٠٠٠ دولار بمقدار الثلثين، وتخفيض مشابه على من يبلغ دخله ٥٠٠٠ دولار. الضريبة على الرجل المتزوج ولا يعول ويبلغ دخله ١٠٠٠٠ دولار انخفضت بمقدار النصف. وكانت هذه تخفيضات كبيرة، ولكن تأثيرها كان للأسف ضعيفاً بسبب أن الضريبة التي جرى تخفيضها كانت بالنسبة إلى معظم الناس قليلة بالفعل؛ فالشخص الذي كان دخله ٤٠٠٠ دولار انخفض عبء الضريبة السنوي عليه من ٥٦٣ دولاراً إلى ١٨٨ دولار. والذي كان دخله ٥٠٠٠ دولار حصل على تخفيض من ١٦,٨٨ إلى ٥,٦٣. أما الذي كان دخله ١٠٠٠٠ دولار فقد انخفض عبء الضريبة السنوي بالنسبة له من ١٢٠ دولاراً إلى ٦٥ دولاراً، وعلى الرغم من ذلك فقد استقبلت الخطوة باعتبارها مساهمة في زيادة القوة الشرائية والتوسع في الاستثمارات وإحياء للثقة بوجه عام.

دعا السيد هوفر، أيضاً، إلى سلسلة من الاجتماعات حول حالة الاقتصاد. وخلال النصف الثاني من نوفمبر اجتمع مع الرئيس على التوالي قادة الصناعة، وكبار مديري السكك الحديد، ورؤساء المرافق العامة الكبرى، ورؤساء شركات الإنشاءات المهمة، وزعماء النقابات العمالية، ورؤساء المنظمات الزراعية. وفي كل من تلك الاجتماعات اتبعت الإجراءات نفسها.. كانت هناك جلسة رسمية مع الرئيس، أخذ الحاضرون صوراً مع الرئيس، ثم كان هناك مؤتمر صحفي عبر فيه

(*) جون ماينارد كينز (١٨٨٢ - ١٩٤٦) اقتصادي إنجليزي كان لأفكاره أكبر الأثر في الفكر الاقتصادي والدور الاقتصادي للدولة في القرن العشرين. تلخص آراء كينز في أن الحكومة يجب أن تستخدم المال العام من أجل الحفاظ على مستوى التوظيف، على سبيل المثال من خلال الإنفاق على الأشغال العامة بغرض توفير الوظائف؛ ومن ثم زيادة الاستهلاك في أوقات الركود والكساد (المترجم).

المجتمعون للصحافة عن رأيهم فى الاحتمالات المستقبلية للأعمال. وكانت الآراء، بلا استثناء، مبشرة. وبعد اجتماع قادة الصناعة يوم ٢١ نوفمبر الذى حضره، ضمن آخرين، كل من هنرى فورد، ووالتر تيجل، دووین دى يانج، والفرد بى سلون، جى آر بيير دو بونت، والتر جيفورد، أندرو ميلون، كان التعبير عن الثقة قوياً لدرجة أن جولويس روسينوالد، الذى حضر الاجتماع أيضاً، قال إنه يخشى من أن يكون هناك فى القريب العاجل نقص شديد فى العمالة.

كان مديرو المرافق والسكك الحديد وشركات الإنشاءات على المستويين نفسه من الأمل. حتى قادة المنظمات الزراعية كانوا أقل عزلة من المعتاد فى ذلك الوقت، وقالوا بعد الاجتماع إنهم أخبروا الرئيس بأن "الروح المعنوية فى مجال أعمالهم أفضل مما كانت عليه لسنوات" (١).

وكانت هذه طمأننة منظمة على مستوى كبير حقاً. وقد اجتذب أكثر التعليقات حماسية فى تلك الفترة؛ حيث ذهبت صحيفة فيلادلفيا ريكورد إلى وصف الرئيس بأنه "ببساطة هو أكثر الشخصيات القيادية فى علم (هندسة إدارة الدولة) الحديث". أما البوسطن جلوب فقد قالت: إن الأمة تدرك الآن "أن لديها فى البيت الأبيض رجلاً يؤمن لا بفلسفة الانهزامية، ولكن بدينامية التمكن" (٢).

— ٤ —

ليس من العدل أن نفترض أن الرئيس هوفر كان مشغولاً فقط بتنظيم نوع من الطمأننة، فقد كان أيضاً يمارس واحداً من أقدم وأهم الطقوس فى الحياة الأمريكية وأكثرها استعصاء على الفهم. وهو طقس الاجتماع الذى يسمى "لا أن تفعل شيئاً بل أن تفعل لا شيئاً". إنه طقس لا يزال يمارس كثيراً فى وقتنا هذا. وهو يستحق أن يراجع ولو لبعض الوقت.

الناس يجتمعون لأسباب كثيرة فى سياق الأعمال، فهم يحتاجون لأن يرشدوا أو يقتنعوا بعضهم بعضاً، ويجب اتفاقهم على مسار للعمل. وهم يرون أن التفكير

(١) Magazine of wall street, December 14, 1929, p. 264.

(٢) التعليقات مأخوذة من: The Literary Digest, November, 30, 1929.

الجماعى أكثر جدوى أو أقل إيلاما من التفكير على انفراد، ولكن هناك أسباباً مماثلة - على الأقل - للاجتماع من أجل فعل لا شيء. فالاجتماعات تعقد لأن الرجال يسعون للصحة أو - على الأقل - يرغبون فى الهرب من الضجر من الواجبات الفردية. إنهم يتوقعون للأبهة التى تضيف على الرجل الذى يترأس الاجتماعات، وهذا يقودهم للدعوة لتجمعات يستطيعون أن يترأسوا عليها. وأخيراً، هناك الاجتماع الذى يدعى له ليس لأن هناك عملاً يجب إنجازه، ولكن لأنه من الضرورى خلق الانطباع بأن هناك عملاً ينجز. مثل هذه الاجتماعات تمثل ما هو أكثر من بديل للفعل، فهى يشار إليها على نطاق كبير باعتبارها فعلاً.

إن حقيقة أنه لا شيء ينجز فى اجتماع اللا عمل لا تشكل فى المعتاد سبباً مهما للخرج بالنسبة إلى هؤلاء الذين يحضرونه. هناك صيغ كثيرة جداً اخترعت لرفع الحرج.. وهكذا فإن الباحثين، الذين هم متحمسون بشدة لاجتماعات اللا عمل - يعتمدون بقوة على مسوغ تبادل الأفكار. فتبادل الأفكار بالنسبة إليهم شيء جيد تماماً. وإى اجتماع يتم فيه تبادل للأفكار هو - لذلك - مفيد. وهذا المسوغ غير قابل للمناقشة تقريباً. ومن الصعب جداً أن تجد اجتماعاً يمكن أن يقال عنه إنه لم يتم فيه تبادل للأفكار.

مندوبو المبيعات ومديرو المبيعات، الذين هم أيضاً من ممارسى تجمعات اللا عمل، لديهم مسوغ آخر مشترك، وهو مسوغ ذو نبرة روحانية قوية. ففضلاً عن دفع الولاء، وتفاعل الشخصية، وتحفيز الكحوليات، وإلهام الفصاحة، هناك تجدد الولاء التلقائى للمهام اليومية، فالاجتماع مثمر لذاته فى حياة أكمل وأفضل، ولبيع مزيد من السلع فى الأسابيع والأشهر المقبلة.

اجتماعات اللا عمل بالنسبة إلى كبار المديرين التنفيذيين تعتمد فى وهم أهميتها على شيء مختلف تماماً. ليس على تبادل الأفكار ولا على المزايا الروحانية للولاء، ولكن إحساساً مهيباً بالسلطة المجتمعة يعطى أهمية لتلك التجمعات. وحتى لو لم يقل أو يفعل شيئاً ذا أهمية، فإن الرجال ذوى الأهمية لا يمكن اجتماعهم دون أن تبدو المناسبة مهمة. وحتى الكلمة التافهة التى تصدر عن

رئيس إحدى الشركات الكبرى هي، فى النهاية، عبارة تفوه بها رئيس شركة كبرى، وما تفتقر إليه من محتوى تكتسبه كقوة مستمدة من الأصول التى تقف وراءها.

كانت اجتماعات اللا عمل أداة مثالية - تقريباً - بالنسبة إلى الموقف الذى وجد الرئيس هوفر نفسه فيه فى خريف ١٩٢٩؛ وإذاجنبنا التخفيضات الضريبية المتواضعة، فإن الرئيس هوفر كان نافرا بوضوح من من أى تصرفات حكومية على مستوى كبير لمواجهة الكساد المتزايد. كما أنه لم يكن من المؤكد ما الذى يجب فعله، ولكن فى سنة ١٩٢٩ ضعف إلى حد كبير الإيمان الشائع بالحرية الاقتصادية. ولم يكن فى مقدور أى زعيم سياسى مسئول المناداة بسياسة عدم التدخل. اجتماعات اللا فعل فى البيت الأبيض كانت تعبيراً فعلياً عن سياسة الحرية الاقتصادية، حيث لم ينتج عنها أى تصرف إيجابى. وفى الوقت نفسه أعطت إحساساً بأن هناك تصرفات حقيقية مثيرة للإعجاب. إن التقاليد التى تحكم اجتماعات اللا عمل تضمن ألا يحدث أى حرج ناتج عن غياب أى عمل. وهؤلاء الذين كانوا يحضرون الاجتماعات قبلوا بأهمية الذين يحضرون الاجتماعات باعتباره مقياساً لأهمية الاجتماعات. وتعاونت الصحف أيضاً على تأكيد أهمية الاجتماعات، ولو أنهم لم يفعلوا ذلك لكانوا - بالطبع - قد أضعفوا من قيمة تلك الاجتماعات كأخبار.

فى الأوقات الأخيرة، أصبحت اجتماعات اللا عمل فى البيت الأبيض، والتى يحضرها حكام الولايات، ورجال الصناعة، وممثلو الأعمال والعمال والزراعة، أصبحت مؤسسة حكومية راسخة. إن اللجوء للأفعال الزائفة - عندما يكون التصرف غير ممكن - يصير شيئاً لا غنى عنه لديمقراطية جيدة وفعالة. السيد هوفر فى ١٩٢٩ كان رائداً فى هذا المجال من الإدارة العامة.

حيث تعمق الكساد، قيل إن اجتماعات السيد هوفر كانت فاشلة، وهذا يعكس بوضوح نظرة ضيقة جداً.

- ٥ -

فى يناير وفبراير ومارس ١٩٣٠؛ أظهرت البورصة تحسناً كبيراً. ثم فى أبريل، فقد التحسن زخمة، وفى يونيو حدث هبوط كبير آخر. وبعد ذلك، ومع استثناءات

قليلة، راحت السوق تهبط أسبوعاً وراء أسبوع، وشهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة حتى يونيو ١٩٣٢؛ وعندما توقف الهبوط أخيراً، كان أسوأ مستوى وصل إليه الموقف أثناء الانهيار؛ جديراً بأن يذكر بنقيضة، فريماً نستطيع استرجاع أنه في ١٢ نوفمبر ١٩٢٩ كان إقفال مؤشر التايمز للشركات الصناعية على ٢٢٤ نقطة، وفي ٨ يوليو ١٩٣٢ وصل إلى ٥٨ نقطة؛ وهذه القيمة لم تكن أكبر كثيراً من الهبوط الصافي الذي حدث يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٢٩ وحده. ستاندرد أويل أوف نيوجيرسي، التي اعتقد آل روكفلر أنه يمكن تثبيتها عند ٥٠ دولاراً في ١٢ نوفمبر ١٩٢٩؛ انخفضت لأقل من ٢٠ دولاراً في أبريل ١٩٣٢، وفي ٨ يوليو وصل إلى ٢٤، يو إس ستيل وصل في ٨ يوليو إلى ٢٢؛ بينما في ٣ سبتمبر ١٩٢٩ بيع بسعر ٢٦٢ جنرال موتورز وصل في ٨ يوليو إلى ٨ دولارات مقابل ٧٣، في ٣ سبتمبر مونتجمري وارد وصل إلى ٤ في مقابل ١٢٨، تل آند تل وصل إلى ٧٢ بينما بيع في ٣ سبتمبر ١٩٢٩ مقابل ٣٠٤، أناكوندا بيع في ٨ يوليو مقابل ٤ دولارات. ولاحظت صحيفة كوميرشال آند فاينانشال كرونكل أن "أسهم النحاس منخفضة لدرجة أن تقلباتها ذات شأن قليل" (١).

ومع ذلك، وعلى سبيل المقارنة، فإن قيم تلك الأسهم الرئيسية بقيت معقولة؛ حيث كانت الأمور أسوأ كثيراً مع التكتلات الاستثمارية؛ حيث وصل سهم بلوريدج في نهاية الأسبوع المنتهى في ٨ يوليو ١٩٣٢ إلى ٦٣ سنتاً، ووصل سهم شيناندوه إلى ٥٠ سنتاً. أما يونيتد فاوندرز وأميريكان فاوندرز فقد دارت قيمة سهم كل منهما حول ٥٠ سنتاً مقارنة بـ ٧٠ و ١٧٠ دولاراً، دون حاجة للقول، في ٣ سبتمبر ١٩٢٩. والخوف في نوفمبر ١٩٢٩ من أن تؤول التكتلات الاستثمارية إلى لا شيء تحقق إلى حد كبير.

لم يعد أحد يستطيع القول بأن الأعمال كانت سليمة، سواء من حيث الأساس أو غير ذلك. فخلال أسبوع ٨ يوليو ١٩٣٢؛ أعلنت شركة أيرن آدج أن عملياتها في صناعة الصلب قد وصلت إلى ١٢٪ من طاقتها. وقد نظر إلى ذلك باعتباره

July 9, 1932. (١)

رقماً قياسياً؛ كما وصل إنتاج الحديد الخام إلى أدنى مستوياته منذ ١٨٩٦، وقد اقتصر التعامل فى بورصة نيويورك فى ذلك اليوم على ٢٨٧ ٧٢٠ سهماً.

قبل أن تصل كل الأمور إلى تلك الدرجة كان هناك المزيد والمزيد من جهود الطمأنة.. ففى أسابيع الانهيار صرح الرئيس هوفر بحكمة قائلاً: "خبرتى الشخصية ... أن الكلمات ليس لها أى أهمية كبيرة فى أوقات الاضطرابات الاقتصادية". ولكنه نسى هذه القاعدة التى لا تدحض بعد ذلك، حيث أخبر الكونجرس فى ديسمبر بأن الخطوات التى اتخذها - مؤتمرات اللا عمل فى البيت الأبيض على وجه الخصوص - قد "أعادت تأسيس الثقة". وفى مارس ١٩٣٠ فى أعقاب فيضان من التنبؤات المتفائلة من قبل موظفيه، قال السيد هوفر إن أسوأ آثار الانهيار على البطالة سوف تنتهى خلال ٦٠ يوماً. وفى مايو قال السيد هوفر إنه أقتنع بأننا "الآن قد عبرنا الأسوأ، وبوحدة جهودنا سوف نصير إلى الأفضل". وقرب نهاية الشهر قال إن الأعمال ستكون فى حالتها الطبيعية مع حلول الخريف^(١).

ولعل آخر كلمات سياسة الطمأنة صدرت عن سيمون دى فيس، رئيس اللجنة الوطنية الجمهورية:

"الأشخاص الموجودون فى الدوائر الجمهورية العليا بدعوا يعتقدون أن هناك بعض الجهود المنسقة القائمة على قدم وساق؛ من أجل استخدام البورصة كوسيلة لتشويه سمعة الإدارة. ففى كل مرة يصرح فيها مسئول فى الإدارة بعبارة متفائلة حول أحوال الأعمال، تهبط البورصة فى الحال^(٢)."

(١). Fredrick Lewis Allen, Only yesterday, pp.40-41.

(٢). Quoted by Edward Angly, Oh, Yeah, p. 27, from the New York World, October 15, 1930.

الفصل الثامن

فى أعقاب الانهيار (٢)

دمر الانهيار ثروات مئات الآلاف من الأمريكيين. ولكن بين الناس ذوى الحيثية كان هناك تدمير أسوأ أصاب السمعات. ففى مثل هذه الدوائر، تعرض رصيد الحكمة والبصيرة والأمانة أيضاً - مع الأسف - لتقلص عنيف ومفاجئ.

وبشكل عام، لم يوضع هؤلاء الذين ادعوا فى أثناء الانهيار أن الأعمال سليمة من حيث الأساس موضع المحاسبة عن كلماتهم. وقد تبينت الطبيعة الطقسية لتعبيرهم، حيث فى وقتها - وكما هو الآن - لم يفترض أحد أن هؤلاء المتحدثين كانوا يعرفون ما إذا كانت الأعمال سليمة أو غير سليمة. كان هناك استثناء وحيد هو السيد هوفر، فمما لا شك فيه أنه عانى نتيجة لتنبؤاته المتكررة بالازدهار الوشيك. ومع ذلك، فإن هوفر قد حوّل طقس التطمين البسيط فى عالم الأعمال إلى أداة رئيسية للسياسة العامة. وقد كانت العاقبة المؤكدة لذلك أن أصبح ذلك الطقس موضوعاً للتعليق السياسى.

المتنبئون المنتمون إلى عالم الباحثين لم يكونوا محظوظين كثيراً. وقد تمسك الناس باكتشافهم لكون هؤلاء الباحثين على غير علم بكل الأمور. وقد اختفى السيد لورانس من برينستون، ولم يسمح له صوت بين الاقتصاديين مرة أخرى.

وصلت الجمعية الاقتصادية في هارفارد - وسوف نعود لذكرها - إلى صيف الانهيار بسمعة قيمة في التشاؤم، لكنها تخلت عن هذا الموقف أثناء فصل الصيف عندما أخذت البورصة في الارتفاع وبدأت الأعمال قوية. وفي الثاني من نوفمبر، بعد الانهيار، خلصت الجمعية إلى أن "الركود الحالي، في كل من البورصة والأعمال، ليس مقدمة لكساد في مجال الأعمال". وفي العاشر من نوفمبر عبرت عن تقديرها للموقف قائلة "إن كساداً خطيراً مثل ذلك الذي وقع في ١٩٢٠ / ١٩٢١ هو خارج نطاق التوقعات". وقد كررت نفس التقدير في ٢٣ نوفمبر، وفي ٢١ ديسمبر قدمت نبوءتها للعام الجديد قائلة: "الكساد أمر مستبعد، ونتوقع أن يحدث تحسن في الأعمال في الربيع القادم، مع مزيد من التحسن في الخريف". وفي ١٨ يناير ١٩٣٠ قالت الجمعية: "توجد مؤشرات على أن المرحلة الأكثر قسوة من الركود قد ولت". وفي الأول من مارس قالت إن: "نشاط التصنيع الآن ٦ وبالنظر لفترات الانكماش - السابقة - هو بالتأكيد على طريق التحسن". وفي ٢٢ مارس: "إن المستقبل يتخذ اتجاهاً مواتياً". وفي ٢٩ مارس: "آفاق المستقبل مواتية". وفي ١٩ أبريل: "بحلول مايو أو يونيو، سوف يظهر بوضوح التحسن المزمن للربيع الذي تنبأنا به في رسائلنا في نوفمبر وديسمبر الماضيين". وفي ١٧ مايو قالت إن الأعمال "سوف تتحول للأفضل في هذا الشهر أو الذي يليه. وسوف تشهد تحسناً قوياً في الربع الثالث من العام وفي نهايته بمستويات فوق المعتادة بدرجة كبيرة". وفي ٢٤ مايو رأت أن الظروف "مستمرة في التطابق" مع تنبؤات ١٧ مايو. وفي ٢١ يونيو رأت أنه "على الرغم من عدم الانتظام الموجود"، فسوف يكون هناك تحسن في القريب العاجل. وفي ٢٨ يونيو قررت أن "التحركات غير المنتظمة والمتضاربة في مجال الأعمال سوف تخلو الطريق في القريب العاجل لتحسن مستدام". وفي ١٩ يوليو أشارت إلى أن "عوامل معاكسة أدت إلى تأخير التحسن، ولكن الدلائل تشير بلا شك إلى تحسن جوهري". وفي أغسطس قررت الجمعية أن "الكساد الحالي قد فقد قوته تقريباً". ومنذ ذلك الحين أصبحت الجمعية أضعف آمالاً. وفي ١٥ نوفمبر ١٩٣٠ قالت: "نحن الآن قريبون من نهاية مرحلة تراجع الكساد". وبعد سنة، في ٢١

أكتوبر ١٩٢١. قالت: "إن تثبيت مستويات الكساد الحالية ممكن بوضوح"^(١). وحتى تلك التنبؤات الأخيرة كانت متفائلة إلى حد كبير. بعد ذلك بقليل - وحيث بهتت مصداقيتها الكبيرة - حلت الجمعية. وتوقف أساتذة الاقتصاد في هارفارد عن التنبؤ بالمستقبل، ومرة أخرى عادوا يرتدون رداء تواضعهم المعتاد.

البروفيسور إرفينج فيشر حاول بشدة أن يفسر لماذا كان على خطأ. وقد صرح في أوائل نوفمبر ١٩٢٩ بأن الأمر كله كان غير معقول، وبالتالي كان خارج نطاق التوقعات. وبعبارة بعيدة عن التماسك قال: "لقد كانت سيكولوجية الربح. لقد كانت سيكولوجية العوام، ولم تكن المسألة أساساً أن مستوى الأسعار في السوق كان مرتفعاً على نحو غير طبيعي... هبوط السوق يعزى إلى حد كبير جداً إلى السيكولوجية التي بسببها هبطت السوق لأنها هبطت"^(٢). لم يجذب التفسير انتباهها ذا بال، فيما عدا ما صدر عن محرر صحيفة كوميرشال أند فايننشال كرونيكل الذي علق في اقتضاب موحش قائلاً: "البروفيسور المتعلم مخطئ كما هو معتاد أن يكون عندما يتحدث عن سوق الأوراق المالية". ثم أضاف قائلاً إن "العوام" لم يبيعوا، ولكنهم يبيعوا.

قبل أن ينتهي العام، حاول البروفيسور فيشر مرة أخرى من خلال كتاب "انهيار البورصة - وما بعده"^(٣). وقد جادل - وعلى حق حتى تلك اللحظة - بأن الأسهم لا تزال مستقرة، على الرغم من كونها أدنى بدرجة ما من السابق، وأن الانهيار كان حدثاً كبيراً، وأن السوق قد صعدت "أساساً بسبب التوقعات الصائبة والمبررة بتحقيق أرباح". وقد جادل أيضاً بأن حظر إنتاج الخمر وتداولها لا يزال قوة كبيرة في صالح أعمال ذات إنتاجية وربحية أعلى، وخلص إلى أنه "في المستقبل القريب على الأقل، يبدو الأفق مشرقاً". لم يجذب الكتاب إلا اهتماماً محدوداً. من عيوب أن تكون على خطأ أن هذا يسرق النبي من مستمعيه في اللحظة التي يكون هو في أمس الحاجة لأن يقدم لهم مبرراته.

(١) Quotations from the Weekly Letters of the given dates.

(٢) New York Herald Tribune, November, November 3, 1929. Quoted by The Commercial and Financial Chronicle, November 9, 1929.

(٣) New York: Macmillan, 1930. The Quotations following on pages 53 and 269.

وهناك فى أوهايو، نجا البروفسيور دايس بكرامته ليقضى بقية حياته يكتب ويدرس عن التمويل.

وقد يكون هذا أيضاً مكاناً مناسباً لتسجيل لحظة نهاية سعيدة أخرى. جولدمان ساكس آند كومبانى أنقذ اسمه من الإدانة، ومن الآن فصاعداً عاد إلى سيرته الأولى من الاستقامة المتشددة والتحفظ الصارم. وأصبح معروفاً بأعماله فى مجال أكثر الأوراق المالية انضباطاً.

- ٢ -

عانى أكبر بنكين فى نيويورك، تشيز وناشيونال سيتى، بشدة فى أعقاب الانهيار. فهما بالطبع قد شاركا فى الخزى العام لمصرفى نيويورك الذى نتج عن الآمال الكبرى وخيبة الأمل الكبرى فى الدعم المنظم. ولكن كان هناك أيضاً سوء حظ استثنائى حيث كان على رأس كل منهما فى تلك الأيام واحد من النوع الكبير من محركى السوق.

من بين الاثنين، كان تشيز هو الأفضل حظاً. فألبرت إتش ويجين، الذى كان فيما سبق رئيساً، ورئيساً لمجلس الإدارة، ورئيساً لمجلس محافظى بنك تشيز، كان مضارباً مؤثراً فى السوق، لكنه لم يكن متكلماً جيداً. ولكن فى ١٩٢٩ والسنوات التالية كان مرتبطاً بعدة مشروعات مذهلة. حيث تلقى فى ١٩٢٩ مبلغ ٧٥٠٠٠٠ دولار كمكافأة عن رئاسته بنك تشيز. كما كان أيضاً - فى وقت رئاسته لتشيز - مديراً فى نحو ٥٩ شركة فى مجالات المرافق والصناعة والتأمين وغيرها من الشركات. وقد تقاضى من بعضها أيضاً راتباً ضخماً. فشركة آرمور آند كومبانى دفعت له ٤٠٠٠٠ دولار لى يكون عضواً فى لجنتها المالية. كما كان يتقاضى ٢٠٠٠٠ دولار سنوياً من بروكلين مانهاتن ترانسيت كورپوريشن، كما دفعت له سبع شركات أخرى على الأقل ما يتراوح بين الفين وخمسة آلاف دولار سنوياً^(١).

إن الحكمة والاحترام، وحتى الإعجاب، لم تكن هى العوامل الوحيدة فى هذه المكافآت. فهؤلاء الذين دفعوا كانوا عادة عملاء ومقترضين محتملين من تشيز.

(١) Stock Exchange Practices, Report, 1934, p. 201-2.

ولكن الأكثر إثارة للانتباه فى المصالح الجانبية للسيد ويجين كان حفنة من الشركات الخاصة، ثلاث منها كانت شركات قابضة شخصية، اثنتان منهما سميتا فى لفظة عاطفية على اسمى ابنتيه. ثلاث أخرى تكونت فى كندا لأسباب غير عاطفية بالمرّة تتعلق بالضرائب وبالكتمان^(١).

هذه الشركات كانت أدوات لتنوع مذهب من عمليات البورصة. فى عملية من تلك العمليات فى ربيع ١٩٢٩ شاركت شيرمر كوربوريشن - واحدة من عدة شركات تحمل الاسم نفسه - كلا من هارى إف سنكلير وآرثر ديليو كوتن فى اتفاقية ضخمة للاستثمار المشترك فى الأسهم العادية لشركة سنكلير كونسوليديتيد أويل كومبانى. وحتى فى تلك الأيام المتسمة بالتسامح فقد كان سنكلير وكوتن يعتبران شركاء غير ملائمين بالنسبة لمصرفى مرموق. ومع ذلك، فقد غلّت العملية على شيرمر ٨٩١٦٠٠٢٧ دولاراً من خلال استثمار غير مرئى^(٢).

ومع ذلك فإن عمليات السيد ويجنى المبهرة كانت فى أسهم تشيز ناشيونال بنك. فهذه بدورها كانت ممولة من قبل تشيز بنك نفسه. وفى ضربة استثنائية مفاجئة، حسنة التوقيت، باعت شركة شيرمر كوربوريشن - بين ٢٢ سبتمبر و٤ نوفمبر ١٩٢٩ - على المكشوف ٤٢٥٠٦ أسهم من أسهم تشيز (لهؤلاء الذين يبدو لهم البيع على المكشوف سراً غامضاً، فإنه يعنى عملياً أنها تفاوضت على اقتراض ٤٢٥٠٦ أسهم ثم باعتها بالسعر الجيد جداً المتاح فى ذلك الوقت. وقد فعلت ذلك بنية شراء نفس العدد من الأسهم لاحقاً بسعر أقل لتسد الدين عينا للمقرض الذى أعطاهما الأسهم الأصلية. والريح الناتج عن رد الأسهم المشتراة بسعر أقل - دائماً يفترض أن السعر سينخفض - سوف يؤول بوضوح إلى شيرمر). وكلما انخفضت الأسهم بامتياز، ساهم البيع على المكشوف فى الانهيار. ثم فى ١١ ديسمبر ١٩٢٩ اشترت شركة مورلين كوربوريشن - وهذه كانت تحمل اسم ابنة أخرى - ٤٢٥٠٦ أسهم من إحدى الشركات المرتبطة بتشيز ناشيونال

(١) Stock Exchange Practices, Hearings, October 1933, pt. 5, p. 2304.

(٢) Stock Exchange Practices, Report, 1934, pp. 192-93.

بنك ومولت ذلك الشراء بقرض قيمته ٦٥٨٨٤٣٠ دولاراً حصلت عليه من تشيز ناشيونال بنك ومن شيرمر كورپوريشن. هذه الأسهم استخدمت لتغطية البيع على المكشوف الذى قامت به شيرمر كورپوريشن، أى لكى ترد الأسهم التى افترضتها. أرباح تلك العملية - فى الوقت الذى كان آخرون يحققون أقل كثيراً جداً - بلغت ٤٠٠٨٥٢٨ دولاراً^(١). الناس الميالون للعيب قد يتوقفون عند أن الأرباح قد تحققت بواسطة البنك الذى كانت الأسهم أسهمه، والذى كان ويجين رئيسه، والذى قدم المال اللازم للعملية. والواقع أن كل الأرباح ذهبت إلى ويجين. وقد دافع مستر ويجين لاحقاً عن القروض التى تقدمها البنوك لمديرها لكى تسمح لهم بالمضاربة على أسهمها انطلاقاً من أنها تحقق لهم مصلحة من خلال مؤسساتهم. ومع ذلك، فبانتهاء ذلك الخط للتبرير، تطرح القروض الخاصة بتمويل البيع على المكشوف صعوبة معينة: فعلى افتراض أن تلك القروض تنمى من مصلحتهم نتيجة لوجودهم على رأس مؤسساتهم، وبالتالي نتيجة لاملاكهم أسهمها؛ فإنهم يتصرفون على أسوأ نحو ممكن. وقد ركز السيد هيجين على تلك النقطة معبراً عن شكه فيما إذا كان المسئولون عن البنوك يصح أن يبيعوها على المكشوف.

فى نهاية ١٩٣٢ طلب السيد هيجين ألا يعاد انتخابه كرئيس لمجلس محافظى البنك. لقد كان يقترب من الخامسة والستين. وقد لاحظ بشئ من المبالغة أن "قلبه وطاقته قد ركزا لسنوات طويلة على دفع نمو وخير وجدوى تشيز ناشيونال بنك"^(٢). كما يبدو من المحتمل أيضاً أن وينثروب دبليو ألتريتش - الذى أتى إلى تشيز كنتيجة للاندماج مع إكويتابل ترست كومبانى، والذى كان يمثل تقاليد أكثر انضباطاً فى العمل المصرفى، حيث إن إكويتابل كان خاضعاً لسيطرة آل روكفلر - قد وصل إلى الإشارة إلى السيد ويجين باعتباره لا لزوم له^(٣). لقد صوتت اللجنة التنفيذية لبنك تشيز بالإجماع على أن تدفع له راتباً تقاعدياً قدره

(١) Stock Exchange Practices, Report, 1934, pp. 188 ff.

(٢) Stock Exchange Practices, Hearings, October 1933, pt. 5, p. 2304.

(٣) السيد ألتريتش أخبر لجنة من مجلس الشيوخ فيما بعد (ibid., p. 4020) أن الاختلافات فى الراى بينه وبين أصدقاء السيد ويجين وبينه وبين السيد ويجين كانت من قبيل الآراء العامة.

١٠٠٠٠٠ دولار "وفاء بالتزاماتها تجاه السيد ويجين" (١). وقد تبين - فيما بعد - أن تلك اللمحة من الكرم الملهم كانت بدافع من السيد ويجين نفسه. خلال الأشهر اللاحقة لتقاعد السيد ويجين أصبحت نشاطاته محل دراسة تفصيلية من قبل لجنة من مجلس الشيوخ. وقد اعترف السيد ألدريتش، الذي خلفه في منصبه، بدهشته إزاء التوسع والتنوع في مشروعات سلفه، وقال: إن التصويت لصالح منح الراتب التقاعدي كان خطأ رهيباً. وقد تنازل السيد هيجين عن هذا الراتب فيما بعد.

- ٣ -

بالمقارنة مع ناشونال سيتي كانت مشاكل تشيز بسيطة. فقد كان السيد ويجين متحفظاً، حتى إن البعض وصفوه بأنه كان - إلى حد ما - رجلاً بحاثاً. وعلى الجانب الآخر كان السيد تشارلز إي ميتشيل رئيس ناشيونال سيتي رجلاً منفتحاً ودوداً يتمتع بموهبة صنع مانشيتات الصحف. كما كان معروفاً للجميع كأحد الأنبياء المتزعمين قيادة العصر الجديد.

في خريف ١٩٢٩ كانت هناك إشاعات في وول ستريت تقول إن ميتشيل قد يستقيل من منصبه؛ لكنه لم يفعل، ووصفت الإشاعات من قبل بيرسي أي روكفلر - المشارك في عدد كبير من عمليات البورصة غير المتحفظة نوعاً والمدير في ناشيونال سيتي - بأنها "من السخافة لدرجة ألا يمكن أن يعتد بها شخص عاقل" (٢). على مدى السنتين أو الثلاث التالية كان ميتشيل بعيداً عن الأضواء إلى حد بعيد. ثم في تمام التاسعة من مساء ٢١ مارس ١٩٣٣ ألقى القبض عليه بواسطة توماس إي ديوي، نائب المحامي العام لمدينة نيويورك، بتهمة التهرب من ضريبة الدخل.

كثير من الحقائق لم تكن محل خلاف جدي على الإطلاق. ومثله مثل ويجين، كان ميتشيل يقوم على نطاق واسع بتعاملات في البورصة على أسهم بنكهة، على

(١) Ibid., p. 2302.

(٢) Investment News, November 16, 1929, p. 546.

الرغم من أنه ربما قام بها لأسباب دفاعية أكثر. سنة ١٩٢٩ كانت سنة اندماج البنوك، وتشارلز إى ميتشيل لم يكن بالرجل الذى يقاوم التيار. وفى أوائل خريف ١٩٢٩ أتم تقريباً اندماجاً مع كورن إكستشينج بنك. لقد وافق مديرو كل من المؤسسات، وكان كل ما تبقى هو الإجراءات الشكلية للتصديق من قبل حملة الأسهم. كان من حق حملة سهم كورن إكستشينج - اختيارياً - أن يحصلوا مقابل سهمهم على أربعة أخماس سهم ناشيونال سيتى أو على ٣٦٠ دولار نقداً. وكان سعر سهم ناشيونال سيتى فى ذلك الوقت أكثر من ٥٠٠ دولار. وبذلك كان من المؤكد أن يأخذ حملة سهم كورن إكستشينج سهم ناشيونال سيتى.

ثم جاء الانهيار، وانخفض سعر سهم ناشيونال سيتى إلى ٤٢٥ دولاراً، فى حين أن أى سعر أقل من ٤٥٠ دولاراً - الذى تصبح عنده الأربعة أخماس مساوية ٣٦٠ دولاراً نقداً - سوف يفضل حملة سهم كورن إكستشينج أن يأخذوا المقابل نقداً. ولكى يتم شراء كل أسهم حملة سهم كورن إكستشينج نقداً، كان ذلك يتكلف ٢٠٠ مليون دولار. وكان ذلك كثيراً جداً. ومن ثم تولى ميتشيل إنقاذ الصفقة. وقد بدأ بشراء سهم ناشيونال سيتى، وخلال الأسبوع الذى بدأ فى ٢٨ أكتوبر رتب للحصول على قرض قيمته ١٢ مليون دولاراً من جى بى مورجان آند كومبانى لكى يشتري به المزيد ١٢ مليوناً كان مبلغاً ضخماً بالنسبة لكل من ميتشيل ومورجان، حتى فى ذلك الوقت. وقد استخدمت فعلياً عشرة ملايين فقط، وتم رد أربعة منها خلال أسبوع أو نحو ذلك. ومن المحتمل أن بعض شركاء مورجان كان لهم رأى آخر فى حكمة هذا القرض).

وفشلت الخبطة، ومثل الكثيرين تعلم ميتشيل كم هو مختلف أن تدعم سهماً عندما يكون كل شخص راغباً فى البيع مقارنة بتلك الأيام - قبل عدة أسابيع مضت - التى كان فيها كل شخص راغباً فى الشراء. سعر سهم ناشيونال سيتى هبط لأدنى ثم أدنى. ووصل ميتشيل إلى نفاد موارده ثم استسلم. ولم يكن هذا وقت الاعتزاز الزائف، وبيع الحث اللطيف من الإدارة، قام حاملو أسهم ناشيونال سيتى بسحب الثقة من تلك الإدارة ورفضوا تلك الصفقة الكارثية. ورغم ذلكبقى ميتشيل مديناً بديون ضخمة لجى بى مورجان آند كومبانى. هذه

الديون كانت مضمونة بالأسهم التي اشتراها ميتشيل لدعم السوق وبيع بعض ممتلكاته الخاصة، لكن قيمتها كانت تنكمش بشكل محزن. وبنهاية العام كان سعر سهم ناشيونال سيتي قد اقترب من ٢٠٠ دولار، بعد أن كان أكثر من ٥٠٠ دولاراً. واقترب من القيمة التي قبله بها مورجان كضمان.

عند ذلك، واجه ميتشيل سوء حظ آخر، أو على الأصح، واجه شيئاً كان في وقت سابق من قبيل حسن الحظ، وأصبح الآن كارثة. فبصفته مديراً تنفيذياً لـ ناشيونال سيتي بنك، كان يتقاضى راتباً متواضعاً قدره ٢٥٠٠٠ دولار. مع ذلك كان لدى البنك نظام للحوافز ربما لا يزال يمثل رقماً قياسياً في سخائه. فبعد استقطاع ٨٪ كانت ٢٠٪ من أرباح البنك، ومن أرباح شريكه ناشيونال سيتي كومبانى؛ توضع في صندوق خاص بالإدارة. وكانت هذه المبالغ تقسم مرتين كل عام بين كبار المسؤولين وفقاً لنظام طريف ينفذ خلال نصف ساعة. كل واحد من المسؤولين يصوت دون التوقيع باسمه في ورقة يلقونها في قبة مقترحةً النصيب الذي يجب أن يحصل عليه ميتشيل من الصندوق. ثم يقوم كل واحد بتوقيع ورقة أخرى تحتوى على الأنصبة التي يقترح أن يحصل عليها كل من المسؤولين الآخرين المستحقين فيما عدا هو نفسه. وكان متوسط تلك التقديرات هو الذي يرشد اللجنة التنفيذية للبنك في تحديد النسبة المئوية التي يحصل عليها كل مسئول من الصندوق.

شهدت سنتا ١٩٢٨ و ١٩٢٩ أرباحاً ممتازة. وقد أخذ مرعوسو ميتشيل أيضاً فكرة إيجابية عن أعماله. وقد بلغت حصته عن سنة ١٩٢٨ بأكملها ١٢١٦٦٣٤١٤ دولاراً. وكانت ١٩٢٩ أفضل حالا حيث بلغ نصيبه في نهاية النصف الأول من تلك السنة ما لا يقل عن ١٠٨٠٠٠ دولار^(١). التوزيعات على الأسهم وأنشطة كثيرة أخرى رفعت من دخله، كل هذا كان يعنى مقدرة ضريبية كبيرة. وقد كان من السهل أن يبيع بعض أسهم ناشيونال سيتي لكي يحقق خسارة ضريبية، ولكن الأسهم – كما ذكرنا – كانت مرهونة لدى جى بى مورجان آند كومبانى.

(١) Stock Exchange Practices, Report, 1934, p. 206.

ومع هذا فقد باع ميتشيل الأسهم إلى زوجته. ١٨,٣٠٠ سهم تم التخلص منها إلى هذه السيدة التي لم تكن موضعاً للشكوك مقابل ٢١٢ دولاراً للسهم بخسارة كافية جداً تصل إلى ٢٨٧٢٣٠٥٥٠ دولاراً. هذه الخسارة استوعبت كل الوعاء الضريبي لسنة ١٩٢٩. وعلى ما يبدو أن مورجان لم يحط علماً بتغير وضع ملكية الأسهم التي في حوزته. بعد بعض الوقت استرد ميتشيل الأسهم من زوجته مقابل ٢١٢ دولاراً أيضاً. قبل ذلك كان قد حدث انخفاض صادم آخر في السعر، ولو أن السيد ميتشيل اشترى الأسهم من السوق المفتوحة بدلاً من أن يشتريها من زوجته لاستطاع أن يشتريه مقابل حوالي ٤٠ دولاراً. وعندما سئل عن هذه العملية من قبل السيناتور بروكهارت عن ولاية أيوا أثناء جلسة استماع بمجلس الشيوخ، قال ميتشيل في نوبة صراحة - مفاجئة أذهلت محاميه: "أنا باعت تلك الأسهم - صراحة - لأغراض ضريبية" (١). هذه الصراحة قادت مباشرة إلى اتهامه بعد بضعة أسابيع.

بعد هذه الشهادة، استقال ميتشيل من ناشيونال سيتي بنك. وأحدثت محاكمته في نيويورك أثناء مايو ويونيو ١٩٢٣ شيئاً من الضجة، على الرغم من أن أنباءها كانت بالضرورة في مرحلة تالية في الأهمية بالنسبة لأحداث أهم كانت تجري آنذاك في واشنطن. وفي خطابه الافتتاحي في ٤ مارس، وعد روزفلت بأنه سيخلص البلاد من سماسرة المال. وكان ميتشيل أول من تنطبق عليهم تلك الإشارة عن جدارة.

في الثاني والعشرين من يونيو برىء ميتشيل من قبل هيئة المحلفين من التهم كافة. المبيعات التي كان مطلوباً إدانتها بموجب قوانين الضرائب اعتبر أنها عمليات حقيقية تمت بحسن نية. في تغطيته للمحاكمة، أعرب مراسل التايمز عن اعتقاده بأن ميتشيل ومحاميه استقبلا الحكم بدهشة. وقال المحامي العام كومينجز إنه لا يزال يؤمن بنظام المحلفين. واستأنف ميتشيل عمله لاحقاً في وول ستريت كرئيس لبنك بليث آند كومباني. وتدخلت الحكومة بدعوى مدنية وكسبت حكماً بمبلغ ١١٠٠٠٠٠ دولار عن الضرائب والغرامات. واستأنف ميتشيل القضية

(١) Ibid., p. 322.

أمام المحكمة العليا، وخسرناها، ثم عقد اتفاقية نهائية مع الحكومة فى ٢٧ ديسمبر ١٩٢٨ ونياية عن ميتشيل، يجب التركيز على أن الوسيلة التى سعى من خلالها لتخفيض وعائه الضريبى كانت فى ذلك الوقت أكثر شيوعاً بكثير مما فى وقتنا الراهن. وقد أظهرت تحقيقات مجلس الشيوخ فى ١٩٢٣ و١٩٢٤ أن التهرب الضريبى قد أدى بأشخاص فى أعلى درجات الاحترام إلى علاقات مالية استثنائية حميمة مع زوجاتهم^(١).

- ٤ -

إن تقاليدنا السياسية تعطى أهمية كبيرة للرمز المعمم للشر. فهذا هو الأثم الذى سيؤخذ إثمه من قبل الجمهور لكى يمثل الميل الخفى لكل مجتمعه أو طبقته. نحن نبحث بشغف عن أمثال هؤلاء الناس، ليس بالدرجة الأولى لأننا نريد أن نراهم يساءلون أو يعاقبون كأفراد، لكن لأننا نهتم بشدة بالأذى السياسى الذى سينعكس على أصدقائهم. فالكشف عن شخص شرير بين أصدقاء الخصوم كان دائماً وسيلة معترفاً بها لتحسين الموقف السياسى للمرء. ورغم ذلك، فقد تطور التكنيك ونقح كثيراً فى الأوقات الأخيرة، عن طريق الصرامة التى أضيفت إلى الطريقة التى يعزى بها جرم المجرم الآن إلى أصدقائه ومعارفه وكل الذين يشاركونه أسلوبه فى الحياة.

فى ثلاثينيات القرن العشرين كان وول ستريت مبتلى بالأعداء بصفة استثنائية. كان هناك بعض الاشتراكيين والشيوعيين الذين آمنوا بأنه يجب الإطاحة بالرأسمالية، وكانوا بوضوح لا يسعون لبقاء معقلها مصوناً. وكان هناك بعض الناس الذين يعتقدون ببساطة أن وول ستريت كان شيئاً سيئاً. كان هناك أيضاً البعض الذين لا يسعون إلى الإطاحة بالرأسمالية، أو لم يكونوا يهتمون كثيراً بأساليبها الشريرة المزعومة، لكنهم كانوا يستمتعون بطبيعتهم بهزيمة الأغنياء والأقوياء والمتفطرسين. وكان هناك هؤلاء الذين خسروا أموالهم فى وول ستريت. وأكثر من كل هذا كان هناك العقد الجديد "New Deal" فإدارتا كوليدج

(١) Ibid., pp. 321, 322.

وهووفر كانتا متحالفتين علنا مع المصالح المالية الكبرى التى كان يمثلها وول ستريت. وبالإعلان عن العقد الجديد أصبحت خطايا وول ستريت هى خطايا الخصم السياسى. وما كان سيئاً وبالأعلى وول ستريت كان وبالا على الحزب الجمهورى.

وبالنسبة إلى أى شخص كان يبحث عن رموز للشر فى وول ستريت - عن الأشخاص الذين يمكن أن يصم سوء سلوكهم مجتمعهم بأكمله - كان اكتشاف أن قيادات ناشيونال سيتى وتشيز مدانة بسقطات خطيرة يمكن أن يبدو نموذجياً تقريبا. كان هذان أكثر البنوك شهرة ونفوذاً، فما الذى كان يمكن أن يكون أفضل من نقطة الضعف هنا؟

كان من الواضح بالطبع أن أخطاء السيد هيجين والسيد ميتشيل كانت محل ترحيب كبير، لكنهما لم يمثلًا، على سبيل التحديد، أكثر جزء فى وول ستريت يرتاب فيه الناس. فقد كانت جريمة وول ستريت - فى نظر أعدائه التقليديين - فى أخلاقياته أكثر مما هى فى قوته. ولم تكن اللا أخلاقية متمركزة فى البنوك ولكن فى سوق الأوراق المالية. فقد كانت سوق الأوراق المالية هى المكان الذى قامر فيه هؤلاء الرجال ليس بأموالهم الخاصة، ولكن بثروة الأمة. وسوق الأوراق المالية - بالوعد الذى قدمته بالثراء السهل - هى التى أودت برجال صالحين إن لم يكن رجالا حكماء جدا إلى الخراب، مثل صراف البنك المحلى الذى كان أيضاً عضواً بمجلس الكنيسة. التذبذب الأخرق فى سوق الأوراق المالية أثر على أسعار المزارع وعلى قيم الأراضى وعلى النقود والرهون العقارية. وعلى الرغم من انه بالنسبة للراديكاليين من أصحاب الثقافة الرفيعة قد تكون البنوك هى التهديد الحقيقى، فإن موقف الأغلبية الشعبية كان يشير بأصابع الاتهام إلى بورصة نيويورك. وتبعاً لذلك، كان هذا هو المكان الذى تستطيع - إن أمكن - أن تجد فيه رمز الشر، لأن هناك كانت توجد المؤسسة التى كان الناس على استعداد لأن يعتقدوا بأنها أسوأ المؤسسات.

البحث عن مجرم حقيقى واضح فى سوق الأوراق المالية بدأ فى أبريل ١٩٣٢، وقد تولت المهمة لجنة مجلس الشيوخ للنشاط المصرفى والعملية (وتولتها فيما بعد

لجنة فرعية)، وكانت تعليماتها "أن تتحرى بدقة ممارسات البورصة...". وإرشادات فرديناند بيكورا (*) Ferdinand Pecora أصبحت تلك اللجنة سوط التعذيب لرجال البنوك التجارية والاستثمارية والخاصة. لكن هذا لم يكن متوقعاً عندما تم تشكيلها. فقد كان موضوع التحقيق مقتصرًا تقريباً على سوق الأوراق المالية.

على وجه العموم، كان هذا الجزء من التحقيقات غير مثمر. الشاهد الأول عندما افتتحت جلسات الاستماع في ١١ أبريل ١٩٣٢ كان ريتشارد ويتنى (١). في ٣٠ نوفمبر ١٩٢٩ أصدرت لجنة محافظى بورصة نيويورك قراراً بتقدير "الكفاءة ويقظة الضمير" فى أعمال رئيسها بالوكالة خلال العاصفة الأخيرة. وقد رد القرار "قولاً ماثوراً" حين قال: "إن حالات الطوارئ الكبرى توجد الرجال الذين هم مؤهلون للتعامل معها.....". هذا الشعور بالامتنان جعل من المحتم أن ينتخب ويتنى لى يخلف إدوارد إتش إتش سيمونز رئيس البورصة عندما تقاعد فى سنة ١٩٣٠ بعد ستة أعوام فى منصبه. وكرئيس للبورصة، وقعت على ويتنى - فى ربيع ١٩٣٢ مهمة استئناف حماية البورصة من منتقديها.

لم يكن ويتنى شاهداً متملقاً بأى حال. وقد قارن أحد خلفائه فى منصبه منذ وقت ليس ببعيد أسلوبه وتوجهه بأسلوب وزير الدفاع تشارلز إى ويلسون فى أثناء تقديم تقريره كوزير للدفاع فى جلسة استماع فى أوائل ١٩٥٣ ولم يقر ويتنى بأى أخطاء خطيرة فى عملياته السابقة فى البورصة، أو حتى بإمكانية وجود أخطاء. وقد قدم المعلومات المطلوبة منه، لكنه لم يكن متعاوناً بإفراط مع أعضاء مجلس الشيوخ الذين سعوا لفهم أسرار البيع على المكشوف، وبيع الأسهم الملوكة على المكشوف "Sale Against the Box" وعقود الاختيار "Options" واتفاقيات التلاعب فى الأسعار "Pools" والاتحادات "Syndicates" ويبدو أنه كان يشعر بأن هذه الأشياء فوق مستوى ذكاء أعضاء مجلس الشيوخ. وبدلاً من ذلك ألح إلى أن هذه أشياء يفهمها كل تلميذ ذكى، وأنه كان من المؤلم له أن يفسر ما هو واضح

(*) رئيس لجنة مجلس الشيوخ للنشاط المصرفى والعملة (المترجم).

(١) Stock Exchange Practices, Hearings, April 1932, pt. I, p. 1 ff. (١)

بطبيعته. وقد بلغت به الحمافة أن دخل فى مناقشة فلسفته الاقتصادية الشخصية مع السيناتور سميث دبليو بروكهارت عن ولاية إيوا، وهو أحد أعضاء اللجنة الذين يعتقدون عن يقين أن البورصة هى اختراع خاص للشيطان. وقد جزم ويتنى بأن الحكومة، وليس وول ستريت، هى المسئولة عن الأحوال السيئة فى ذلك الوقت، وبأنه يعتقد أن الحكومة تستطيع أن تقدم أكبر مساعدة بمساهمتها فى تصحيح الأوضاع بتحقيق توازن الميزانية، وبذلك تستعيد الثقة. ولكى يمكن تحقيق توازن الميزانية، أوصى ويتنى بتخفيض المعاشات ومزايا المحاربين القدماء الذين يعانون من إعاقات غير مرتبطة بالخدمة العسكرية، وكذلك تخفيض كل الرواتب الحكومية. وعندما سئل عن رأيه فى تخفيض راتبه رفض قائلاً "إنه قليل جداً". وتحت الإلحاح ذكر أنه يبلغ فقط نحو ٦٠٠٠ دولار. وقد لفت أعضاء اللجنة انتباهه إلى حقيقة أن هذا المبلغ يساوى ستة أضعاف ما يتلقاه السيناتور. ولكن ويتنى ظل بعناد منحازاً لتخفيض الرواتب العمومية بما فيها رواتب أعضاء مجلس الشيوخ (١).

على الرغم من أسلوب ويتنى - وربما بسببه - فإن عدة أيام من المسائلة لم تسفر عن غير القليل من الأخطاء، ولم تسفر عن الإرشاد عن مخطئين. قال ويتنى إنه سمع - بصفة عامة قبل الانهيار - عن الاتحادات واتفاقيات التلاعب فى الأسعار، لكنه لا يستطيع أن يعطى تفاصيل. وأكد للجنة بشكل متكرر أن البورصة كانت تضع تلك الأمور وغيرها تحت السيطرة. وسجل اعتراضه على رأى السيناتور بروكهارت فى أن السوق كانت جحيماً من المقامرة يجب أن تغلق. وفى النهاية أعفى ويتنى من إكمال شهادته.

عندما أظهر استجواب ويتنى بوضوح أنه غير مثمر، استدارت اللجنة إلى المتحكمين المشهورين فى السوق. هؤلاء أيضاً كانوا مخيبين للآمال. فكل ما كان يمكن إثباته كان هو ما يعرفه كل شخص، وهو أن برنارد إي سميث، وإم جى ميهان، وآرثر دبليو كوتن، وهارى إف سنكلير، وبيرسى آى روكفلر، وآخرين كانوا مندمجين فى جهود على مستوى كبير للتلاعب بالسوق. هارى إف

(١) Stock Exchange Practices, Hearings, February-arch 1933, pt. 6, pp. 2235 ff.

سنكلير على سبيل المثال كان منخرطاً فى عمليات واسعة النطاق، خاصة فى سنكلير كونسوليديتيد أويل. لقد كان هذا يشبه القول بانتماء وليم زد فوستر(*) William Z Foster للحزب الشيوعى. لقد كان من المستحيل تصور عدم كون سنكلير متورطاً فى مناورات معقدة على مستوى مالى عالٍ. وفوق ذلك، فإن أنشطة مستهجنة مثل هذه استمرت على مدى تلك السنوات الثلاث القصيرة قبل أن يشار إليها بإعجاب منبهر. والمشكلة هنا مشابهة إلى حد ما لتلك المشكلة التى تمت مواجهتها فى سنوات العداء للشيوعية خلال الأربعينيات التالية. ثم كان هناك ارتباك استمر على مدى الفترة القصيرة التى انقضت منذ أصبحت روسيا الحمراء حليفنا السوفيتى المذهب.

حقيقة أن هؤلاء المتحكمين الكبار فى السوق - وكما ظهروا على منصة الشهادة - لم يكونوا بصفة خاصة مجموعة تبعث على السرور. وكما لاحظنا سابقاً، فإن ذاكرة آرثر كوتن كانت مختلفة بشكل كبير جداً. وإم جى موهين كان فى صحة سيئة، وعلى سبيل الخطأ، ذهب إلى الخارج عندما كان يفترض أن يذهب إلى واشنطن (وقد اعتذر بشدة عن هذا الخطأ فيما بعد). قليلون من ضمن الآخرين كانوا يستطيعون أن يتذكروا الكثير عن عملياتهم. رغم أنهم فى وقت من الأوقات بدوا كالأباطرة. ولكنك لا تستطيع أن تحضر الناس إلى المحكمة بسبب أن حالاتهم لا تسر. كما أن التصرفات المشكوك فيها والذاكرة السيئة للمتحكمين فى السوق لا تتصل مباشرة بسمعة بورصة نيويورك. حيث يمكنك أن تنظر نظرة سيئة إلى تجار السوق السوداء ومفشى الأسرار ووسطاء المراهنات من دون أن تفكر فى مضمار سباق الخيل .

فى الأوقات المبكرة لمشكلات سوق الأوراق المالية، أفلست أعداد كبيرة من شركات البورصة. وفى خريف ١٩٢٩؛ كان الإفلاس غير مهم. فى الأسبوع الأول من الانهيار لم يتوقف أى من الشركات الأعضاء فى بورصة نيويورك عن العمل، باستثناء شركة واحدة صغيرة إلى حد ما خلال فترة الرعب. وكانت هناك بعض

(*) وليم زد فوستر (١٨٨١ - ١٩٦١) . مياسى ماركسى شغل منصب الأمين العام للحزب الشيوعى الأمريكى (المترجم) .

الشكاوى من قبل العملاء من سوء المعاملة، لكن كان هناك كثير من العملاء - خلال أكثر الأيام سوءاً - الذين جردهم سماسرتهم من أوراقهم المالية بعد أن تدهورت، أو تأكلت، الحصص التي دفعوها في الشراء الهامشى. إن مستويات الأخلاقيات التجارية لأعضاء البورصة يمكن أن تبدو على المستوى المقبول فى أواخر العشرينيات. وربما بدت صارمة إلى حد كبير. وهذا يبدو أكثر التفسيرات وضوحاً لقدرة البورصة وأعضائها على تجاوز تحقيقات الثلاثينيات. إنهم لم يخرجوا منها سالمين تماماً، لكنهم لم يعانون من العار، فيما لو قورنوا برجال البنوك. فى تحقيقات الكونجرس لم يتم الكشف عن أى مجرم مستهتر من أى نوع فى البورصة إلى حد أن يمثل رمزاً للتفاحة المعطوبة التى تنقل فسادها إلى ما حولها من ثمار سليمة. ثم فى العاشر من مارس ١٩٢٨ أصدر نائب المحامى العام، توماس إى ديوى - الذى ألقى القبض على تشارلز إى ميتشيل، والذى تخلص إلى حد ما من سمعته كعدو لوول ستريت - قراراً باتهام ريتشارد ويتنى بالقيام بسرقات كبرى.

— ٥ —

إن الاتجاه إلى لعب دور فى الأحداث - بحسب التعبير الشائع - عندما قبض على ويتنى، كان علامة على اللفتة على العثور على ممثل للشر فى سوق الأوراق المالية. ويمكن مقارنته فقط بالتكالب الذى تلا إعلان المحامى العام هيربرت برونل فى خريف ١٩٥٢ بأن الرئيس السابق ترومان قد تستر على الخيانة. فى اليوم التالى للقبض على ويتنى للمرة الأولى أعيد القبض عليه مرة ثانية من قبل المحامى العام لولاية نيويورك جون جى بينيت. كان السيد بينيت يجرى تحقيقات حول الشئون المتعلقة بويتنى، وقد اتهم السيد ديوى بمرارة باختراق القانون. وخلال الأسابيع القليلة التالية استدعى السيد ويتنى كل هيئة عامة أو محكمة لديها عذر مقبول، لكى تسهب فى بيان أعماله الشريرة.

إن التاريخ المفصل للمصائب التى حلت بويتنى لم تكن تخص هذه السلسلة من الوقائع. فالكثير من تلك المصائب قد وقعت بعد الفترة التى تعود إليها هذه الوقائع. ونحن فى حاجة هنا لأن نغطى فقط تلك العمليات التى نظر إليها باعتبارها إضراراً بالسوق.

إن عدم أمانة ويتنى كانت من النوع العارض، ولحد ما الصبيانى. وشركاؤه فى ذلك الوقت فسروا ذلك بأنه كان نتيجة لفشل ذريع فى إدراك أن القوانين المعنية بالناس الآخرين تنطبق عليه أيضاً. أما ما كان أكثر بروزاً من عدم أمانة ويتنى فهو الحقيقة الجلية الخاصة بكونه كان واحداً من أكثر رجال الأعمال كارثية فى التاريخ الحديث. إن السرقة كانت تقريباً حادثة ثانوية تتعلق بسوء الحظ الذى صادف أعماله.

فى العشرينيات كانت شركة ريتشارد ويتنى آند كومبانى فى وول ستريت مجرد شركة بسيطة ذات حجم أعمال متواضع فى مجال السندات. وفيما يبدو أن ويتنى قد استشعر بأنها لا توفر مجالاً مرضياً لتطبيقاته. وبمرور السنوات انتقل إلى مشروعات أخرى بما فى ذلك التعدين وتسويق التربة الصناعية فى فلوريدا. كما أصبح أيضاً مهتماً بتقطير المشروبات الكحولية، خصوصاً المعدة من شراب التفاح فى نيو جيرسى. لا يوجد ما هو أكثر شراهة للمال أكثر من عمل خاسر، وقد كان لدى ويتنى فى النهاية ثلاثة من هذه الأعمال. ولكى يحافظ على استثماراتها اقترض من البنوك، ومن المصرفيين العاملين فى مجال الاستثمار، ومن أعضاء آخرين فى البورصة، واقترض بكثافة من شقيقه جورج ويتنى، الشريك فى جى بى مورجان آند كومبانى. القروض التى جرى التفاوض عليها بدءاً من أوائل العشرينيات وصل مجموعها إلى ملايين، كان معظمها غير آمن. وبمرور الوقت كان ويتنى مضغوطاً عليه بشكل متزايد. وعندما يحين موعد استحقاق أحد القروض كان ويتنى يضطر لأن يحل محله قرضاً آخر وأن يقترض ربما أكثر من ذلك لكى يفى بالفوائد على القروض الباقية. وبداية من ١٩٢٩، كانت شركته فى البورصة قد أفلس، وإن كان ذلك لم يصبح معروفاً لمدة خمس سنوات تقريباً^(١).

وأخيراً، عرف ويتنى - مثل آخرين كثيرين جداً - تكلفة دعم سهم فى سوق نزولى. فى ١٩٢٢ استثمرت شركة ريتشارد ويتنى آند كومبانى - حيث كانت شئون

. These details are from Securities and Exchange Commission in the Matter of Richard (١) Whitney, Edwin D. Morgan, Etc., Vol. I, Report on Investigation (Washington, 1938).

ويتنى وشركته غير معروفة نهائياً تقريباً - فيما يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألف سهم فى شركة ديستلد ليكرز كوربوريشن، وهى شركة فى نيو جيرسى كانت تعمل فى تصنيع الخمر من شراب التفاح ومشروبات مسكرة أخرى. كان سعر السهم ١٥ دولاراً. وفى ربيع ١٩٣٤ وصل سعر السهم إلى ٤٥ دولاراً فى المعاملات خارج المقصورة. وفى يناير ١٩٣٥ أدرجت فى بورصة نيويورك. وقد أودع ويتنى حتماً تلك الأسهم كرهن للعديد من قروضه.

من سوء الحظ أن حماس الجمهور لمنتجات الشركة كان ضعيفاً بشكل ملحوظ. لم يحقق المشروع أرباحاً، وبحلول يونيو ١٩٣٦ انخفض سعر السهم إلى ١١ دولاراً. وكان لهذا الهبوط أثر كارثى على قيمة الأسهم كرهن، وحاول ويتنى التمسك أن يحافظ على قيمة السهم بشراء المزيد منه (وادعى فيما بعد أنه أراد بذلك أن يقدم للمستثمرين الآخرين فى الشركة سوقاً لأسهمهم^(١))، وهو ما لو كان حقيقياً لكان معناه أنه كان يقوم بأكثر الأعمال إنكاراً للذات منذ موت سيدنى كارتون "Sydney Carton"^(٢) كل المستثمرين الآخرين ألقوا بالحمل على ويتنى، وفى أيام الفشل كان ويتنى يمتلك ١٣٧٦٧٢ سهماً من الأسهم المتبقية التى بلغ عددها ١٤٨٧٥٠ سهماً. وعند ذلك هبطت قيمة السهم إلى ما بين ثلاثة وأربعة دولارات للسهم. وقد سبق التنويه باتجاه الناس فى تلك الفترة لخداع أنفسهم. وفى سعيه لدعم سهم ديستلد ليكرز كوربوريشن برز ويتنى بلا جدال كنموذج للمخداع المالى الذى مارس خداع الذات. ونتيجة لهذا تراكمت عليه كل ديونه القديمة، كما تكبدت ديون جديدة عبء دعم السهم، بينما السهم كان تقريباً لا قيمة له.

وحيث أصبح موقف ويتنى أكثر تعقيداً، عاد بشكل متزايد لاستعمال وسيلة استخدمها فيما قبل مرات عديدة، وهى إيداع أوراق مالية تحت يده وتخص أشخاصاً آخرين كرهن لقروضه. وفى أوائل ١٩٣٨، وصل إلى نهاية قدرته المدهشة على اقتراض الأموال. وفى أواخر الخريف التالى حصل على آخر قرض

(١) Securities and Exchange Commission, op. cit., Vol. II, P. 50.

(٢) الشخصية الرئيسية فى رواية "قصة مدينتين" لتشارلز ديكنز (المترجم).

كبير من شقيقه كى يصدر أوراقاً مالية لحساب صندوق لنهاية الخدمة لأعضاء البورصة يدفع مبالغ عند وفاة هؤلاء الأعضاء. وقد أصبح الآن يدور على كل معارفه محاولاً الحصول على تمويل فى حال من اليأس وعدم الجدوى تقريباً.

وانتشرت شائعات تقول إن ويتنى أصبح فى حالة إملاق. وفى يوم ٨ مارس سادت صالة البورصة حالة من الصمت المطبق حينما أعلن رئيسها تشارلز آر جاى من المنصة عن وقف التعامل مع شركة ريتشارد ويتنى آند كومبانى بسبب الإفلاس. وقد أصيب أعضاء البورصة بصدمة أكبر عندما علموا أن ويتنى كان متورطاً فى عمليات سرقة على نطاق كبير ولزمن طويل.

بقدر غير قليل من الكرامة اعترف ويتنى اعترافاً كاملاً بعملياته، ورفض أن يتعلل بأى أعذار دفاعاً عن نفسه. وانسحب نهائياً من الصورة.

- ٦ -

إن فشل أصغر رجال البنوك فى البلاد سبب من المعاناة الشخصية والكرب والعوز أكثر مما تسبب فيه إفلاس ريتشارد ويتنى. فضحايا ويتنى كانوا غالباً قادرين بشكل متفرد على أن يتحملوا خسائرهم. كما أن المبالغ التى سرقها - على كبرها - لم تضعه فى رتبة كبار المختلسين فى ذلك الوقت. ومن وجهة نظر خصوم وول ستريت فإن أخطاءه كانت مثالية. ونادراً ما استقبلت جريمة بقدر من السرور أكثر من جريمة ويتنى.

لقد تمت مطابقة كاملة بين ويتنى وسوق الأوراق المالية، المركز الرمزى للخطيئة. وفوق هذا، كان هو رئيسها والمدافع العنيد عنها فى مواجهة الكونجرس والجمهور فى وقت محاكمتها. لقد كان جمهورياً ومحافظاً رئيسياً، كما كان مرتبطاً على نحو ما مع آى جى مورجان آند كومبانى فى مجتمع المال. وقد اتخذ هو نفسه موقفاً قوياً فى صف الأمانة. لقد تحدث فى سانت لويس سنة ١٩٣٢، فى وقت كانت فيه سرقاته فى مرحلة متقدمة بالفعل - قائلاً فى صرامة إن إحدى الضرورات الرئيسية "فى سوق عظيمة هى أن السماسرة يجب أن يكونوا أمناء وعلى مستوى المسئولية من الناحية المالية". لقد تطلع إلى اليوم الذى تكون

فيه الرقابة المالية من قبل البورصة على أعضائها حازمة إلى الدرجة التي تجعل
الفشل "شبه مستحيل". (١)

أخيراً، صار ينظر إلى ويتنى - حتى من قبل زملائه - بوصفه متفطرساً تافهاً.
وفى أيامه الأخيرة انحدر إلى درجة من المهانة جعلته يحاول أن يقترض أموالاً من
برنارد إى سميث الذى كان - على أفضل الفروض - شخصية متوسطة المكانة.
وفى وقت لاحق قال سميث أمام لجنة تفتيش على الأوراق المالية والبورصة:
"ويتنى أتى إلى وقال إنه يريد أن ينتهى من الأمر بسرعة، وأخبرنى أنه يريد
أن يقترض ٢٥٠٠٠٠ دولار بضمانه الشخصى. وقد لاحظت أنه كان يعطى قيمة
كبيرة نوعاً لضمانه الشخصى هذا، وعليه قال: إن ظهره أصبح للحائط، وعليه أن
يحصل على ٢٥٠٠٠٠ دولار. وقد قلت له إنه من الجراءة أن يطلب منى أن أقرضه
٢٥٠٠٠٠ دولار، وإننى بصراحة لا أحبه. ولهذا لن أقرضه سنناً واحداً" (٢). فى
أى تصويت حر حول أكثر الرجال تأهلاً لجلب سوء السمعة لـوول ستريت كان
ويتنى سيفوز به بفارق كبير.

إن المضاهاة بين ويتنى ومجرم أكثر حدائة كان مشوقاً. فخلال الثلاثينيات كان
أنصار العقد الجديد "The New Dealers" يكشفون بجذلى عن أوجه قصور
خصومهم. (من المثير للانتباه أن عدم الأمانة وليس العيوب الأكثر تقليدية
للرأسمالية مثل سوء استخدام السلطة أو استغلال الناس كانت فى تلك الأيام هى
نقائص المحافظين). ثم فى أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين كان
الجمهوريون يكتشفون فى تلهف أن هناك أنصاراً للعقد الجديد كانوا شيوعيين.
وهكذا كان هناك فى هذا العقد اللاحق نظير لريتشارد ويتنى هو ألجر
هيس. Alger Hiss (٣) لقد أدى كل منهما خدمة لأعداء طبقته على نحو مثير
للإعجاب. فكل منهما، بالأصل والتعليم والارتباطات والطموح المهنى مثل طبقته

(١) The New York Stock Exchange, an address by Richard Whitney before Industrial Club of St. Louis And the Chamber of Commerce of St. Louis (St. Louis, September 27, 1932).

(٢) Securities and Exchange Commission, op. cit., Transcript of Hearings, Vol. II, pp. 822, 823.

(٣) ألجر هيس (١٩٠٤ - ١٩٩٦) محام وسياسى ومؤلف ومحاضر أمريكى. مسئول حكومى شارك فى إنشاء هيئة الأمم المتحدة. اتهم سنة ١٩٤٨ بالتجسس لصالح الاتحاد السوفيتى، وصدر ضده حكم بالإدانة سنة ١٩٥٠ (المترجم).

تمثيلاً نموذجياً. وفي كل من الحالتين كان أول رد فعل من الأصدقاء على الاتهامات هو الجحود. لقد كان الدور السابق لويتنى في مجتمعه أكثر بروزاً، ومن هنا كان من وجهة نظر أعدائه شخصية أكثر إرضاء من ألجر هيس. فقد كان هيس، بجلاء، شخصية روتينية في التسلسل الهرمي للحكومة. وقد تكونت شهرته كرجل دولة على المستوى العالمى بأثر رجعى، حيث اكتسب أهمية كبيرة من خلال محاكمتين طويلتين. أما ويتنى فقد تقبل مصيره من دون جلبة.

ربما كانت هناك قيمة أخلاقية مستمدة من المسيرة المهنية لكل من ويتنى وهيس. فلا حقيقة كون ويتنى مداناً باختلاس الأوراق المالية، ولا حقيقة أن هيس سرق مستندات يعد دليلاً مقنعاً على أن أصدقاءهما وشركاءهما والمعاصرين لهما كانوا يفعلون بالمثل. وعلى النقيض من ذلك فإن الأدلة تشير إلى أن معظم السماسرة كانوا أمناء كنوع من الروتين المحض، كما أن معظم أنصار العقد الجديد كانوا أبعد ما يكونون عن العمالة للروس، وكل ما كانوا يصبون إليه هو أن يتلقوا دعوة لتذوق الكافيار فى السفارة السوفيتية. كل من الليبراليين والمحافظين، اليساريين واليمينيين، أصبحت لديهم الآن خبرة شخصية فى التعامل مع الشر الرمضى. إن مشروعية الوسيلة واضحة. والشئ الذى يمكن أن يكون إجبارياً تكون أخطاره أيضاً كذلك. ووفقاً لتقليد قديم وإن لم يكن بالياً، فقد أصبح من الحكمة الآن بالنسبة للجميع أن يستنتجوا أن الجريمة، أو حتى سوء السلوك، هى نوع من السلوك الشخصى وليس نزوعاً لدى طبقة.

— ٧ —

إن شئون ويتنى قد استدعت تغيراً ملحوظاً فى العلاقات بين البورصة والحكومة الاتحادية، وإلى حد ما بين البورصة وعامة الجمهور. فى قانون الأوراق المالية الصادر سنة ١٩٣٣ وعلى نحو أشمل فى قانون بورصة الأوراق المالية الصادر سنة ١٩٣٤ سعت الحكومة إلى الحيلولة دون تكرار وقوع مظاهر الغلو المذهل التى وسمت سنتى ١٩٢٨ و ١٩٢٩. وقد أصبح الإفصاح الكامل عن إصدارات الأوراق المالية الجديدة مطلوباً، على الرغم من أنه لم يتم التوصل إلى أسلوب لجعل المستثمرين المحتملين يقرءون ما يتم الإفصاح عنه. العمليات

الداخلية والبيع على المكشوف على طريقة السيد ويجين أصبحت محظورة قانوناً. وأعطى مجلس الاحتياطي الفيدرالى سلطة تحديد متطلبات الشراء بالهامش التى يمكن أن تصل عند الضرورة إلى حد سداد ١٠٠٪ وهو ما يعنى منع الإتجار على الهامش تماماً. وعمليات التلاعب فى الأسعار، وعمليات البيع الوهمية، وعمليات نشر المعلومات الكاذبة أو الزائفة، وغير ذلك من أدوات التزوير والتلاعب بالسوق أصبحت محظورة. وتم الفصل تماماً بين البنوك التجارية وبين شركات الأوراق المالية التابعة لها. والأكثر أهمية هو الإعلان عن مبدأ أن بورصة نيويورك والبورصات الأخرى صارت خاضعة لضوابط عامة وأنه تم إنشاء لجان خاصة بالأوراق المالية والبورصات لكى تفرض وتطبق تلك الضوابط.

كان ذلك نوعاً من الدواء المر. وعلاوة على ذلك، فإن الكيانات النظامية – مثل الناس القائمين عليها – لها دورة حياة معروفة. فهى فى شبابها تكون مفعمة بالحياة وهجومية ومبشرة، بل وحتى غير متسامحة. ثم فيما بعد تصبح أطف، وعندما يتقدم بها العمر – بعد نحو عشرة أو خمسة عشر عاماً – تصبح (مع بعض الاستثناءات) إما ذراعاً للنشاط الذى نشأت كى تضبطه، وإما كيانات شائخة. إن لجنة الأوراق المالية والبورصة بشكل خاص كانت هجومية. وبالنسبة لأى كيان نظامى شاب كان من المؤكد فوق كل شىء أن يبدو وول ستريت غريماً متحدثاً.

إلى أن ظهرت مسألة ويتنى، فإن وول ستريت – دائماً مع وجود استثناءات – كان متأهباً للقتال. وقد أصر على أن تكون له حقوقه على المجتمع المالى على وجه العموم، وعلى سوق الأوراق المالية بوجه خاص، وعلى أن يبرم شؤونه بأسلوبه الخاص، وعلى أن يحكم نفسه بنفسه. فى الليلة السابقة على الإعلان عن إيقاف ويتنى من فوق المنصة، اتخذ كل من تشارلز آر جاى، رئيس البورصة، وهاولاند إس دافيز، رئيس لجنة تسيير الأعمال – اللذين كان ويتنى سلفاً لكل منهما فى كلا الموقعين – طريقهما إلى واشنطن. وهناك أدليا بما لديهما من أنباء غير سارة إلى كل من ويليام أو دوجلاس وجون دبليو هانز العضوين فى لجنة الأوراق المالية

والبورصة. هذه الرحلة - بما لها مما هو أكثر بكثير من معنى رمزى - مثلت استسلاماً من قبل البورصة. لقد وصلت الحرب الباردة على الضوابط إلى نهايتها ولم تستأنف بعد ذلك.

بينما أكد سقوط ويتنى انتصار العقد الجديد فى قضية الضوابط كما أدى أيضاً دوراً جديراً بالإعجاب فى التأكيد على المزيد من الارتياح العام فى الانحراف الأخلاقى فى قلب مدينة نيويورك، فقد كان من حسن حظ وول ستريت أن جاء هذا السقوط متأخراً. ففى ١٩٢٨ كان بطش العقد الجديد بمجالات الأعمال الكبرى آخذاً فى التضاؤل، حيث كان بعض قادة كتائب الهجوم الأصلية ينمقون بالفعل الخطب حول فضائل نظام المشروع الحر. وعند ذاك، أيضاً، كان من المقبول لاهوت للعقد الجديد يقول بأن كل الإصلاحات الاقتصادية الضرورية قد تم الإفصاح عنها، وتلك التى لم يبدأ إجراؤها مطلوبة من الكونجرس. لم تعد هناك إصلاحات أخرى ذات أهمية فى مجال أسواق الأوراق المالية على الأجندة. ومن الآن فصاعداً أخذ وول ستريت يتطلع بتملق إلى واشنطن، بينما بدت واشنطن فى غفلة مجردة.

الفصل التاسع

السبب والنتيجة

بعد الانهيار الكبير جاء الكساد الكبير الذى استمر - بدرجات متفاوتة من القسوة - لمدة عشر سنوات. وفى سنة ١٩٣٣؛ كان الناتج القومى الإجمالى (الإنتاج الإجمالى للبلاد) يقل بنسبة الثلث تقريباً عما كان عليه فى ١٩٢٩. ولم يستعد الحجم المادى للإنتاج مستويات ١٩٢٩ إلا فى ١٩٣٧؛ ثم تراجع بسرعة مرة أخرى. وحتى سنة ١٩٤١؛ ظلت قيمة الإنتاج مقوماً بالدولار أقل منها فى سنة ١٩٢٩ وفيما بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠ لم يحدث إلا فى سنة ١٩٣٧ أن انخفض متوسط عدد العاطلين خلال السنة عن ثمانية ملايين. وفى سنة ١٩٣٣ كان هناك نحو ١٢ مليون عاطل، أى نحو واحد من كل أربعة من قوة العمل. وفى ١٩٣٨ كان لا يزال هناك شخص عاطل من كل خمسة أشخاص من قوة العمل^(١).

فى تلك السنوات الكثيرة؛ أصبحت سنة ١٩٢٩ سنة أسطورية. كان الناس يأملون فى أن تعود البلاد إلى سنة ١٩٢٩؛ وعندما كانت بعض الصناعات أو بعض المدن تحقق نتائج جيدة جداً كان ذلك يعنى أنها جيدة، كما كانت فى ١٩٢٩، وقد سمع رجال ذوو رؤية ثقافية وهم يقولون فى مناسبات تتسم بجلال غير عادى إن سنة ١٩٢٩ "لم تكن أفضل مما يستحقه الأمريكيون".

Economic Indicator: Historical and Descriptive Supplement, Joint Committee on the (١)
Economic Report (Washington, 10953).

على وجه العموم، كان الانهيار الكبير فى سوق الأوراق المالية أكثر قابلية للتفسير من البكساد الذى تلاه. ومن بين المشكلات المتعلقة بتقييم أسباب الكساد لا يوجد ما هو أكثر استعصاء من تحديد من يتحمل المسؤولية عن انهيار سوق الأوراق المالية. ولا يزال الاقتصاديون يتجنبون إعطاء إجابات نهائية حول هذه الأمور، ولكن كما هو معتاد، هناك ما يمكن أن يقال.

- ٢ -

كما تم التأكيد بالفعل فى الغالب الأعم، كان انهيار سوق الأوراق المالية فى خريف ١٩٢٩ متضمناً فى المضاربة التى سبقتها. السؤال الوحيد المتعلق بهذه المضاربة كان هو: إلى متى يمكن أن تستمر؟ ولكن عاجلاً أو آجلاً، كان لا بد فى وقت ما أن تضعف الثقة فى واقعية تزايد قيم الأسهم العادية على المدى القصير. وعندما يحدث هذا، سوف يبيع بعض الناس أسهمهم، وهذا سوف يدمر واقعية القيم المتزايدة. والاحتفاظ بالأسهم توقعاً لزيادة الأسعار سوف يصبح بلا معنى، حيث سيصبح الواقع الجديد هو الأسعار المتناقصة. وسوف يكون هناك اندفاع عشوائى للتخلص من الأسهم. وكانت هذه هى الطريق التى انتهى إليها الانغماس المفرط فى المضاربة. وكانت هى الطريق إلى النهاية فى ١٩٢٩ وهى الطريق التى ستنتهى إليه المضاربة فى المستقبل.

نحن لا نعرف لماذا حدث الانغماس المفرط فى المضاربة فى ١٩٢٨ و ١٩٢٩. والتفسير الذى ظل مقبولاً لزمناً طويلاً والذى يقول بأن الائتمان كان سهلاً، ولذلك اندفع الناس لاقتراض الأموال لشراء أسهم عادية بالهامش هو بوضوح كلام فارغ، ففى كثير جداً من المناسبات قبل ذلك وبعده؛ كان الائتمان سهلاً، ومع ذلك لم تكن هناك مضاربة. وفوق ذلك فإن مضاربة ١٩٢٨ و ١٩٢٩ قد تمت بأموال مقرضة بأسعار فائدة مرتفعة بشكل استثنائى؛ قياساً على ما قبلها وما بعدها من سنوات. والنقود - بالمقاييس العادية - كانت شحيحة فى أواخر العشرينيات.

إن ما كان أكثر أهمية بكثير من أسعار الفائدة وعرض النقود هو المزاج العام. فالمضاربة على نطاق كبير تتطلب إحساساً متفشيئاً بالثقة والتفاؤل والاتفاق على

أن الناس العاديين يمكن أن يصبحوا أغنياء، ويجب أن يكون الناس - أيضاً - مؤمنين بالنوايا الحسنة، بل وبالنزعة الخيرة لدى الآخرين؛ لأنهم سوف يحصلون الثروة عبر توكيل الآخرين. وقد لاحظ البروفيسور دايس سنة ١٩٢٩ أن: "الناس العاديين يثقون في زعمائهم، ولم نعد ننظر إلى القادة الصناعيين باعتبارهم محتالين من الوزن الثقيل. ألم نستمع إلى أصواتهم من خلال الراديو؟ أليست أفكارهم وطموحاتهم ومثلهم مألوفة لنا كما عبروا عنها لنا كما يعبر إنسان لصديقه؟" (١). مثل هذا الشعور بالثقة ضرورى للزواج، فعندما يكون الناس واعين، أو متسائلين، أو انعزاليين، أو متشككين، أو وسطيين، فإنهم يكونون محصنين ضد الحماس للمضاربة؛ المدخرات أيضاً يجب أن تكون كبيرة. وعلى الرغم من أن المضاربة قد تعتمد على أموال مقترضة، فإنها يجب أن تتغذى جزئياً بواسطة هؤلاء الذين يساهمون فيها. ولو أن المدخرات تنمو بسرعة، فإن الناس سوف يقدرّون قيمة هامشية أقل لتراكم مدخراتهم. وسوف يكونون راغبين في المخاطرة ببعضها في مقابل العائد المتوقع المتزايد بشكل كبير. ووفقاً لهذا، فإن الأغلب اندلاع المضاربة في أعقاب فترة من الازدهار القوي، أكثر مما يمكن اندلاعها في المراحل المبكرة من التعافى من حالة كساد. وقد لاحظ ماكوالى أن الإنجليز في فترة ما بين العوده للنظام الملكى سنة ١٦٦٠ وثورة ١٦٨٨؛ كانوا فى حيرة حول ما يمكن فعله بمدخراتهم، وأن "الأثر الطبيعى لتلك الحالة كان أن زحاما من المخططين، والمبتكرين والسخفاء، والأمناء والمخادعين، قد سخروا أنفسهم لابتكار خطط جديدة لتوظيف هذا الرأسمال الغزير". وقد عزا باجهوت وآخرون فقاعة بحر الجنوب إلى الأسباب نفسها تقريباً (٢). وقد تمتعت إنجلترا فى ١٧٢٠ بفترة طويلة من الازدهار حفز عليها جزئياً الإنفاق على الحرب. ومن المعتقد أن المدخرات الخاصة - فى ذلك الوقت - قد نمت بمعدل غير مسبوق. لقد كانت منافذ الاستثمار أيضاً قليلة والعوائد منخفضة. ووفقاً لهذا، كان الإنجليز قلقين من إيداع أموالهم تحت تصرف الشركات الجديدة،

(١) New Levels on the Stock Market, p. 257.

(٢) Walter Bagehot, Lombard Street, p. 130. The question from Macaulay. Above, is cited by Bagehot, p. 128.

وتسرعوا فى الاعتقاد بأن الاحتمالات لم تكن ممتازة.. وهكذا كان الأمر فى ١٩٢٨ و ١٩٢٩.

أخيراً، فإن أى اندلاع للمضاربة يكون له أثر مناعى أكثر أو أقل. والانهيار الناتج يدمر تلقائياً المزاج القوى الذى تتطلبه المضاربة، ويتبع ذلك أن اندلاعاً للمضاربة يوفر تأميناً معقولاً لعدم حدوث اندلاع آخر فى القريب العاجل. ولكن مع الوقت وأقول الذاكرة تنقشع المناعة؛ ويصبح التكرار ممكناً. وبينما لم يكن هناك ما يمكن أن يحث الأمريكيين على الانطلاق فى مغامرة للمضاربة فى البورصة فى ١٩٣٥؛ ففى ١٩٥٥ تبدو الفرص أفضل بكثير جداً.

- ٣ -

كما لاحظنا من قبل، فإن تفسير الرواج والانهيار فى السوق أسهل من تفسير تأثيرهما فيما يعقبهما من كساد. ولا تزال أسباب الكساد الكبير بعيدة عن التأكد. ولكن قد يلاحظ أيضاً أن الافتقار إلى التأكد ليس واضحاً فى الكتابات المعاصرة حول الموضوع، فالكثير منها يخبرنا بأوجه الخطأ وأسبابها بصراحة واضحة. ولكن هذا نفسه يمكن أن يكون - على النقيض - مؤشراً على عدم التأكد. فعندما يكون الناس فى أقل درجات التأكد يصيرون - غالباً - أشد ميالاً إلى الجزم، فنحن لا نعلم ما ينتويه الروس، وهكذا نقرر - بتأكيد كبير - ما سوف يفعلون. ونحن نعوض عدم قدرتنا على التنبؤ بعواقب - فلنقل - إساءة معاملة ألمانيا بالجزم تماماً بإيجابية تلك العواقب. الأمر نفسه فى الاقتصاد، ولكن فى تفسير ما حدث فى ١٩٢٩ وما بعدها، يستطيع المرء التمييز بين التفسيرات التى قد تكون صحيحة وتلك الخاطئة على نحو بين. ناس كثيرون جداً شعروا دائماً بأن حدوث كساد كان حتمياً فى الثلاثينيات. فقد كانت هناك - على الأقل - سبع سنوات جيدة. والآن، وفقاً لقانون مبهم أو توراتى للمقابلة، كان يتعين أن تاتى سبع سنوات عجاف. وربما، بوعى أو بغير وعى، امتد الجدل الذى كان ملائماً لسوق الأوراق المالية كى يؤثر فى الاقتصاد ككل. ولأن السوق نأت عن الواقع فى ١٩٢٨ و ١٩٢٩؛ فقد تعين عليها فى وقت ما أن تعود إلى أرض الواقع. لقد كان لا بد من أن تاتى خيبة الأمل مؤلة بقدر ما كانت الأوهام خادعة. وعلى النحو

نفسه، فإن الازدهار الذى تحقق فيما سمي بالعصر الجديد؛ كان لا بد أن يتبخر يوماً ما، ولا بد أن تأتى فى أعقابها الصعاب التى تقابله.

هناك أيضاً إيمان مضمّر بأن الحياة الاقتصادية محكومة بإيقاع من الحتمية. فبعد وقت معين، يدمر الازدهار نفسه، ويصحح الكساد ذاته. وفى ازدهار ١٩٢٩ ووفقاً لقواعد الدورات الاقتصادية، وصل الازدهار لمنتهاه. لقد كان هذا هو الاعتقاد الذى أقر به أعضاء جمعية هارفارد الاقتصادية فى ربيع ١٩٢٩؛ عندما استنتجوا أن هناك ركوداً منتظراً على نحو ما.

لا يمكن تأييد أى من تلك الاعتقادات على نحو جدى، فكون العشرينيات مزدهرة ليس أساساً لحتمية أن تأتى الثلاثينيات كاسدة. فى الماضى كانت الأوقات الجيدة تفضى إلى أوقات أقل جودة، والأقل جودة أو السيئة تفضى إلى أوقات جيدة. ولكن التغيير شئ طبيعى فى اقتصاد رأسمالى، ودرجة الانتظام فى مثل تلك التغييرات ليست كبيرة على الرغم من الاعتقاد الغالب بأنها كذلك^(١). ولم يكن هناك إيقاع حتمى يتطلب حدوث انهيار وكساد فيما بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠. ولا كان اقتصاد الولايات المتحدة فى ١٩٢٩ خاضعاً لمثل هذا الضغط أو الإجهاد المادى كنتيجة لمستواه السابق فى الأداء؛ لدرجة أن الكساد كان مؤكداً الحدوث.

إن مفهوم كون الاقتصاد يتطلب حالات متعاقبة من الاسترخاء والانتعاش؛ يتضمن قدراً من المعقولية ومصادقية واضحة أيضاً. وفى صيف ١٩٥٤؛ فسر اقتصادى محترف فى الطاقم الشخصى للرئيس أيزنهاور حالة الركود آنذاك بالقول بأن الاقتصاد كان يتمتع باسترخاء وجيز (ومستوجب تماماً افتراضاً) بعد مجهود استثنائى خلال السنوات السابقة. ولكن فى ١٩٢٩؛ لم تكن قوة العمل مجهدة، وكانت تستطيع أن تستمر إلى أجل غير مسمى بأفضل معدلات ١٩٢٩ والآلات الثقيلة فى البلاد لم تكن متآكلة. وفى سنوات الازدهار السابقة تم تجديد وتحسين الآلات. والحقيقة أن التآكل فى الآلات الثقيلة حدث أثناء سنوات

(١) فى الوقت الحالى يقل احتمال إنكار وجود دورات الأعمال عن أن انتظامها سوف تتم المبالغة فيه. Wesley Clair Mitchell, Business Cycle and Unemployment (New York: McGraw-Hill, 1923), p. 6.

الاسترخاء اللاحقة عندما تقلصت الاستثمارات بحدة. والمواد الخام فى ١٩٢٩ كانت وفيرة بالنسبة إلى معدلات الإنتاج آنذاك. وكان المستثمرون قادرين على التوسع أكثر من أى وقت مضى. وبوضوح، إذا كان الرجال، المواد، الآلات، الإدارة قادرين جميعاً على بذل الجهد المستمر بل والمتزايد؛ فإن فترة توقف من أجل استعادة الانتعاش لم تكن ضرورية.

وأخيراً، فإن الإنتاج العالى فى العشرينيات لم يكن - كما ادعى بعض - متجاوزاً لاحتياجات الناس. فخلال تلك السنوات كان الناس بالفعل يزودون بحجم متزايد من البضائع، ولكن لا يوجد دليل على أن رغبتهم فى السيارات والملابس والرحلات والاستجمام أو حتى الطعام كانت مشبعة، وعلى العكس، قد نمت أدلة فيما بعد على القدرة على زيادة كبيرة فى الاستهلاك (فى حال توافر الدخل اللازم للإنفاق). لم تكن هناك حاجة لكساد كى يمكن لاحتياجات الناس أن تلاحق قدرتهم على الإنتاج.

- ٤ -

ما - إذن - الأسباب المعقولة للكساد؟ يمكن تبسيط مهمة الإجابة إلى حد ما؛ بتقسيم المشكلة إلى جزئين. هناك أولاً: السؤال عن السبب فى هبوط النشاط الاقتصادى فى سنة ١٩٢٩، وهناك ثانياً: السؤال الأكثر أهمية بكثير عن السبب فى أنه بمجرد أن بدأ الهبوط أخذ يهبط ويهبط ويهبط واستمر هابطاً لمدة عقد كامل.

كما لاحظنا، فإن مؤشرات الاحتياطى الفيدرالى بشأن النشاط الصناعى وإنتاج المصانع - أكثر المقاييس الشهرية شمولاً للنشاط الاقتصادى المتاحة آنذاك - وصلت إلى ذروة فى شهر يونيو؛ ثم بدأت فى الهبوط واستمرت فيه طوال ما بقى من العام. أما نقطة التحول فى مؤشرات أخرى - مثل جداول الأجور الصناعية وشحنات السكك الحديدية ومبيعات المتاجر متعددة الأقسام - فقد أتت لاحقاً، ولم يبدأ الاتجاه للهبوط الواضح فيها قبل أكتوبر أو بعد ذلك. وعموماً، وكما أكد الاقتصاديون بوجه عام، وكذلك الهيئة العليا للمكتب الوطنى

للبحوث الاقتصادية (١)، فإن الاقتصاد أخذ في الضعف مع بدايات الصيف وقبل الانهيار بفترة.

هذا الضعف يمكن تفسيره على نحو مختلف. فإنتاج السلع الصناعية في تلك اللحظة؛ تجاوز طلب المستهلكين والمستثمرين عليها. والسبب الأكثر ترجيحاً في ذلك هو أن مشروعات الأعمال - في ظل حالة الحماس التي تتصف بها الأوقات الجيدة - أساءت تقدير الزيادة المحتملة في الطلب، واقتنت مخزوناً أكثر مما اكتشفت فيما بعد أنها كانت في حاجة إليه، ونتيجة لذلك قلصوا من مشترياتهم، وقد أدى ذلك إلى تقليص الإنتاج. وباختصار، فإن صيف ١٩٢٩ قد حدد بداية الركود المعروف في المخزون، والدليل ليس قاطعاً نتيجة لقلة الأرقام المتاحة (بالمعايير الحالية)؛ ولكن مخزون المتاجر متعددة الأقسام - التي أرقامها متاحة - لا يبدو أنه كان خارج المسار الطبيعي في بداية العام؛ ولكن ركوداً خفيفاً في مبيعات المتاجر متعددة الأقسام في أبريل ربما كان علامة على الانكماش.

هناك أيضاً إمكانية - رجحها الطلاب عموماً في ذلك الوقت - لأن تكون عوامل أكثر جذرية كانت تفعل مفعولها، ثم أسفرت عن نفسها على نحو أكثر خطورة خلال الصيف. على مدى العشرينيات كان كل من الإنتاج والإنتاجية بالنسبة إلى كل عامل ينموان باضطراب؛ ففيما بين ١٩١٩ و ١٩٢٩ زادت مخرجات العامل في الصناعات التحويلية بنحو ٤٢٪ (٢)؛ بينما الأجور والرواتب والأسعار ظلت كلها ثابتة نسبياً، أو حققت زيادة لا تقارن بأى حال. ووفقاً لهذا انخفضت التكلفة، ومع بقاء الأسعار على حالها، زادت الأرباح. وهذه الأرباح عززت من إنفاق الميسورين. وهم أيضاً غدوا بعض التوقعات - على الأقل - الدافعة لرواج سوق الأوراق المالية. وقد شجع هذا على مستوى عال جداً من الاستثمار الرأسمالي. خلال العشرينيات، زاد إنتاج السلع الرأسمالية بمعدل سنوى متوسط قدره ٦,٤٪؛ بينما السلع الاستهلاكية غير المعمرة - التي تضم السلع ذات الاستهلاك الكبير مثل الأغذية والملابس - زادت بمعدل سنوى قدره ٢,٨٪ (٣)

(١) Geoffrey H. Moore, Statistical Indications Paper 31, National Bureau of Economic Research, Inc. (New York, 1950).

(٢) H. W. Amdt, The Economic Lessons of Nineteen- Thirties (London: Oxford, 1944), p. 15.

(٣) E. M. Hugh-Jones and E. A. Radice, An American Experiment, (London: Oxford, 1936) ٢٩. Cited by Amdt, op. cit., p. 16.

فقط. (السلع الاستهلاكية المعمرة، مثل: السيارات والمنازل والأثاث المنزلى وما شابهها، والتي يمثل الكثير منها إنفاق الميسورين والطبقات العليا، كان معدل الزيادة بالنسبة إليها ٩, ٥% وبتعبير آخر، فإن استثماراً كبيراً ومتزايداً فى السلع الرأسمالية كان أداة رئيسية يتم من خلالها إنفاق الأرباح^(١)، ويترتب على ذلك أن أى شىء يعوق الإنفاق الاستثمارى - أى شىء، فى الواقع، يحول دون تحقيق المعدل الضرورى فى الزيادة - يمكن أن يسبب متاعب؛ وعندما يحدث ذلك، فإن تعويضاً من خلال زيادة الإنفاق الاستهلاكى لا يمكن أن يكون متوقعاً بشكل آلى. ولهذا فإن أثر الاستثمار غير الكافى - الاستثمار الذى لا يستطيع ملاحقة الزيادة المضطردة فى الأرباح^(٢) - يمكن أن يشكل طلباً كلياً متناقصاً منعكساً بدوره فى شكل أوامر ومخرجات متناقصة. مرة ثانية، لا يوجد دليل نهائى على هذه النقطة، فمن سوء الحظ أننا لا نعرف بأى سرعة كان على الاستثمار أن ينمو كي يواكب الزيادة المتزامنة فى الأرباح.. ومع ذلك، فإن التفسير متسق بدرجة كبيرة مع الحقائق.

هناك تفسيرات ممكنة أخرى للهبوط، فربما كانت أسعار الفائدة المرتفعة وراء التقدم غير الكافى فى الاستثمار، وربما - وإن كان هذا أقل احتمالاً - انتقلت المشكلات إلى الاقتصاد ككل من قطاع ضعيف ما مثل الزراعة. ويمكن تقديم

This has been widely noted. See Lionel Robins, *The Great Depression*, p. 4, and Thomas (١) Wilson, *Fluctuations in Income*, p. 154 ff., and J. M. Keynes, *A treatise on Money* (New York: Harcourt, Brace, 1930), II, 190 ff.

(٢) ربما يكون مسموحاً لى بأن أسهب فى هذا الأمر بمصطلحات فنية إلى حد ما؛ الإعاقه هنا قد تكون ناتجة عن عدم كفاية معدل الزيادة فى نسبة الإنفاق الاستهلاكى مثلما هى ناتجة عن فشل معدل الزيادة فى الإنفاق على السلع الرأسمالية. إن الاستهلاك المتدنى والاستثمار المتدنى وجهان للعملة نفسها، وقد يعضد من هذا التفسير حقيقة أن الإنفاق على السلع المعمرة المهمة - مثل المنازل - كان منخفضاً لعدة سنوات، وعانى من هبوط آخر كبير فى سنة ١٩٢٩ ومع ذلك فإننا ما زلنا نفترض أن وظيفة الاستثمار أقل استقراراً من وظيفة الاستهلاك، على الرغم من أننا أقل تأكيداً من استقرار الأخيرة عما اعتدنا أن نكون. وفى الحالة التى نحن بصدها يبدو من الحكمة أن نربط بين الأهمية الطارئة وبين الجزء من الإنفاق الذى اضطر إلى الاحتفاظ بأكبر معدل من الزيادة فى الإنفاق الإجمالى الذى لم يتعرض للإعاقه، إن الحاجة للمحافظة على معدل محدد من الزيادة فى الإنفاق على الاستثمار لم يتم التأكيد عليه بقدر كاف من قبل السيد توماس ويلسون فى كتابه الذى استشهدت به مرات متعددة والذى استند إليه الطلاب فى ذلك الوقت.

تفسيرات أخرى. ولكن هناك شيئاً واحداً واضحاً بشأن تلك التجربة، فحتى خريف ١٩٢٩ كان الهبوط محدوداً، والركود فى النشاط الاقتصادى كان معتدلاً والبطالة كانت بسيطة نسبياً. وإلى ما قبل نوفمبر كان يمكن الجدل بأن لا شيء كبيراً قد حدث. ففى مناسبات أخرى - فى ١٩٢٤ و ١٩٢٧ وفى أواخر ١٩٤٩ - تعرض الاقتصاد لحالات ركود مشابهة. ولكن خلافاً لتلك المناسبات الأخرى، استمر الركود واستمر، وتحول إلى الأسوأ بشكل عنيف؛ كان هذا هو الملمح الفريد فى تجربة ١٩٢٩ وهذا هو ما نحتاج حقاً لأن نفهمه.

- ٥ -

هناك مسألة بسيطة مؤداها أن الاقتصاد فى ١٩٢٩ كان - باستخدام معدل للأكلشييه المشهور - غير سليم من حيث الأساس، وهذا ظرف ذو أهمية قصوى. أشياء كثيرة كانت خاطئة، ولكن هناك خمسة أوجه ضعف تبدو ذات صلة وثيقة بصفة خاصة بالكارثة التى حلت لاحقاً. وتلك هى:

١- التوزيع السيئ للدخل: فى ١٩٢٩ كان الأغنياء بالتأكيد أغنياء. الأرقام غير كافية بشكل عام، ولكن يبدو من المؤكد أن ٥% من السكان أصحاب أعلى الدخل فى تلك السنة؛ حصلوا على ثلث إجمالى الدخل الشخصية تقريباً. والقسم من الدخل الشخصية الذى تم الحصول عليه فى شكل فوائد وتوزيعات وإيجارات - الدخل الذى يذهب فى الغالب الأعم للطبقات العليا - كان يساوى تقريباً ضعفى مثيله فى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية (١).

هذا التوزيع غير العادل للدخل - إلى حد كبير - يعنى أن الاقتصاد كان يعتمد على إما مستوى عالٍ من الاستثمار، وإما مستوى عالٍ من الإنفاق على الاستهلاك الترفى، أو كليهما. فالأغنياء لا يستطيعون شراء كميات ضخمة من الخبز. ولو أنهم بسبيل التصرف فيما يحصلون عليه من دخل، فعليهم إنفاقه على اقتناء سلع الرفاهية أو على الاستثمار فى مصانع جديدة ومشروعات جديدة. وكل من

Selma Goldsmith, George Jaszi, Hyman Katiz, and Maurice Liebenberg, "Size Dis- (١) tribution of Income since the mid- thirties," The Review of Economic and Statistics, February 1954, pp. 16, 18.

الاستثمار والإنفاق الترفى هما حتماً موضوعان لتدخلات أكثر تقلباً واضطراباً فى السوق من إنفاق العامل الذى يتقاضى ٢٥ دولاراً فى الأسبوع على الإيجار أو الخبز. هذا الإنفاق الكبير وهذا الاستثمار الكبير كانا بوجه خاص عرضة للتأثر - كما يمكن أن يفترض المرء - بالأنباء الماحقة التى صدرت عن البورصة فى أكتوبر ١٩٢٩.

٢ - البنية الرديئة للشركات: فى نوفمبر ١٩٢٩ - أى بعد الانهيار بأسابيع قليلة، قدمت الجمعية الاقتصادية فى هارفارد - كسبب مبدئى لعدم الحاجة للخوف من حدوث كساد - تقديرها المسبب حول أن "الأعمال فى معظم المجالات نظمت بتبصر ومحافضة"^(١). والحقيقة هى أن الشركات الأمريكية فى العشرينيات قد فتحت ذراعيها بترحاب لعدد استثنائى من المروجين والمبتزين والنصابين والمدعين والغشاشين، وقد كان هذا - على مدى التاريخ الطويل لمثل تلك الأنشطة - نوعاً من التيار الجارف من السرقة الجماعية.

أهم نقاط الضعف فى الشركات، كان كامناً فى البنية الجديدة العريضة للشركات القابضة والتكتلات الاستثمارية؛ فالشركات القابضة سيطرت على قطاعات كبيرة من المرافق والسكك الحديد ومجالات الترفيه، وهنا - كما فى التكتلات الاستثمارية - كان يوجد الخطر الدائم من الخراب الناجم عن التدفق النقدى السالب. وبصفة خاصة توزيعات الشركات التابعة التى كانت تدفع باعتبارها فوائد على السندات فى الاتجاه العكسى إلى الشركات القابضة. إن توقف التوزيعات كان يعنى الإخلال بالتزامات السندات والإفلاس والانهيار الهيكلى. وفى ظل تلك الظروف، كان إغراء تقليص الاستثمارات فى المصانع العاملة من أجل الاستمرار فى دفع التوزيعات قوياً بشكل واضح، وهذا بالإضافة للضغوط الانكماشية؛ والأخيرة بدورها قلصت الأرباح وأضعفت التنظيم الهرمى للشركات. وعندما حدث هذا، أصبح حتى المزيد من خفض الإنفاق حتمياً، وخصص الدخل لسداد الديون، وأصبح الاقتراض من أجل استثمارات جديدة مستحيلاً. وقد يكون من الصعب تصور نظام لشركات صمم على نحو أنسب للاستمرار فى تصوير الحلزون الانكماشى.

(١) Weekly Letter, November 23, 1929.

٢ - البنية المصرفية الرديئة: منذ أوائل الثلاثينيات أنبئ جيل من الأمريكيين - أحياناً على سبيل التسلية، وأحياناً بنقمة، وغالباً بغضب - عن الممارسات المصرفية فى أواخر العشرينيات. والحقيقة أن الكثير من هذه الممارسات صارت تبدو حمقاء بتأثير الكساد فقط، فالقروض التى كان يمكن أن تكون جيدة تماماً أصبحت حمقاء تماماً بفعل انهيار أسعار المقترض أو انهيار أسواق سلعة أو انهيار قيمة الضمانات التى قدمها. إن أكثر المصرفيين مسئولية - هؤلاء الذين رءوا أن مدينهم كانوا ضحايا لظروف خارج سيطرتهم تماماً، ومن ثم سعوا لمساعدتهم - تم تصويرهم غالباً باعتبارهم الأسوأ. ولقد استسلم المصرفيون - كما فعل آخرون - للمزاج اللا مبالى المتفائل غير الأخلاقى لتلك الفترة، ولكن ربما ليس إلى حد كبير. ولو فرض أن كساداً كالذى وقع فى سنوات ١٩٢٩ - ١٩٣٢؛ بدأ وقت كتابة هذه السطور، فلربما كان مدمراً للكثير من السمعات المصرفية المبرأة حالياً من الشبهات.

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن المصرفيين لم يكونوا حمقى فوق المعتاد فى ١٩٢٩؛ فقد كانت البنية المصرفية ضعيفة بطبيعتها. لقد كان الضعف كامناً فى العدد الكبير من الوحدات المستقلة. وعندما كان بنك يفشل، كانت أصول بنوك أخرى تتجمد بينما كان مودعون فى أماكن أخرى يتلقون تحذيرات متسلسلة بأن يذهبوا ويطلبوا بأموالهم.. وهكذا يؤدى فشل إلى المزيد من حالات الفشل، وتنتشر هذه الحالات بتأثير الدومينو. وحتى فى أفضل الأوقات، فإن سوء حظ فى منطقة محلية أو سوء إدارة فى جهة منعزلة يمكن أن يبدأ تفاعلاً متسلسلاً كهذا (فى الأشهر الستة الأولى من ١٩٢٩ فشل ٢٤٦ بنكاً فى أجزاء متعددة من البلاد يصل مجموع إيداعاتها إلى نحو ١١٥ مليون دولار) (١). عندما تنهارى الدخول والعمالة والقيم كنتيجة للكساد، فإن حالات فشل البنوك يمكن أن تصبح وبائية بسرعة. وقد حدث هذا بعد ١٩٢٩؛ ومرة أخرى قد يكون من الصعب أن نتصور ترتيباً أفضل لتعظيم تأثير الخوف؛ فإن الضعيف لا يدمر فقط الضعيف الآخر، ولكنه يضعف القوى. إن الناس فى كل مكان - غنيهم وفقيرهم - أصبحوا واعين بالكارثة عبر إدراكهم أن مخراتهم قد دمرت.

(١) Compiled from Federal Reserve Bulletin, monthly issue, 1929.

لسنا فى حاجة إلى القول بأن مثل هذا النظام المصرفى - لحظة أن انتابته تشنجات الفشل - كانت له تأثيرات كابحة - على نحو فريد - فى إنفاق المودعين لديه وعلى استثمارات عملائه.

٤ - الحالة الملتبسة للتوازن الخارجى: وهذه قصة شائعة، حيث أصبحت الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الأولى دائناً على المستوى الدولى. وفى العقد التالى استمر الفائض فى الصادرات على الواردات والذى تكفل بسداد الفوائد وأصل القروض التى سبق الحصول عليها من أوروبا، وظلت التعريفة الجمركية المرتفعة التى حدثت من الواردات وساعدت فى خلق ذلك الفائض قائمة. ومع ذلك، فإن التاريخ والعادات التجارية التقليدية أيضاً تفسر الإصرار على هذا الميزان الإيجابى، كما أطلق عليه.

فىما سبق، كانت الفوائد وأصول القروض تخصص من الميزان التجارى. أما الآن، وحيث أصبحت الولايات المتحدة دائنة، فإنها تضاف إلى هذا الميزان. وعلينا أن نقر بأن الفائض لم يكن ضخماً. وفى سنة واحدة ١٩٢٨ وصل فائض الصادرات على الواردات إلى بليون دولار، أما ١٩٣٢ و ١٩٣٦ فقد كان فقط ٣٧٥٠٠٠٠٠٠ دولار^(١). ومع ذلك، فإن هذا الفائض - كبير أو صغر - كان يجب أن يغطى؛ فالدول الأخرى التى كانت تشتري أكثر مما تبيع، وبالإضافة لذلك ملتزمة بمدفوعات ديون، كان عليها - بشكل ما - أن تجد وسائل لتعويض العجز فى معاملاتها مع الولايات المتحدة.

خلال معظم سنوات العشرينيات؛ كان الفرق يغطى بمدفوعات نقدية - أى مدفوعات بالذهب للولايات المتحدة - بينما كان يسد من الولايات المتحدة للدول الأخرى بقروض جديدة خاصة. معظم القروض كانت موجهة لحكومات - حكومات قومية، أو على مستوى الولايات، أو وحدات محلية. وقسم كبير من هذه القروض كان موجهاً لألمانيا وأمريكا الجنوبية والوسطى. وقد كان الهامش المخصص للضامنين فى التعامل على تلك القروض سخياً، وأقبل عليها

U.S. Department of Commerce, Bureau of Foreign and Domestic Commerce, Statistical (1) Abstract of the United States, 1942.

المقترضون بحماس، وكانت المنافسة عليها حامية. ولو كان الفساد والرشوة لسوء الحظ مطلوبين باعتبارهما أداتين تنافسيتين، فقد كان يجرى استخدامهما. في أواخر ١٩٢٧ تقاضى جوان ليجويا، نجل رئيس جمهورية بيرو ٤٥٠٠٠٠ دولار من جى آند دبليو سليجمان آند كومبانى وناشيونال سيتى كومبانى (التابع لناشيونال سيتى بنك) مقابل خدماته فى إبرام قرض بقيمة ٥٠٠٠٠٠٠ دولار قدمته هاتان المؤسستان الماليتان لبيرو^(١). وقد كانت خدمات جوان - وفقاً لشهادة لاحقة - من نوع سلبي لحد ما، فقد تقاضى تلك المبالغ من أجل ألا يقف فى وجه عقد تلك الصفقة. كما قدم بنك تشيز للرئيس الكوبى ماكادو - الديكتاتور ذى النزعة المعروفة تجاه جرائم القتل - حساباً شخصياً سخياً للسحب على المكشوف وصل رصيده فى وقت معين إلى ٢٠٠٠٠٠ دولار. (٢)، كما تم توظيف صهر ماكادو فى تشيز، ونفذ البنك أعمالاً كبيرة فى سندات كوبية. وبالتأمل فى تلك القروض، نجد أنه كان هناك اتجاه للعبور بسرعة فوق أى شىء يمكن أن يشير إلى مساوئ بالنسب للمقرض. وها هو السيد فيكتور سكوپوريل - أحد نواب رئيس ناشيونال سيتى كومبانى والمسئول عن قروض أمريكا اللاتينية - يقدم هذا التقييم حول بيرو باعتباره مقترض محتمل:

"بيرو: سجل ردىء كمقترض. سلبيات أخلاقية ومخاطرة سياسية. موقف مقترض داخلى سيئ. موقف تجارى شبيه بموقف تشيلى فى السنوات الثلاث السابقة. موارد طبيعية أكثر تنوعاً. وضع بيرو الاقتصادى سوف يتقدم سريعاً فى السنوات العشر المقبلة"^(٣).

على المنوال نفسه أصدر ناشيونال سيتى كومبانى قرضاً لصالح بيرو بقيمة ١٥٠٠٠٠٠٠ دولار، وأتبعته بعد عدة أشهر بقرض قيمته ٥٠٠٠٠٠٠٠ دولار، وبقرض آخر بعد نحو عشرة أشهر قيمته ٢٥٠٠٠٠٠٠ دولار (أثبتت بيرو أنها تمثل مخاطرة سياسية سلبية بدرجة عالية، فالرئيس ليجويا الذى تفاوض على

(١) Stock Exchange Practices, Report, 1934, pp. 220-21.

(٢) Ibid, p. 215.

(٣) Stock Exchange Practices, Hearings, February-March 1933, pt. 6, p. 2091 ff.

تلك القروض أطيح به من منصبه بالقوة، وتعرضت القروض للتوقف عن السداد).

من كل الجوانب، كانت هذه العمليات تمثل جزءاً من "العصر الجديد" - إلى حد كبير - مثلها مثل شيناندوه وبلو ريدج. لقد كانت هشة تماماً، وبمجرد أن تبددت أوهام "العصر الجديد" وصلت هذه العمليات إلى نهايتها فجأة، وهذا بدوره استلزم مراجعة أساسية للموقف الاقتصادى الخارجى للولايات المتحدة. إن الدول لم تكن تستطيع تغطية عجز ميزانها التجارى مع الولايات المتحدة بالمزيد من مدفوعات الذهب، لمدة طويلة على الأقل. وقد كان هذا يعنى أن على هذه الدول إما أن تزيد من صادراتها للولايات المتحدة، وإما تقلل من واردتها منها، وإما أن تتوقف عن سداد ديونها السابقة. وقد تحرك الرئيس هوفر والكونجرس فوراً للحد من إمكانية البديل الأول - وهو الوصول إلى التوازن عن طريق صادرات أكبر - وذلك بزيادة التعريفات الجمركية زيادة حادة، وتبعاً لذلك توقف سداد الديون، بما فى ذلك الديون العسكرية، وحدث هبوط فوري فى الصادرات الأمريكية. الانخفاض لم يكن كبيراً بالنسبة إلى مجمل مخرجات الاقتصاد الأمريكى، ولكنه ساهم فى الضغط العام، وكان قاسياً بصفة خاصة بالنسبة للمزارعين.

٥ - الحالة البائسة للذكاء الاقتصادى: أن تشير إلى الناس فى وقت ما بصفة خاصة؛ باعتبارهم محدودى الذكاء يبدو شيئاً غير ملائم. كما أنه يضع سابقة يمكن أن يأسف لها أفراد هذا الجيل؛ ولكن يبدو أنه من المؤكد أن الاقتصاديين وهؤلاء الذين قدموا المشورة الاقتصادية فى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات كانوا فى الغالب من الحمقى لدرجة فريدة من نوعها. وفى الأشهر والسنوات التالية للانهايار الكبير فى البورصة، كان عبء النصيحة الاقتصادية النزيهة على الدوام فى كفة التصرفات التى يمكن أن تجعل الأمور أسوأ. وفى نوفمبر ١٩٢٩، أعلن السيد هوفر عن تخفيضات ضريبية. وفى مؤتمرات اللا فعل الكبيرة التى تلت ذلك، طلب من أصحاب مشروعات الأعمال الاستمرار فى استثماراتهم الرأسمالية والحفاظ على الأجور. وكل من

هذين الإجراءين كان لصالح زيادة الدخل القابل للإنفاق، على الرغم من أنهما - لسوء الحظ - كانا لدرجة كبيرة عديمي التأثير؛ فالتخفيضات الضريبية كانت محدودة جداً إلا على شرائح الدخل العليا. ورجال الأعمال الذين وعدوا بالحفاظ على الاستثمار والأجور - وفقاً لعرف مفهوم جيداً - اعتبروا الوعد ملزماً فقط خلال الفترة التي لم يكن من غير المواتى فيها من الناحية المالية فعل ذلك. ونتيجة لذلك، فإن الإنفاق الاستثمارى والأجور لم تخفض لحين وجود ظروف تستدعى تخفيضها.

وعلى الرغم من أن الجهود كانت فى الاتجاه الصحيح، فإن السياسات اللاحقة كانت بالكامل تقريباً فى صف جعل الأمور أسوأ. فعند سؤال المستشار المسئول والموثوق به: كيف تستطيع الحكومة الدفع بالأمور نحو الإصلاح، كان يجادل بأن الميزانية تجرى موازنتها. وقد وافق كلا الحزبين على ذلك، فبالنسبة إلى الجمهوريين كان توازن الميزانية - كمهدم دائماً - هو عقيدتهم. ولكن برنامج الحزب الديمقراطى لسنة ١٩٣٢؛ بوضوح يندر أن ينصح به السياسيون - طالبوا أيضاً بـ "ميزانية اتحادية سنوية متوازنة على أساس تقديرات عملية دقيقة للإيرادات ..".

إن أى التزام بميزانية متوازنة يأتى دائماً شاملاً. ومن ثم فإنه يعنى أنه يمكن ألا يكون هناك توسع فى الإنفاق على شراء الطاقة مع إجراء تخفيض للمعونات. ويعنى أنه يمكن ألا يكون هناك مزيد من التخفيضات الضريبية؛ ولكنه حرفياً كان يعنى أكثر من هذا بكثير. فمنذ ١٩٣٠ فصاعداً؛ كانت الميزانية بعيدة جداً عن التوازن.. ولهذا، فإن التوازن كان يعنى زيادة فى الضرائب أو خفض فى الإنفاق أو كليهما. وقد نادى برنامج الديمقراطيين لسنة ١٩٣٢ بـ "تخفيض جذرى وعاجل فى الإنفاق الحكومى" من أجل إنجاز تخفيض قدره ٢٥٪ على الأقل من تكلفة الحكومة.

لم تكن الميزانية المتوازنة موضوعاً فكرياً ولا كانت - كما تم التأكيد على ذلك كثيراً - أمراً عقائدياً، ولكنها كانت وصفة تطبيقية. على مدى قرون كان تجنب الاقتراض يحمى الناس من الإدارة الفوضوية أو المستهترّة للممتلكات العامة.

ولكن حماية المال العام من الفوضويين والمستهترين غالباً ما ألفوا المجادلات المعقدة كي يبينوا لماذا لم يكن توازن الدخل والإنفاق علامة قوة، لكن الخبرة تبين أنه على الرغم من أن هذا الاعتقاد قد يبدو مريحاً على المدى القصير، فإنه يستتبع المشكلات والكوارث على المدى الطويل. تلك القواعد البسيطة لعالم بسيط لم تصمد وسط التعقيدات المتنامية في أوائل الثلاثينيات؛ فالبطالة الضخمة - على وجه الخصوص - غيرت القواعد. لقد مارست الأحداث خدعة سيئة جداً على الناس، ولكن لا أحد تقريباً حاول إعادة التفكير في المشكلة من جديد.

إن الميزانية المتوازنة لم تكن الفزاعة الوحيدة للسياسة، فقد كان هناك أيضاً شبح الخروج عن قاعدة الذهب، وما هو أكثر غرابة... مخاطرة التضخم. حتى سنة ١٩٣٢؛ أضافت الولايات المتحدة كثيراً جداً إلى احتياطيها من الذهب. وبدلاً من التضخم عانت البلاد من أعنف انكماش في تاريخ الأمة. ولكن كل مستشار رصين رأى الأخطار هنا، بما في ذلك خطر الارتفاع المحلق في الأسعار. إن الأمريكيين - الآن كما في الماضي - أظهروا ميلاً لإدخال تعديلات طفيفة على عرض النقود والاستمتاع بمسرات قصيرة الأمد؛ ولكنها مثيرة ناتجة عن انفجار في الأسعار. وفي ١٩٣١ و ١٩٣٢ كان خطر - وحتى إمكانية - مثل هذا الانفجار منعزلاً، ولكن المستشارين والناصحين لم يكونوا - على الرغم من ذلك - يحللون الخطر أو حتى الإمكانية. لقد كانوا يؤدون عملهم فقط كأوصياء ضعاف الذاكرة.

الخوف من التضخم دعم المطالبة بميزانية متوازنة، كما حدث من الجهود الرامية لتخفيض سعر الفائدة وجعل الائتمان وفيراً (أو حتى متوافراً) والاقتراض سهلاً بقدر الإمكان وبحسب الظروف. أما تخفيض قيمة الدولار؛ فقد كان بالطبع مستبعداً تماماً، وقد أدى هذا مباشرة إلى خرق مبادئ قاعدة الذهب. في أفضل الأحوال - في ظل كساد كهذا - تكون السياسة النقدية أضعف مما يمكن الاعتماد عليها. ولم تسمح الكيشيات الاقتصادية المواكبة باستعمال حتى هذا السلاح الهش. ومرة أخرى؛ كانت المواقف أكبر من الحزب. وعلى الرغم من أن

روزقلت نفسه شخصياً كان منفتحاً، فإنه كان حريصاً على ألا يزعج أو يقلق أنصاره، ففى خطاب له فى بروكلين قرب ختام الحملة الانتخابية فى ١٩٣٢ قال:

(إن البرنامج الديمقراطى يعلن - على وجه التأكيد - أننا نؤيد عملة قوية كى تظل مصنونة تجاه كل المخاطر" هذا كلام واضح. وعند مناقشة هذا البرنامج فى الثلاثين من يوليو قلت: "إن العملة القوية ضرورة عالمية، وليست اعتباراً محلياً لأمة على حدة". وفى أقصى الشمال الغربى، فى بوت، كررت تعهدى... وفى سياتل أعدت التأكيد على موقفى...) (١).

فى فبراير التالى شرح السيد هوفر وجهة نظره - كما كان يفعل فى معظم الأحيان - فى خطاب شهير موجه إلى الرئيس المنتخب:

(سوف يصون البلاد لدرجة كبيرة وجود ضمان عاجل بأنه لن يكون هناك عبث أو تضخم فى العملة، وأن الميزانية سوف تكون متوازنة حتماً حتى لو كان من الضروري فرض ضرائب إضافية، وأن مديونية الحكومة لن تزيد وذلك عن طريق رفض الإنفاق عليها بإصدار أوراق مالية) (٢).

إن رفض كل من السياسات المالية (الضرائب والإنفاق) والنقدية وصل بالضبط إلى رفض كل السياسات الاقتصادية الحكومية الإيجابية. إن المستشارين الاقتصاديين فى ذلك الحين امتلكوا من الإجماع والسلطة ما أجبر قادة كل من الحزبين على أن يتكروا لكل الخطوات المتاحة لكبح الانكماش والكساد؛ وقد كان هذا إنجازاً مرموقاً بطريق خاصة؛ مثل انتصاراً للأيدىولوجية على العقل، وكانت العواقب وخيمة.

- ٦ -

إن دور انهيار بورصة الأوراق المالية فى مأساة الثلاثينيات الكبرى؛ يجب أن ينظر إليه فى ضوء الضعف الأشمل للاقتصاد. فى سنوات الاستهلاك الذاتى

(١) Lawrence Sullivan, Prelude to Panic (Washington: Statesman Press, 1936), p. 20.

(٢) William Starr Myers and Walter H. Newton, The Hoover Administration: A Documented Narrative (New York: Scribners, 1936), pp. 399-40.

للول ستريت كان الدور ذا أهمية لها اعتبارها. وانهيار قيم الأوراق المالية أثر - فى البداية فى الأغنياء والطبقات العليا، ولكننا نرى أن هذه كانت مجموعة حيوية فى عام ١٩٢٩، إن أفراد هذه المجموعة تخلصوا من قسم كبير من الدخل الاستهلاكي، فقد كانوا مصدرًا لنصيب الأسد فى الادخار والاستثمار الشخصيين. وأى شىء يصدم الإنفاق أو الاستثمار من قبل هذه المجموعة سوف تكون له - بالضرورة - آثار واسعة على الإنفاق والدخل وفى الاقتصاد عمومًا. وتحديدًا، فإن انفجاراً مثل هذا قد حدث بسبب انهيار سوق الأوراق المالية. وبالإضافة لذلك، فإن الانهيار قد حرم الاقتصاد من الدعم الذى كان يستمد من الإنفاق المعتمد على أرباح البورصة.

إن انهيار البورصة كان - أيضاً - أسلوباً فعالاً على نحو استثنائي؛ لاستغلال ضعف بنية الشركات. فالشركات التابعة فى نهاية سلسلة الشركات القابضة أجبرت بسبب الانهيار على تقليص الإنفاق. إن الانهيار المترتب على هذه المنظومات وأيضاً على انهيار التكتلات الاستثمارية قد دمر - بدرجة مؤثرة - كلا من القدرة على الاقتراض والرغبة فى الإقراض بفرض الاستثمار. وهو ما ظل لزمان طويل يبدو بوضوح كتأثير تابع ترجم فى الحقيقة وبسرعة إلى أنظمة متهاوية وبطالة متزايدة.

كان الانهيار مؤثراً أيضاً فى وضع نهاية للاقتراض الأجنبى الذى كانت الحسابات القومية تتوازن بواسطته. الآن أصبح على الحسابات القومية أن تتوازن أساساً بواسطة الصادرات المتناقصة، وقد شكل هذا ضغطاً فورياً قوياً على أسواق صادرات القمح والقطن والتبغ. وربما تكون القروض الأجنبية قد أجلت فقط ضبطاً للتوازن كان عليه أن يحدث يوماً ما؛ ومع ذلك فقد قامت سوق الأوراق المالية بدور فى التعجيل بهذا الضبط على نحو بالغ المفاجأة، فى وقت غير موات لأقصى درجة. ولم تكن غريزة المزارعين التى دفعتهم لتتبع مشكلاتهم حتى وصلوا بها إلى سوق الأوراق المالية على خطأ تماماً.

وأخيراً، عندما ضرب سوء الحظ ضربته، فإن المواقف المتخذة فى ذلك الوقت منعت أى شىء من أن يفعل شيئاً إزاءه. وربما كان هذا هو أكثر الملامح إثارة للقلق

على الإطلاق. لقد كان بعض الناس جوعاً في ١٩٣٠ و ١٩٣١ و ١٩٣٢. بينما كان آخرون يتعذبون خوفاً من أن يصبحوا جائعين. وكان هناك آخرون يعانون من عذاب السقوط من الإجلال والاحترام اللذين حققهما لهم دخلهم إلى وهدة الفقر. وكان آخرون يخشون من أن يكونوا هم التاليين. وفي الوقت نفسه كان كل شخص يعاني من الإحساس باللا جدوى المطلقة. وبدا أنه لم يكن هناك ما يمكن فعله. وبالنظر إلى الأفكار التي حكمت السياسات لم يكن هناك ما يمكن فعله.

لو أن الاقتصاد في سنة ١٩٢٩ كان سليماً من حيث الأساس، لكان من الممكن أن يكون تأثير الانهيار الكبير في سوق الأوراق المالية قليلاً. أو من ناحية أخرى؛ لكان من الممكن لصدمة الثقة وانخفاض إنفاق هؤلاء الذين أوقع بهم السوق أن يتوقفاً سريعاً، ولكن الأعمال في ١٩٢٩؛ لم تكن سليمة، بل على العكس كانت هشة إلى أبعد الحدود، لقد كانت عرضة للتأثر بنوع من الانفجار الذي أحدثه بها وول ستريت. وكان هؤلاء الذين أكدوا هذه القابلية للتعرض للتأثر؛ يقفون بوضوح على أرضية صلبة، ولكن عندما تتعرض صوبة زجاجية لعاصفة ثلجية يعزى للعاصفة ما هو أكبر من مجرد دورها السلبي. ويجب على المرء أن يعطى أهمية مشابهة للإعصار الذي هب من مانهاتن في أكتوبر ١٩٢٩.

-٧-

عندما ينتهى المؤرخ العسكرى من تسجيل الأحداث؛ لا يطلب منه أكثر من ذلك. ولا يطلب منه تقييم إمكانية تجدد الحرب مع الهنود أو المكسيكيين أو مع الجنوبيين. ولن يضغط عليه أحد كي يقول كيف يمكن منع مثل هذا النزاع، ولكن الاقتصاد يؤخذ على نحو أكثر جدية، ونتيجة لهذا، فإن المؤرخ الاقتصادى يسأل دائماً ما إذا كانت المحن التي يصفها سوف ترزؤنا مرة أخرى وكيف يمكن منعها.

إن مهمة هذا الكتاب - كما أشرنا إلى ذلك في بدايته - هي فقط أن ينبئ بما حدث في ١٩٢٩ وليس أن ينبئ بما إذا كان سوف يتكرر أو متى سوف يتكرر. إن واحداً من الدروس المفعمة بالمعاني من ذلك العام سوف يكون الآن واضحاً؛ وهو أن سوء حظ محدداً وشخصياً ينتظر هؤلاء الذين يجسرون على الاعتقاد بأن

المستقبل مكشوف أمامهم، ومع ذلك فقد يكون من الممكن - من دون مخاطرة كبيرة - أن نحصل من نظرتنا إلى ذلك العام المفيد على بعض التبصر بالمستقبل. ونستطيع أن نميز - بصفة خاصة - بين محن يمكن أن تتكرر وأخرى جعلت منها الأحداث - التي يعود الكثير منها إلى ما بعد ١٩٢٩؛ غير محتملة التكرار على الأقل. كما أنه من الممكن أن نرى قليلاً من شكل وحجم الخطر الذي لا يزال قائماً.

من اللوحة الأولى، سيبدو أن أقل ما يحتمل حدوثه من تعاسات أواخر العشرينيات؛ هو رواج وحشى آخر فى سوق الأوراق المالية مع انهياره الحتمى. عندما اقتربت تلك الأيام من خيبة الأمل من نهايتها هز عشرات الآلاف من الأمريكيين رؤوسهم وغمغمو قائلين: "لن نفعلها ثانية". وحتى فى وقتنا هذا يوجد فى كل تجمع كبير قليل من الناجين - كبار فى السن ولكنهم لا يزالون يتلقون عقابهم - لا يزالون يغمغمون ولا يزالون يهزون رؤوسهم؛ أما "العصر الجديد" فلم يكن فيه مثل هؤلاء الحراس ذوى التشاؤم الكبير.

توجد أيضاً المعايير والضوابط الحكومية، فسلطات مجلس الاحتياطى الفيدرالى - الذى يسمى الآن مجلس المحافظين، أو جهاز الاحتياطى الفيدرالى - تمت تقويتها فى علاقتها بكل من بنوك الاحتياطى الفرعية والبنوك الأعضاء. وتعجرف ميتشل الذى مارسه فى مارس ١٩٢٩ أصبح الآن غير وارد. وما كان فى ذلك الوقت نوعاً من الغطرسة؛ ولكن ليس نوعاً من الفردية الشاذة يمكن أن يشار إليه اليوم باعتباره حماقة. إن بنك الاحتياطى الفيدرالى لنيويورك يظل علامة على الاستقلالية والسلطة المعنوية، ولكن ليس لدرجة مقاومة أى من سياسات واشنطن. الآن توجد أيضاً سلطة لتحديد شروط للشراء بالهامش. وعند الضرورة يمكن جعل المضارب يدفع القيمة الكاملة للسهم الذى يشتريه. ولو أن ذلك قد لا يثنيه كلية عن المضاربة، ولكنه يعنى أنه عندما تهبط السوق يمكن ألا يكون هناك تيار قوى من استدعاء بقية أثمان الأسهم المشتراة بالهامش يدفع لمزيد من البيع، كما يضمن أن السيولة سوف تخضع لتقليص مستمر. وأخيراً؛ فإن لجنة الأوراق المالية والبورصة هى عائق - يؤمل أن يكون فعالاً - فى وجه عمليات التلاعب بالسوق واسعة النطاق، كما أنها أيضاً تكبح جماح أدوات وفنون البيع التى تستخدم لتجنيد المضاربين.

ومع ذلك، فمن بعض الجوانب تظل فرصة تكرار الانغماس فى المضاربة جيدة. فلا أحد يستطيع الشك فى أن الشعب الأمريكى يظل عرضة للتأثر بمزاج المضاربة، أو للاعتقاد فى أن المغامرة يمكن أن تعد بمكافآت غير محدودة هم مهتمون - على المستوى الفردى - بالمشاركة فيها. إن وجود سوق صاعدة يستطيع أن يظل شاهداً على واقعية الثراء، وهذا بدوره يمكن أن يجذب المزيد والمزيد من الناس للمشاركة. إن أساليب الوقاية والضوابط الحكومية جاهزة؛ وعندما تكون فى يد حكومة حازمة فلا سبيل للتشكيك فى فاعليتها؛ ومع ذلك توجد مئة سبب تجعل الحكومة تصر على استخدامها، ففى ديمقراطيتنا تكون هناك انتخابات وشيكة حتى فى اليوم التالى للانتخابات. وتجنب الكساد والوقاية من البطالة أصبحا بالنسبة إلى السياسى الموضوعات الأكثر حرجاً من بين كل موضوعات السياسات العامة. فالتصرف بغرض وضع حد للرواج، يجب دائماً أن يوزن فى مقابل فرصة أن يتسبب فى البطالة فى لحظة غير ملائمة سياسياً. ويجب أن نلاحظ أن الرواج لا يوقف إلا بعد أن يبدأ؛ وبعد أن يبدأ الرواج، سوف يبدو التصرف دائماً - كما بدا للرجال المذعورين فى مجلس الاحتياطى الفيدرالى فى ١٩٢٩ كقرار لصالح الموت العاجل فى مواجهة الموت الطبيعى. وكما رأينا؛ فإن الموت العاجل لا يتسم فقط بسلبية كونه عاجلاً، ولكن أيضاً بتحديدته لشخصية الجلاذ.

إن السوق لن تستمر فى اندفاع شديد نحو المضاربة دون بعض الترشيده. ولكن أثناء أى رواج مستقبلى سوف تمدح أى مهارات بارعة جديدة مكتشفة فى نظام المشروع الحر، وسوف يشار إلى أن الناس لديهم ما يبرر لهم دفع الأسعار الحالية - فى الواقع أى أسعار تقريباً - كى يحصلوا على موقع عادل فى النظام. ومن بين أول من يجب أن يقبل ذلك الترشيده هم بعض هؤلاء المسئولين عن المطالبة بالضوابط، ولكنهم سوف يقولون بحزم إن الضوابط لا حاجة لها. والصحف - بعضها - سوف توافق وتتحدث بقسوة عن هؤلاء الذين يظنون أن تصرفاً ما يجب أن يتخذ. وسوف يطلق على هؤلاء أنهم رجال ضعاف الإيمان^(١).

(١) فى تحذير أطلقته سنة ١٩٦٩ من المضاربة فى ذلك الوقت استحققت أن اوصف بهذا الوصف، وإن بطريقة معتدلة.

إن مغامرة جديدة للمضاربة فى البورصة متبوعة بانتهاء آخر فى وقت ما من المستقبل؛ لن يكون لها التأثير نفسه على الاقتصاد كالذى كان فى ١٩٢٩ وإذا ما كان الاقتصاد سوف يضحي سليماً أو غير سليم من حيث الأساس، فهذا شئ - من سوء الحظ - لن يكون واضحاً تماماً إلا بعد الواقعة؛ ومع ذلك فيمكن ألا توجد هذه الحالات لأن الكثير من نقاط الضعف المتناهى التى تعرض لها الاقتصاد فى ١٩٢٩ أو بعدها مباشرة؛ قد تمت تقويتها جوهرياً منذ ذلك الحين. فتوزيع الدخل لم يعد غير متوازن بدرجة كبيرة. وبين ١٩٢٩ و ١٩٤٨ انخفض الجزء من الدخل الإجمالى الذى يذهب إلى الـ ٥% من السكان أصحاب أعلى الدخل من الثلث تقريباً إلى أقل من الخمس. وبين ١٩٢٩ و ١٩٥٠؛ زادت النسبة من إجمالى الدخل العائلية التى يجرى الحصول عليها كأجور وراتب ومعاشات وتعويضات بطالة من نحو ٦١% إلى نحو ٧١%. هذا هو دخل الناس العاديين. وعلى الرغم من أن التوزيعات والفوائد والإيجارات - الدخل المميزة للأثرياء - قد زادت كرقم مطلق فإن نسبتها انخفضت من أكثر قليلاً من ٢٢% إلى أكثر قليلاً من ١٢% من الدخل الشخصية العائلية (١). فى السنوات التالية؛ قل تدريجياً التحسن فى توزيع الدخل وذهب فى اتجاه عكسى، ولكنه يظل أفضل كثيراً منه فى العشرينيات.

على نحو مشابه، بعد ١٩٢٩ تضاعفت تأسيسات التكتلات الاستثمارية الكبرى وتحسنت أوضاعها، على الرغم من أنها - للأسف - قد استبدلت جزئياً بصناديق استثمار مشتركة وأجنبية، وصناديق استثمار فى الأسهم العادية والتأمين، وتكتلات استثمارية فى مجال الثروة العقارية، وهى التى أصبحت ضحايا انهيار ما بعد ١٩٧٠ ورغم ذلك، فإن لجنة الأوراق المالية والبورصة - مدعومة بقانون الإفلاس - قد أجهزت تماماً على التنظيم الهرمى للشركات القابضة فى مجال المرافق. إن الضمان الفيدرالى لإيداعات البنوك - حتى إلى يومنا هذا - لم يثقل التقدير الكامل للثورة التى قام بها فى مجال البنية المصرفية للبلاد. فمع هذا

(١) These data are from Goldsmith, et al., "Size of Distribution of Income," pp. 16, 18.

القانون وحده تلاشى الخوف الذى أحاط بعملية التخلص من نقاط الضعف. ونتيجة لهذا التشريع تمت معالجة خلل خطير فى النظام القديم كان يتسبب فى فشل يلد فشلاً. ونادراً ما أنجز مثل هذا الإنجاز الكبير بقانون منفرد.

إن مشكلة التوازن الخارجى تختلف كثيراً عما كانت عليه منذ خمسة وعشرين عاماً. فالولايات المتحدة الآن تجد لدى نفسها ميلاً لأن تشتري وتتفق أكثر كثيراً مما تبيع وتلقى.

أخيراً، كانت هناك زيادة معقولة فى المعرفة الاقتصادية. وأى كساد متنامى لن يقابل الآن بتصميم راسخ على جعله أسوأ. بدون شك، سوف تعقد مؤتمرات احتفالية فى البيت الأبيض. وسوف نشهد انفجاراً فى الطمأنينة والتعاويد، وسوف يجادل الكثيرون بأن الانتظار والأمل هما أفضل سياسة.. ومع ذلك، فإن الناس لن يفترضوا ثمانية أن أفضل سياسة سوف تكون - كما عبر الوزير ميلون على نحو عازه التوفيق كثيراً - أن تسيل العمل، وتسيل الأسهم، وتسيل المزارع، وتسيل الثروة العقارية^(١). وما زال علينا أن نختبر تصميمنا على أن نتعامل بحزم ودقة مع كساد خطير. ولكن لا يزال هناك فرق له اعتباره بين الفشل فى القيام بما يكفى مما هو صحيح وبين التصميم على فعل الكثير مما هو خاطئ.

هناك ضعف آخر فى الاقتصاد تم تصحيحه. إن برنامج الزراعة الذى وجه إليه الكثير من السباب يعطى قدراً كبيراً من الضمان للدخل الزراعى، ومن ثم للإنفاق بواسطة المزارعين. تعويضات البطالة تحقق النتيجة نفسها - وإن لم يكن بالقدر الكافى - بالنسبة إلى العمل. وما تبقى من نظام الضمان الاجتماعى - المعاشات والمساعدات العامة - تساعد فى حماية دخل ومن ثم إنفاق قطاعات أخرى من السكان. ونظام الضرائب الآن أداة أفضل كثيراً للاستقرار مما كان عليه فى ١٩٢٩.

إن غضبا من الرب ربما يكون قد حبا الرأسمالية بتناقضات متأصلة، ولكن هذا الغضب كان بما يكفى من اللطف لأن يجعل الإصلاح الاجتماعى متسقاً بدرجة مذهشة مع التشغيل المحسن للنظام.

Quoted by Herbert Hoover, Memoirs, p. 30. (١)

لن يكون من الحكمة رغم كل هذه التعزيزات أن نعرض الاقتصاد لصدمة انهيار كبير آخر ناتج عن مضاربة. إن بعض التعزيزات الجديدة قد تنحرف عن مسارها، ويمكن أن تنشأ تصدعات في أماكن أخرى جديدة وربما غير متوقعة، وحتى الانسحاب السريع من اقتصاد الإنفاق الذي يأتي من أرباح البورصة يمكن أن يكون مدمراً، فأى انهيار - حتى لو كانت عواقبه بسيطة - لن يكون جيداً بالنسبة إلى السمعة العامة لـ وول ستريت.

إن وول ستريت قد اكتسب مؤخراً - كما وصفته عبارة حكيمة - "وعى علاقات عامة" إلى حد بعيد جداً؛ وحيث إن انهياراً ناتجاً عن المضاربة يمكن فقط أن يتبع رواجاً في المضاربة فإن المرء يستطيع أن يتوقع أن وول ستريت سوف يضرب بقوة على أى عودة مجدداً للمضاربة. إن الاحتياطي الفيدرالى سوف يطالب من قبل المصرفيين والسماسرة بأن يرفع الهوامش إلى أقصى حد، ويجب التحذير من أجل تطبيق الشروط بصرامة ضد هؤلاء الذين قد يحاولون الاقتراض بضمان أسهمهم وسنداتهم من أجل شراء المزيد منها. ويجب أن يحذر الجمهور بشدة وباستمرار من المخاطر المتأصلة في شراء الأسهم انتظاراً لارتفاع أسعارها. أما هؤلاء الذين سيصرون رغم ذلك - فلن يجدوا من يلومونه إلا أنفسهم، إن موقف بورصة الأوراق المالية وأعضائها والبنوك والمجتمع المالى عموماً؛ يجب أن يكون واضحاً تماماً ومتمتعاً بالحماية في حالة انهيار آخر بقدر ما تسمح به علاقات عامة جيدة.

كما لاحظنا، فإن كل ذلك يجب أن يكون متوقعاً من الناحية المنطقية، ومع ذلك، فهو لم يحدث في سنوات الثراء السريع والكبير في أواخر الستينيات وما تلاها مباشرة - سنوات انتعاش صناديق الاستثمار واستشراء التكتلات - ولن يحدث، وهذا ليس بسبب أن غريزة الحفاظ على الذات في وول ستريت ضعيفة. بل على العكس قد تكون طبيعية وربما أكثر من طبيعية.. ولكن الآن، كما كان على مدى التاريخ، فإن الطاقة المالية والفتنة السياسية متناسبتان تناسباً عكسياً. إن الخلاص على المدى الطويل على يد رجال من عالم الأعمال لم ينظر إليه بعين

الاعتبار فى يوم من الأيام؛ إذا كان يعنى إحداث الاضطراب فى الحياة المنتظمة والمواءمة الموجودة فى الحاضر. إن التقاعس عن عمل أى شىء سوف يتم تأييده فى الحاضر حتى لو كان يعنى مواجهة مشكلات عميقة فى المستقبل. هنا - على الأقل بالتساوى مع الشيوعية - يكمن التهديد الموجه للرأسمالية، وهو ما يدفع رجالاً يعرفون أن الأمور تسير على نحو خاطئ تماماً لأن يقولوا إن الأمور سليمة من حيث الأساس.

المؤلف فى سطور:

جون كينيث جالبريث

- (١٩٠٨ - ٢٠٠٦)، من ألمع الاقتصاديين فى القرن العشرين.
- اقتصادى وسياسى ليبرالى أمريكى من أصل كندى.
- ينتمى إلى المدرسة الكينزية.
- ألفاً أكثر من ٥٠ كتاباً من أهمها: مجتمع الرفاهية - الرأسمالية الأمريكية - المجتمع الصناعى الحديث.
- كانت مؤلفاته من أكثر الكتب مبيعاً منذ الخمسينيات حتى السبعينيات من القرن العشرين.
- نشر له أكثر من ١٠٠٠ مقال فى الاقتصاد والسياسة ومجالات أخرى متعددة.
- مارس التدريس فى جامعة هارفارد لسنوات طويلة.
- حصل على ٥٠ دكتوراه فخرية من مؤسسات علمية فى دول متعددة.
- عمل خبيراً اقتصادياً فى إدارات أربعة رؤساء أمريكيين هم: روزفلت وترومان وكيندى وجونسون.
- عمل سفيراً لبلاده لدى الهند.

المترجم فى سطور

حمدى أبو كيلة:

- خبير فى الضرائب.
- صدر له العديد من الكتب بين تأليف وترجمة وتحرير.
- نشر عشرات من الدراسات والمقالات المترجمة فى المجلات العربية.
- نشر عشرات الدراسات والمقالات فى المجلات والصحف المصرية والعربية.
- يكتب القصة القصيرة وأدب الأطفال.

Hamdy.a.Kila@gmail.com

التصحيح اللغوى: كريمان البدرى

الإشراف الفنى: حسن كامل